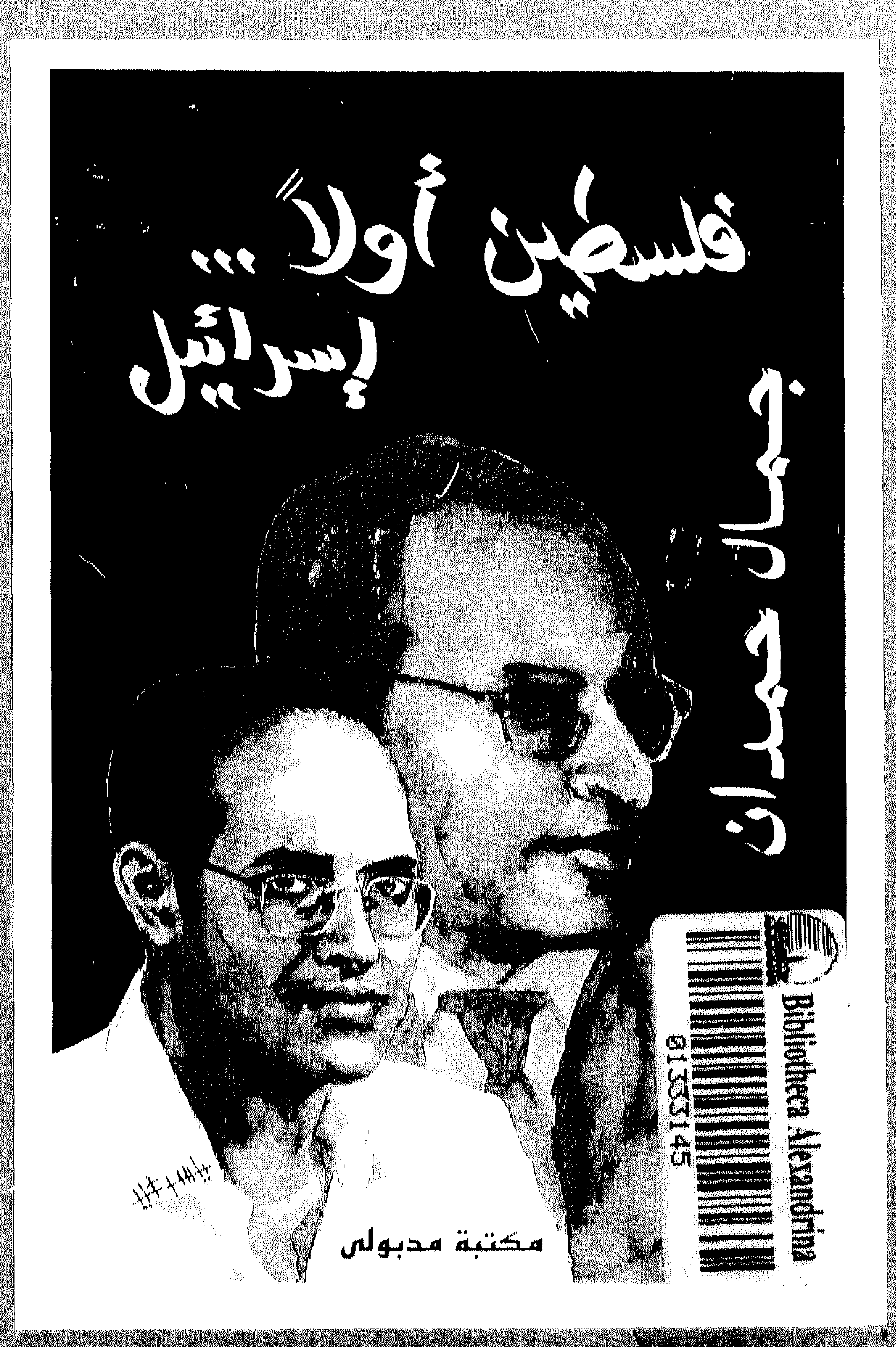

فلسطين أولاً... إسرائيل
جمال حمدان
مكتبة مدبولى
Bibliotheca Alexandrina
01333145

دكتور جمال حمدان

فلسطينيات ....
وإسرائيليات

جمعها وقدم لها

دكتور

عبدالحميد صالح حمدان

مراجع فلسطينيات...
وإسرائيليات...

أولاً : فلسطينيات...

١ - قضية فلسطين والموقف العربى، العدد ٦٥ من مجلة الكاتب، أغسطس ١٩٦٦.

٢ - قضية فلسطين ومحور الأستعمار والصهيونية، العدد ٦٧ من مجلة الكاتب، أكتوبر ١٩٦٦.

٣ - حول الدعوة إلى نظرة جديدة إلى القضية الفلسطينية، العدد ٨٥ من مجلة الكاتب، إبريل ١٩٦٨.

٤ - بين معركة الدعاية ومعركة الميدان، العدد ٨٧ من مجلة الكاتب، يونيو ١٩٦٨.

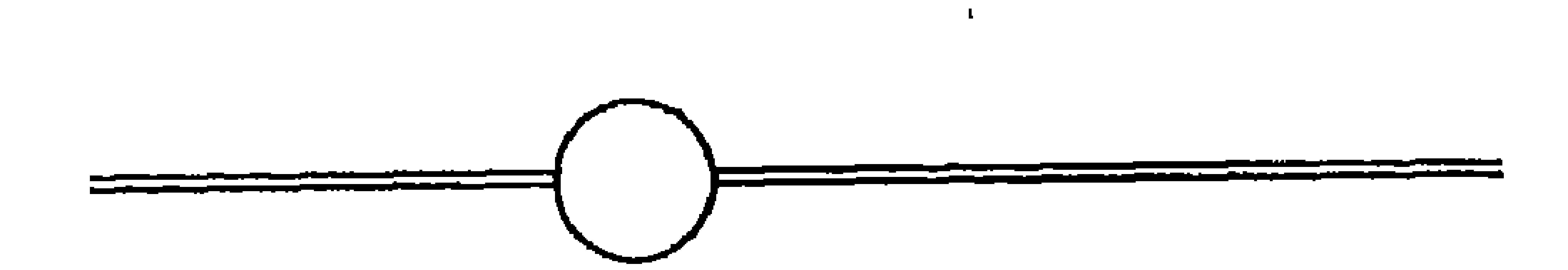
ثانياً : إسرائيليات...

١ - هيكل المجتمع الإسرائيلى، مجلة الفكر المعاصره، العدد(٦) أغسطس ١٩٦٥.

٢ - ليس اليهود من بنى إسرائيل، مجلة الفكر المعاصر، العدد(٢٤)، فبراير ١٩٦٧.

٣ - المعركة لم تنته.. بل بدأت، مجلة الفكر المعاصر، العدد(٣٠)، أغسطس ١٩٦٧.

المحتويات



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

كان الدكتور جمال حمدان عدوا لدوداً للصهيونية، كما كانت قضية فلسطين هى قضيته الأولى وشغله الشاغل، بل كانت هى محور أفكاره وأبحاثه طوال سنوات عديدة. وقد صرح بأن الكارثة التى تعرضت لها فلسطين على يد الصهيونية الإسرائيلية هى سابقة ليس لها مثيل قط فى تاريخ العالم الحديث، ولا العالم الإسلامى ولا العالم الثالث، وكان يرى أن الخطر الصهيونى لا يستهدف الأرض المقدسة فى فلسطين فحسب، وأن تهديدها لا يقتصر على العالم العربى وحده، وإنما يمتد إلى العالم الإسلامى أيضاً وضمناً. وهو الأمر الذى تسعى إليه إسرائيل وأسياءها فى وقتنا الحاضر. وكان يندد بهذا وبما يحاك لنا فى الخفاء والعلن، ويقول: إن الصهيونيات اليوم هى أكبر خطر وتحد يواجه العالم العربى، وأن تحرير فلسطين «هو» وحدة العالم العربى السياسية، وأن وحدة العالم العربى إنما «هى» فلسطين!

وكان يرى أيضاً أن مصر تمر بأدق مراحل تاريخها، بعدما غرسوا لها فى ظهرها «دولة إسرائيل»!

وهيهات أن نشرح فى هذا التقديم الموجز كل ما كتبه أو قلمه فى هذا الصدد. فالكتاب الذى بين أيدينا يضم عدداً من المقالات التى نشرها أخى جمال وتناول فيها بالبحث والتأصيل العلمى - كعادته - عدة موضوعات حيوية تمس القضية الفلسطينية من كافة أبعادها، والصهيونية وأتساع أطماعها، وقد أخترناها من بين مقالات عديدة أخرى كتبها فى الستينات، وهى الفترة الحاسمة والفاصلة فى تاريخ العالم العربى.

ونترك للقارئ الكريم أن يتأمل ما جاء بها، وأن يتمعن فيما ورد بها من أفكاره وآراء لاتبلى، التى هى جديرة بأن يقف عليها كل مصرى بل وكل عربى غيور على قضية أمته، فما أشبه اليوم بالأمس والليلة بالبارحة مع ما طرأ من تغييرات جذرية دولية، ومستجدات مرحلية تتسم بالتفاؤل ....

والله الموفق لما فيه الخير والصواب.

دكتور
عبدالحميد صالح حمدان
دكتوراه التخصص فى التاريخ الإسلامى
ودكتوراه الدولة فى الآداب
والعلوم الإنسانية (باريس)

الفصل الاول

قضية فلسطين

والموقف العربى

المرحلة التى يجتازها النضال العربى الان مرحلة انتقال حاسمة، وذلك على أكثر من مستوى وفى أكثر من صعيد. فهى فى المجال الاقليمى مرحلة أنتقال من مهادنة الرجعية الى مواجهتها ومجابهتها، ومن العمل العربى الموحد الى العمل العربى الثورى، وربما من مؤتمرات القمة الى تجمعات القاعدة. وعلى مستوى القضية الفلسطينية، هى من قبل مرحلة انتقال من حرب التحويل الى الحرب الوقائية. وأما على النطاق العالمى انها مرحلة انتقال من التهديد بالتدخل الاستعمارى المباشر الى الاعتماد على قواعد العدوان الاستعمارية المغروسة فى قلب قلب الوطن العربى.

مفترق طرق أو منعطف تاريخى فاصل هى اذن. وكأى مفترق طرق، فأنها تفتح على أكثر من احتمال وتفضى الى اكثر من

اتجاه، وهى بهذا وفى الدرجة الاولى فترة اختيار، واختيار جذرى، سيرسم خطوط العمل السياسى العربى وربما مصبره لاماد طويلة فى المستقبل. ووضوح الرؤية، على اساس من التفكير الثورى الجديد، هو بلاشك مفتاح الاختيار. وإذا كان الكثيرون قد تنبأوا لسنة ١٩٦٥ بالخطورة والاهمية، فان ٦٦ـ ١٩٦٧ فى الارجح، ستكون سنة فيصلا بالغة الخطورة كما لم تكن سنة منذ ١٩٥٦.

وفى مثل هذا المناخ، يصبح من الضرورى أن نعيد النظر فى الموقف برمته لنرصد اتجاهات الماضى ونسجل حصاد الحاضر قبل أن نستشرف آفاق المستقبل، وبذلك يمكن أن نرتاد احتمالات الغد ونستكشف امكانيات العمل الثورى، فلابد يعنى من عملية «جرد» سياسية عامة وتقديم كشف حساب عن أستراتيچية الموقف العريضة. وكل أولئك لابد أن يبدأ كما لو من «صفحة بيضاء». متحررة من الأفكار القبلية والمسبقة حتى تقابل التحديات الملقاه حرة طليقة من كل قيد أو رواسب. وكل أولئك لابد أن يتسم بالصراحة المطلقة مهما كانت قاسية، فلم يكن

الوطن العربى أحوج فى يوم ما إلى الصراحة والوضوح منه اليوم أولا كانت أمانة الكلمة والقلم ألزم للمفكر السياسى الوطنى منها فى هده المرحلة.

من هذا المنطلق، نود فى هذه الدراسة أن نعيد تركيب الموقف السياسى فى العالم العربى كما تبدّى فى السنوات الأخرية، سواء ذلك فى مده وجزره الداخلى، أم فى علاقاته مع القوى المعادية فى الخارج، أو فى توازناته أزاء القضية الفلسطينية. والحقيقة أن هذه القضية الأخيرة هى دائماً ،وفى التحليل الأخير، محور السياسة العربية المعاصرة ومركز الصراعات العربية الداخلية والخارجية ونكاد نضعها قاعدة فى أى مشكلة عربية رئيسية أو جانبية، مباشرة أو غير مباشرة، متطورة أو مستترة! أن «فتش عن فلسطين»... ألم تكن مأساة فلسطين هى التحدى الأكبر الذى ثوّر الحياة العربية تثويرا ورج كيانها وقلَب خريطتها السياسية إلى ما هى عليه اليوم؟

وعلى هذا الأساس، فنقسم دراستنا إلى ثلاثة أقسام، أولها

تحليل للموقف العربى من قضية فلسطين، ثم إستعراض لقوى الغرب فى علاقاتها بهذه القضية، وأخيراً تحديد للصراع العربى– الإسرائيلى فى أبعاده المباشرة. وقد لا نقف دائماً أو طويلاً عن التفاصيل والجزيئات، فأنما نريد أن نرى الغاية فى مجموعها ككل دون أن نتوه فى آحاد الأشجار.

وبهذا الأقتراب البانورامى لكليّات الموقف وأساسياته، يمكن أن نرى الحقائق فى أبعادها وأحجامها وعلاقاتها الطبيعية. ومن ثم نكون أقدر على التنبؤ أو الإسقاط المستقبلى، الذى هو غاية كل تفكير تطبيقى ينشد خطة عمل وأسلوب حركة.

وسنكتفى فى هذا المقال بالقسم الأول الخاص بالموقف العربى، آملين أن نعود إلى أستكمال الدراسة فى مقال تال.

سياسية القمة

من مصر، وعلى يد قيادة التقدمية العربية، خرجت الدعوة الى أول مؤتمر للقمة العربية، ومعها بدأت مرحلة جديدة فى

العلاقات العربية وفى النضال القومى من أجل فلسطين. فقبلها كان الصراع داخل الوطن الكبير بين التقدمية والرجعية قد وصل الى نقطة حرجة كادت تهديد القضية المصيرية وتعصف بها فى وقت بدأ فيه العدو الاسرائيلى سرقة مياه الادرن استعداداً للتوسع الداخلى فى الارض المغتصبة. وكان واضحا فى هذا ان التقدمية العربية، شعوراً منها بمسئوليتها التاريخية وانكاراً لذاتها – وقد غلبت الصالح القومى على الصالح الوطنى ـ فإن الخطر المشترك، عاجلا وماثلا، هو وحده الذى وضع حدا للصراع الداخلى المزمن.

غير أن تلك المرحلة ـ مرحلة سياسة القمة ـ منذ بدأت ومهما استمرت او قُدر لها ان تستمر، لم تكن لتزيد عن مرحلة موقوته فى النهاية ومؤقتة بطبيعتها، وبالتعريف فهى كما حُدد لها كانت بمثابة «تعايش» لغرض محدد بعينه بين التقدمية والراجعية، ونوع من «وحدة العمل لأجل معلوم» أى أنها تكتيك ظرفى أساساً وليست أستراتيچية سياسية دائمة، ولا تغير لهذا من

المواقف والواقع والأيديولوجية النضالية الأساسية لكل من الجانبين.

ومما لا شك فيه أن هذه السياسة قد أدت - موضوعياً - بعضا من وظائفها حيث أثمرت الكيان الفلسطيني ومعه جيش التحرير الفلسطيني، والقيادة العربية الموحدة، وحركت مشروع التحويل العربي لروافد الاردن، فضلا عن أنها خففت بقدر أو آخر ولفترة أو أخرى حدة الصراع بين الدول العربية.

ومما لا خلاف عليه كذلك أن التقدمية العربية قد أخذت هذه السياسة مأخذ الجد والاخلاص، وهى فى الواقع التى قامت بالعبء الاكبر فى العمل المشترك. ولكن ليس كذلك الرجعية. فالرجعية التى كانت تترنح وتميد وتشعر بحتمية المصير وبداية النهاية، وجدت فى دعوة القمة العربية فرصة ذهبية لتسترد انفاسها المبهورة وتؤجل حتمية التاريخ. والواقع أن المهادنة - ومهادنة هى بالتأكيد - من أجل العمل لفلسطين خفّفت او جمدت الضغوط التقدمية التحررية الداخلية الملحة على الرجعية

فى عقر دارها وأعطتها بذلك «سلفة» جديدة من الحياة ومدت فى عمرها عما قد كان يمكن لها تاريخياً.

فكيف نظرت الرجعية الى هذه المرحلة؟ «كهدنة مسلحة» نظرت اليها، وبغدر مضمر وخيانة مبيّتة ذلك، ويزيد من التحديد نقول انها استغلت «التكتيك» المرحلى لتغلب «الاستراتيجية» القاعدية راسا على عقب، وذلك بضرب التقدمية ذاتها فى الظهر وارغامها على الدفاع عن كيانها نفسه. فمنذ بدأت سياسة القمة وهى تتعرض بإستمرار لسلسلة مطردة متزايدة من الأنحرافات المنظمة المنسقة، ترجمت عملياً إلى سلسلة من الإبتعادات عن هدف القمة حتى لتوشك اليوم أن تنقضه بل أن نتقض عليه.

الخيانة البورقيبية

ولن نستعرض هنا كل هذه الإنحرافات والابتعادات باسترسال، يكفى منها أولاها وأخراها فهما بلا ريب أفدحها وأشدها نكراً. بالأولى نقصد الإنحرافة البورقيبية التى وصلت

بالخيانة البورقيبية إلى حد الكفر القومى والهرطقة السياسية حين دعت علنا وبلا خجل إلى الاعتراف السياسى بإسرائيل وإلى الصلح والتعايش السلمى والتبادل الدبلوماسى والاقتصادى معها.

ومهما بالغنا فلا يمكن أن نصور بشاعة الجريمة المارقة التى جاءت ضربة قاسية للإيمان والأمل العربى وأساءت معنوياً وأدبياً على الأقل إلى القضية المقدسة، وأحدثت ثغرة فى وحدة العمل العربى، وأحرجت بدرجة أو بأخرى نضاله العالمى.

وليس أقل مظاهر هذه الإساءة أن أصبحت «الوساطة» بين العرب وإسرائيل نغمة صفيقة يضرب عليها متطوعاً وغير مدعو كل من يدعى صداقة العرب وهو ألد الخصام أبتداء من أديناور – من بين كل الدنيا! فى ألمانيا الغربية إلى عصبة الشيوخ الصهيونية فى الولايات المتحدة.. وإذا كان عامل الزمن قد بدد أغلب أثار هذه الإلحاده النكراء. فإنها تظل سابقة أثمة وأساءة بالغة وجسيمة لم يعرف النضال العربى لها مثيلاً فى أحلك مراحله فى ١٩٤٨ ومنذ خيانة الملك عبد الله.

وإذا كان الوطن العربى قد هب جميعاً فدمغ صاحبها بالخيانة العظمى والعمالة الإستعمارية وحكم عليه بالعزلة السياسية ونبذه إلى الأبد بإعتباره جذام العرب وإن كانت إسرائيل هى سرطانهم، فقد كنا نحسب أن أى رأس مختلة ترتفع لتنادى علنا وعلى مستوى القيادة بالخيانة والأستسلام بدعوى الواقعية والسلام أن تبقى على أكتافها أربعة وعشرين ساعة. وحقاً لقد إنتحر بورقيبة سياسياً وقومياً وأدبياً حين خرج بزندقته، ولكن -والجندى أو المواطن العادى حين يتصل مجرد إتصال بالعدو قد يتعرض للإعدام – يبقى أن يتقدم أحد لإزالة الجثة الكريهة العفنة، وعند شعب تونس وحده الإجابة. فمن أسف إن شبحها لا يزال يطارد القضية والعروبة، حيث ألقى «يهوذا العرب» بنفسه فى أحضان الغرب كلية، طلباً للحماية من إنتقام الشعب العربى فى تونس، فأعلن بلا مواربة أنه «يقع فى الوادى الأقتصادى لأوربا الغربية» وحول تونس بطريقة ملتوية ولكنها مفضوحة إلى قاعدة حربية بحرية أمريكية.

ومنذ بدأ بورقيبة إنحرافته والإصرار الوقح عليها والألحاح

المتبجح فيها هو خبزه اليومى، والعداء المطلق والكراهية السافرة للقومية العربية هى عنده «الأمر اليومى».

الحلف الإسلامى

ومن دعوة «لا أستسلام» فى المغرب ننتقل إلى آخر إنحرافات الرجعية فى المشرق ونعنى بها دعوة «الإسلام»، ومعها ننتقل من يهوذا العرب إلى يهوذا العرب والاسلام معاً. ومن عجب أن يكون الإسلام دعوة ضد القومية العربية والقضية الفلسطينية، ولكن أعجب منها أنها لا تختلف فى نتائجها وأهدافها عن دعوة الأستسلام البورقيبية. وإذا كنا بالأمس القريب، فى مرحلة وسطى من مراحل خيانات الرجعية ننتقل من «المناقصة» فى المغرب إلى «المزايدة» فى المشرق، فإنها المناقصة اليوم التى - وحدها - تسود تحركات الرجعية مشرقاً ومغرباً على السواء. أنه التخاذل والإنهزامية والقعود الذى يتناغم صداه اليوم فى أروقه الرجعية شرقاً وغرباً، بعد أن كان نشاز التهور والإندفاع

والمزايدة يمثل لحناً مضاداً، نكاد نقول كونترابنطيا لنغمة المناقصة والأستسلام. والإشارة هنا بطبيعة الحال هى الى الحلف الإسلامى المزعوم الذى يروج له بصورة محمومة التجار المتجولون من دحاجلة الرجعية الحاكمة العربية وغير الرجعية.

وليس هذا الحلف الإسلامى بجديد تماماً، فقد سبقت الدعوة لمثله، و بإسمه، فى أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات ولكنه مات فى مهده. كذلك عادت نغمته تتردد مع مشروع أيزنهاور بعد حرب السويس، كما التقطه الحلف المركزى فى أخريات أيامه. ولكنه اليوم يعود كهدف أستراتيچى فى ذاته وكبديل أو إستمرار لسلسلة الأحلاف التى حاول الأستعمار الغربى طوال العقدين الأخيرين أن يفرضها - دون جدوى - على منطقة الشرق الأوسط والعالم العربى.

ولكن الجديد فيه الآن أن أغلب دعاته هم من قلب العالم العربى وإن كان مهندسوه ومحركوه الحقيقيون هم قوى الأستعمار الغربى ممثلة فى الولايات المتحدة وبريطانيا.

وتتصدر الرجعية السعودية هذه الدعوة، بينما تؤلف الرجعية الإيرانية جناحه الأيمن والبورقيبية جناحه الأيسر، كما لا تخفى الرجعية الأردنية.. أشتراكها فيه. وفيما عدا ذلك فقد رفضت الدعوة فى كل العالم العربى والإسلامى.

إلام يدعو الحلف الإسلامى المزعوم؟ الشعار المعلن هو محاربة «الشيوعية والألحاد». ولو أخذ هذا الهاف على معناه الحقيق، أى محاربة، لكتلة الشرقية، لكان سخرية فاضحة مثلما هو حماقة غثة لأن الأقزام القميئة من أعضائة أعجز من أن تتصدى لمثله أو لأهون منه بل لأهون من الهوان. وإذا كانت الأحلاف الكبرى «الأم» كالأطلنطى تتفسخ وتتفكك، وإذا كانت الأستراتيجية النووية قد نسخت كل قيمة إحتوائية تقليدية لها، فليس لهذا الحلف بهذا المعنى إذن موضع أى موضع. ولهذا فإن «الحرب المقدسة» التى يدعو إليها هذا الحلف الملكى غير المقدس ليست إلا قناعاً مستعاراً يخفى به هدفه الحقيقى.

ولهذا فإن شعار الإسلام مجرد ستار وحجة ملفقة، وتسخير

للدين من أجل الأغراض السياسية الرجعية. والحلف بذلك، ليس دينياً بل سياسى ليس إسلامياً إلا فى الأسم، أما فى الواقع فهو حلف ضد - إسلامى، حلف الإستعمار والرجعية ضد التقدمية العربية.

أنه حركة التفاف حول التقدمية العربية ومحاولة لتطويقها وأستراتجيته العليا وخطته الفائدة هى نقل التأكيد والثقل من على أطار القومية العربية المتبلورة على إطار أوسع فضفاض مكذوب هو الإطار الدينى الإسلامى، وذلك بهدف تذويب القومية العربية وتمييعها كيماوياً أو تفتيتها وتمزيقها ميكانيكياً فى النهاية. ومن هنا فقط رحب به وهلل له كل أعداء القومية العربية إبتداء من الطائفية المحلية إلى إسرائيل الصهيونية.

وعند هذا الحد ينبغى أن نضيف أنه إذا كان إدعاء الحلف بمجابهة الشيوعية ساقطاً تماماً من أساسه ولا يمكن أن يكون هدفاً حقيقاً، فليست أسرائيل كذلك له بهدف، وقد يبدو منطقياً ان حلفاً إسلامياً يقوم - بل قد لا يقوم إلا - لمجانهة عدو الإسلام

الأكبر إسرائيل، الدولة الدينية العنصرية العدوانية التى أغتصبت ودنست قدس الأقداس فى العالم الإسلامى. وبالفعل، فإن دعاة هذا الحلف التنكرى ما برحوا يروّجون له على أساس أنه درع وحماية ضد إسرائيل.

ولكن هذا النفاق الآثم أبعد شيء عن الحقيقة والواقع، لا لأن إسرائيل أسعد الناس به وأشدهم أحتفالاً (ولو قد كان لديها أدنى شك فى أنه موجه ضدها لأ قامت الدنيا وما أقعدتها صراخاً وإستعداء على تجمع الإسلام «العالمى» فى حرب «دينية» ضدها هى الصغيرة «المسالمة» !) ، ولا لأن الأستعمار الغربى يجمع وينسق بينها وبين أصحاب الحلف، ولا لأنه فى حساباته لموازين القوى والتسليح فى المنطقة يضعهم معها فى كفة ويضع التقدمية العربيةفى الكفة الأخرى، ولا لأن أصحاب الحلف أما عميل وحليف لإسرائيل (الشاه) وإما خائن داعية للصلح معها (بورقيبة) وأما مدّعٍ بالعداء لإسرائيل ولكنه فى الواقع الملموس يتعايش معها تعايشاً سلمياً صامتاً «السعودية» ، لا لهذا أو ذاك

فقط كان هذا النفاق أبعد شىء عن الحقيقة، وإنما لذلك جميعاً وربما لغيره مما قد تكشف عنه الأيام.

بل هل أغفلنا أم نسينا الدعاية الصاعقة والفاجرة التى طلعت بها الرجعية العربية أخيراً زاعمة بها أن خطر الشيوعية على العالم العربى أكبر من خطر الصهيونية، وأن الأستعمار الغربى ليس مسئولاً عما أصاب الأمة العربية من كوارث فى تاريخها الحديث، وأن الولايات المتحدة – من بين كل الدول! – لم تتسبب فى أى إساءة إلى العرب أو عداء لهم (كذا) ؟

نكاد لهذا كله نقول، دون تجن على الحقيقة بل إذا كنا نستقرئ الحقيقة وإذا كنا على أستعداد لأن نسمى الأشياء بمسمياتها الحقيقية نكاد نقول إن إسرائيل عضو مؤسس غير منظور، عضو سلبى صامت، عضو طبيعى فى هذا الحلف، لا بوجودها الفيزيقى ومشاركتها المادية، ولكن بموافقتها الصامتة وتقبلها الخبيث. وبهذا يكون الحلف فى الحقيقة وتحت الجلد حلفاً غير مقدس بين الثالوث الدنس التقليدى فى المنطقة وهو

الأستعمار والصهيونية والرجعية، وتكون الرجعية العربية قد وضعت نفسها بلا مواربة ولا حياء فى نفس معسكر الصهيونية والإستعمار. وبهذا يتكشف الحلف ولا هدف له إلا محاربة القومية العربية والتقدمية الثورية الأشتراكية العربية، ولا أثر له على أحسن تقدير إلا أن يصرف النظر عن العدوان الإسرائيلى الجاثم إلى خطر شيوعى وهى مكذوب، ولا أثر له فى التقدير الواقعى العملى إلا أن يجمّد قضية تحرير وأسترداد فلسطين وإلا أن يقذف بها فى دوامة الحرب الباردة وإلا أن يذيبها ويلقى بها إلى الضياع والإحباط.

الرجعية حليفة حلفاء إسرائيل

ولسنا بحاجة هنا إلى أن نقف عند دوافع عداء وأحقاد الإستعمار الغربى والصهيونية فهى بديهية. ولكن السؤال هو: لماذا وصلت الرجعية العربية إلى حد الخيانة القومية السافرة والتخاذل فى قضية المصير الفلسطينية والإنتقال إلى معسكر

الإعداء الطبيعيين والتاريخيين للعرب؟ يمكن القول أن التناقض بين الثورية التقديمة والرجعية المحلية قد وصل إلى إستقطاب ثنائى كامل، وأصبح الصراع صراع موت أو حياة بالنسبة إلى الأخيرة. فالرجعية العربية، متخلفة متحجرة متعفنة، أسرية أوتوقراطية إقطاعية، مستبدة مستغلة منفصمة تماماً عن شعوبها ترى حتمية نهايتها على الأفق، وترى رقعتها على الوطن العربى تنكمش بإنتظام وتتراجع إلى معاقل التخلف فى الصحراء وتتحول إلى جزر منعزلة يطوقها المد الثورى ويوشك أن يخنقها. ولم تكن ثورة اليمن إلا حلقة فى هذه السلسلة.

فالسعودية مثلاً، وهى النموذج المثالى بل الابتذالى للرجعية العربية المتنحية والتى كانت دائماً الأشد عداء للتقدمية العربية، وجدت أن المد الثورى، وقد وصل إلى اليمن، قد بدأ يقرع أبوابها بل ويهددها فى عقر دارها، فحاولت وتحاول يائسة ومستميتة أن تتصدى له بالقوة الغاشمة والتدخل العدوانى. فبعد جولة فاشلة إعتمدت فيها على الخيانة المحلية والمرتزقة العالمية والأستعمار البريطانى، عادت فألقت بنفسها علانية فى «حماية» الأستعمار

الأمريكى، وبدأت تستورد السلاح من الغرب إستعداداً لجولة ثانية مع التقدمية العربية على تخوم اليمن، وراحت تستعدى الإستعمار الغربى ضد قيادتها الطبيعية والطليعية فى مصر، بل ولم تتورع أخيراً أن تكشف عن أنها تعد القومية العربية وليس إسرائيل هى عدوها الأكبر، وأن عبد الناصر وليس الصهيونية هو الذى يهدد كيانها.. وأنه لمن المنطقى جداً مع هذا أو بعد هذا أن قد وصلت الرجعية فى صراعها المحموم إلى حد إستعداء الأستعمار ومحالفته على التقدمية، بل وإلى حد التآمر لأغتيال القيادات والزعامات التقدمية نفسها.

قصارى القول إذن أن الرجعية العربية تجد القومية العربية، بمضمونها التحررى الوحدوى الإشتراكى، الأيديولوچية التى تهدد تجزئتها الإنفصالية وكياناتها الرجعية، وتجد أنه ما دامت القومية العربية «حانوتاً مغلقاً» كما قيل فلا أمل لها فى البقاء ومصيرها مقدور محترم.. ولا تجد مخرجاً من ذلك جميعاً إلا البحث عن دائرة أخرى غير الدائرة العربية وعن فلك أيديولوچى فضفاض مهما كان متهالكاً أو غير واقعى، فالمهم أن

تخلق محوراً دخيلاً يقطع فى القومية العربية ويتعامد عليها حتى تنحطم به أو تذوب حوله. فكان الحلف الإسلامى المزعوم : هجمة فك حصار عن دائرة مغلقة بأمل تطويقها بدائرة أوسع محيطاً. وجوهر الخطة أنه وقد فشل الأستعمار فى تطويق القومية العربية من الخارج، فلتفجرها له الرجعية المحلية من الداخل.

والرجعية فى هذا السبيل تلقى بنفسها فى أحضان الأعداء الطبيعيين للقومية العربية التقدمية إستعماراً وصهيونية على السواء، ولو أنها تقف فى معسكر الأول سافرة وفى معسكر الثانية مستترة متخفية.

إلى هذا المدى إذن وصلت الرجعية العربية: أشترت بقاءها هى ببقاء إسرائيل وضياع فلسطين، وكانت لكى تعيش، على أستعداد لأن تصل إلى حد التحالف مع الشيطان، فإنزلقت بالتدريج من التحالف مع الأستعمار حليف الصهيونية وحامى إسرائيل إلى مهادنة الصهيونية ذاتها والتعايش مع إسرائيل....

ولقد قال فيصل السعودية أثناء زيارته الأخيره إلى الولايات

المتحدة أنه لا يكنّ شيئاً ضد اليهود (تمييزاً لهم عن الصهيونيين) «لأننا أبناء عمومة فى الدم» ! ورغم أن علاقة الدم المزعومة فى هذا ليست صحيحة علمياً وإنما هى خطأ ساذج شائع، فالذى يعنينا هنا أن نصححه هو أنه واليهود بالفعل أبناء عمومة، وإنما فى التبعية والولاء والخضوع للولايات المتحدة والألتحام بالأستعمار الكبير والأنصهار فيه.

إن حامى وحارس الرجعية وإسرائيل واحد هو الأستعمار بعامة والأستعمار الأمريكى خاصة، ومورد السلاح إليهما واحد هو هو أيضاً، والعدو الأكبر لكل منهما واحد كذلك هو التقدمية العربية وعلى رأسها الجمهورية العربية المتحدة. إن هناك حقاً علاقة نسب سياسى بين الرجعية العربية واليهودية الصهيونية، وعروق الأستعمار ودماه هى التى تمثل خط النسب المشترك، وكل منهما لقيط تبناه الأستعمار أو هو الإبن غير الشرعى للأمبريالية، ونكاد نقول يعيش اليوم على ممارسة الدعارة السياسية فى المجتمع الدولى.

فلسطين والوحدة

ونصل من هذا كله منطقياً إلى عدة حقائق بالغة الخطورة ولابد من الأعتراف بها على مرارتها. لا شك أبتداءً أن قضيتى العرب الكبريين وهما فلسطين والوحدة، كتجسيم وتحقيق لتحرير الأرض السليبة والقومية العربية، لا شك أنهما مثالياً وعلى المستوى النظرى لا يتعارضان ولا يتسايقان بالضرورة.. بل هما يتكاملان ويتواكبان بحيث يمكن أن تسير كل منهما جنباً لجنب ويداً فى يد. فليس بينهما بالضرورة أو لويات أو أسبقيات، ولو أن سبْق الوحدة أشد فائدة بصورة مباشرة لتحرير فلسطين وذلك بالقياس إلى تحرير فلسطين، الذى يمكن لتحقيقه، بالمقابل، أن يفجر شلال الوحدة عارماً محطماً.

ذلك هى الوضع مثالياً وكما ينبغى أن يكون. غير أن الشىء الذى لا يبدو أننا نريد أن نفهمه وندركه بعمق حتى الآن، والذى يفسّر كل الموقف الداخلى الحافل بالمتناقضات والعداوات فى المعسكر العربى، هو أن القضيتين العلويتين قد كتب عليهما

عملياً ،وفى الواقع، أن يتناسباً تناسباً عكسياً كما كانا قطبين متنافرين. والأسف كل الأسف أن واقع الحال العربى هو أن كل عمل جدى من أجل الوحدة يبعدنا عن تحرير فلسطين، بينما أن كل عمل جدى من أجل تحرير فلسطين يبعدنا عن الوحدة.

والذى يفسر هذا الإنتهاء الخطير هو وحده التناقض الجذرى بين التقدمية والرجعية فى العالم العربى. فالرجعية كما رأينا توقن اليوم أن نهايتها محتومة طالما أن هناك قوى تقدمية مثالية حولها أو بينها، ولولا الخوف من أن تستغل إسرائيل الصراع الداخلى بين العرب– بين التقدمية والرجعية– لاكتسح الدفع الثورى. التقدمى تلك القلاع الرجعية المتبقية. وبمعنى آخر فإن العقبة الآن فى سبيل تصفية الرجعية هى وجود إسرائيل. وبتحديد أكثر، أن هناك بلا شك– وبكل أسى وأسف – من العرب من له مصلحة محققة وأن كانت مبطنة غير منظورة فى أستمرار إسرائيل: إن من الرجعية العربية عناصر وقوى تجد مصلحتها البقائية البعيدة المدى والخبيئة معاً رهناً بإستمرار وجود إسرائيل. وبالمقابل، فإن وجود الرجعية العربية بدورها

عقبة فى سبيل تصفية إسرائيل، لا لأنها تتهادن وتكاد تتحالف معها صمتاً فحسب، وإنما لأنها قد لا تتورع إذا ما تقدمت القوى العربية التقدمية للقاء إسرائيل عن أن تضربها فى الظهر.

ولنضع هذه النقطة فى صيغة أخرى وصولاً إلى مزيد من الوضوح الفكرى. ليكن تساؤلنا على النحو الآتى:ـ

إذا فرضنا جدلاً أن إسرائيل أزيلت اليوم فجأة من الوجود العربى، ما الذى يمكن أن يحدث بعد ذلك؟ أن لم يكسح شلال الوحدة الهادر كالطوفان فى روعة وخلود ذلك اليوم التاريخى العارم، تلك الرجعيات الحاجزية ويختزلها، أفلن تتفرغ القوى التقدمية المنتصره، على أقل تقدير، لمجابهة الرجعية مجردة من درع الأخطار الخارجية المجابهة الأخيرة حيث لا حيث، وحيث لا مفر لها من قدرها المحتوم؟

هكذا – بلا ريب – تفكر الرجعية العربية الآن، ومنطقها بكل وضوح – إلا إذا عجزنا عن أن نقرأ أفكارها – هو أن التقدمية القومية إذا تغذت بإسرائيل الدخيلة فلسوف تتعشى بعدها

بالرجعية الداخلية، وهى من ثم ترى مصلحتها فى أن يتأخر «الغذاء» إلى أبعد وقت ممكن أو إلى ما لا نهاية. ومن هنا فإن الجدار الصفيق الذى يحول ما بين التقدمية وأياها إنما هى الصهيونية فى إسرائيل، بمثل ما إنها هى اليوم الجدار الصفيق الذى يقف ما بين التقدمية وإسرائيل. وهل ثمة غير هذا تفسيراً لما تعلنه الرجعية إعلاناً من أن الخطر العاجل الذى يتهددها ليس إسرائيل بقدر ما هو – تعبيرهم!– «الناصرية» ؟

ما معنى هذا؟ معناه جميعاً فى الحقيقة أننا لا نحارب إسرائيل وحدها، ولا الأستعمار خلفها، ولكن الرجعية العربية معهما على حد سواء. نحن نحارب فى جبهتين: ضد العدو وضد أنفسنا. وإذا كنا نردد بال تردد أن الرجعية المحلية عميلة للأستعمار، فينبغى ألا نتحرج الآن فى أن نتمم الحقيقة على مرارتها وهى أنها أيضاً عميلة– ولا يهم أن كان مباشرة أو غير مباشرة– للصهيونية وإسرائيل. ولهذا فإذا كنا قد ألفنا أن نقول، حتى أصبح القول كالمثل السائر، أن إسرائيل هى إسرائيل ومن هم وراء إسرائيل فنحسب أنه قد آن لنا أن نضيف– بالأسف قبل الصراحة– أن

إسرائيل هى إسرائيل ومن هم وراء وأمام إسرائيل: الإستعمار وراءها والرجعية أمامها، الأستعمار الخندق العميق، والرجعية السور الصفيق: إذا كانت إسرائيل نفسها هى قلب العدو، فإن الإستعمار هو جناحه الأيمن، بينما أن الرجعية هى جناحه الأيسر. وبالفعل فإن الرجعية تكاد تؤلف عازلاً جغرافياً بين التقدمية وإسرائيل. إن هناك تماثلا أساسيا رأسيا بين الرجعية والأستعمار في الدور المعادى لتحرير فلسطين.

بإختصار، أن الرجعية العربية هى سياسياً وفى حساب القضية الفلسطينية المعادل الموضوعى للأستعمار إن لم يكن للصهيونية ذاتها.

بل إلى أبعد من هذا نذهب، فنحن نرجح- ونترك الأسباب إلى ما بعد – إن أمكانيات وإحتمالات تدخل الأستعمار فى المعركة العسكرية مع إسرائيل هى رهن إلى حد بعيد بوجود الرجعية وخيانتها، وقد يحجم عن التفكير فى مثلها إذا وجد جبهة عربية تقدمية موحدة لا تمزقها خيانة الرجعية التقليدية بمجرد

وجودها. فمخطئ هو مسرف فى التفاؤل من ظن يوماً أن الرجعية ستضم قواها وقواتها إلى جانب التقدمية فى معركة فلسطين. وقد أعلن عبدالناصر نفسه أخيراً بكل جلاء أن معسكر الرجعية «لا يمكن أن يضرب إسرائيل، لأن إسرائيل هى ربيبة الأستعمار والرجعية فى البلاد العربية هى ربيبة الاستعمار، والأستعمار يجمع ويوحد بين أساليبهما.

ليس إذن ثمة ما يمنع من أن نفترض أن تقدم الرجعية الخائنة على طعن التقدمية العربية غدراً فى الظهر- على حدود اليمن مثلاً- إذا ما أشتبكت هذه مع العدو الإسرائيلى فى معركة التحرير والعودة، وساعتها ستجد الطليعة العربية التقدمية نفسها تحارب فى جبهات ثلاث فى الحقيقة: من خلف وقدام وخلاف : إسرائيل والتدخل الإستعمارى والطعنة الرجعية... ومرة أخرى يؤكد هذا عبد الناصر حيث يقول: «هذه الرجعية لا يمكن بأى حال من الأحوال أن نأمن لها فى معركة من أجل فلسطين بعد مالمسناه» هذا بينما أن سحق الرجعية وإزالتها قبل المعركة قمين كما قلنا بأن يفرض على الأستعمار أن يحجم عن

التدخل بمعنى أن مجرد كسح الرجعية الخائنة من المسرح العربى جدير بأن يحول المعركة من جبهات ثلاث بالنسبة إلينا إلى جبهة واحدة مكثفة مع العدو المباشر إسرائيل.

حصاد القمة

تلك إذن هى أبعاد الموقف العربى الداخلى إزاء الأخطار الخارجية من إستعمار وصهيونية. ومنها يمكن أن نخرج بنقطة أو نقاط تفرض نفسها على كل دراسة موضوعية، وكلها يدور حول عنصر الخيانة القومية عند الرجعية العربية. فمن ناحية لا شك أن الخيانة قديمة فى الصورة ولكنها كانت متخفية. ومن ناحية أخرى، فإنها تتطور تدريجياً نحو الإنتشار والأستشراء، فلم تعد قاصرة على المغرب بل إمتدت إلى المشرق. ان الخيانة تشجع على الخيانة، والتخاذل يتداعى بالطبع. وعدا هذا، فإنها جميعاً تحركت بدرجات متفاوتات من الإضمار والتعمية إلى العلانية، دليلاً على أستهتارها المتزايد وإكتمال ردتها، وكذلك على

التنسيق المتبادل ووحدة العمل بينها، وأكثر منه دليلاً على أنها لم تلق حقاً الردع العملي الساحق البتّار حتى الآن.

وهكذا نرى أنه بينما تتزايد الأخطار العدوانية على الوطن العربي بمحاولة حصول إسرائيل على القنبلة الذرية، نرى الخيانة الرجعية تتزايد بنفس الدرجة أو كما لو في تناسب طردي (بل إن من المحزن حقاً أن الرجعية الخائنة المتخاذلة بدأت تتخذ من هذا الخطر بالذات مبرراً لمزيد من التخاذل ونشر روح التسليم وحجة لمزيد من الخيانة!

وعلى هذه الأسس، يمكن أن نصنف الخيانة الرجعية إلى عدة أنماط. فثمة الخيانة السافرة في صفاقة وتبجح كالبورقيبية، ومنها الخيانة المتقطعة الإنتهازية التي تتسم بالمرونة والذبذبة وتلعب على كل الأطراف كالهاشمية، وهناك الخيانة المستترة الحاقدة التحتية التي لم تسفر عن وجهها نهائياً إلا في آخر مرحلة كالسعودية. ولم يكن غريباً بعد هذا أن جبهة الرجعية التي تتكتل الآن في شكل الحلف الإسلامي التنكري هي بعينها عناصر الخيانة القومية في الوطن العربي.

وإذا نحن نظرنا إلى خريطة القوى السياسية الراهنة فى العالم العربى من هذه الزاوية، فلن نخطئ عدة ملامح لها مغزاها البعيد. وقد تكون هذه الملامح فى مرحلتها الجنينية أو التكوينية بعد، ولكنها إذا توطّدت يمكن أن تكون خطراً حقيقاً عاصفاً؛ فدعاة الحلف الإسلامى لن يخفى -أولاً- أنهم فيما بينهم يرسمون مثلثاً رؤوسه فى إيران والسعودية وتونس ويمر أحد أضلاعه بالأردن وإسرائيل؟ وتحصر أضلاعة القوى التقدمية إبتداء من العراق حتى مصر. وثانياً، أن جبهة الحصار العربى المأمولة حول إسرائيل قبد أنثغرت فى الأردن بوضوح، وهى أخطر وأطول قطاعاتها. ثالثاً، وبدلاً من أن تكون الرجعية السعودية محصورة بين اليمن ومصر، أصبحت السعودية وإسرائيل مع الخيانة المماثلة بينهما فى الأردن تؤلف محوراً حول مصر. وذلك جميعاً هو حصاد المهادنة بين التقدمية والرجعية من أجل العمل الموحد ضد إسرائيل!

نظرة متشائمة أو نظرية مبالغ فيها؟ ما نظن كذلك، وما نرى فيه إلا الواقعية الصلدة. وما لم نعترف بأن هذه على مأسويتها

هى نواة الحقيقة الصلبة فى الموقف العربى، فستظل التقدمية العربية تعانى من الاعيب الرجعية وتحركاتها ومعاركها الجانبية والهامشية والخلفية فى مرحلة لا تحتمل مثلها ولا تملك ترف الأنغماس فيها. والواقع أننا ماعدنا بحاجة إلى أن نثير الأمر على هذا النحو كأنه وجهة نظر مطروحة، فالتناقض المطلق بين التقدمية والرجعية، بين تحرير فلسطين والوجود الرجعى، لم يعد قضية خلافية، بعد إذ كشفت الرجعية من ناحيتها أوراقها، فألمعت أنى أنها تعد التقدمية العربية خطراً يفوق خطر الصهيونية فى إسرائيل، وبعد أن تحققت التقدمية بدورها من ذلك تماماً وأعلنت بصفة نهائية أن «الرجعية تنظر إلى القوى التقدمية العربية على أنها خطر عليها أكبر من خطر إسرائيل» كما قال جمال عبد الناصر. ويؤكد الرئيس هذا مرة أخرى فى موضع آخر حيث يقول «وتخشى القوى الرجعية فى العالم العربى قوى التقدم العربى وقوى الثورة العربية، أكثر مما تخشى العدو المشترك وتخشى إسرائيل، ولذا فهى تكرس لمحاربة الثورة العربية والتقدم العربى جميع الجهد والمال اللذين كان بالإمكان تكريسها من أجل التحرير».

والحقيقة أن الوطن العربى إذا كان لا يتسع للعرب وإسرائيل - كما قال عبدالناصر أيضاً- فقد آن لنا أن ندرك كذلك أن الوطن العربى لم يعد يتسع للتقدمية والرجعية، ولن تزول إسرائيل- ربما- حتى تزول الرجعية.

وعلى أساس من هذا المنطق والمنطلق يمكن أن يتحدد موقفنا من مؤتمرات القمة. الذى لاخلاف عليه قطعاً أن الإجماع العربى، وحده الصف ووحده العمل، هدف يستحق كل صبر ومعاناة، فمن ناحية يضاعف الإجماع من قوة الموقف العربى عالمياً، دعائياً وسياسياً، ويضيف إلى قوة الضغط العربى فى مواجهة القوى المعادية. ومن ناحية أخرى تخفف المشاركة العربية الإجماعية من الأعباء المادية والعسكرية الملقاه على عاتق الطليعة العربية المناضلة.

غير أن الذى حدث بالفعل أن الرجعية العربية إهتبلت فرصة سياسة القمة ووحدة الصف لتتخذ منها شيئاً أشبه بالإعتراف بها ضمنياً وبإضفاء الشرعية عليها، ولتخرج منها موسمياً بشىء

أشبه «بصكوك الغفران» أو على الأقل بتجديد الثقة، حتى حولت سياسة القمة إلى حشد لمظاهرة على المستوى القيادى ومناسية لإرتجال جبهة أو واجهة شكلية من الوحدة المظهرية الصورية. وفى نفس الوقت خرجت لتماطل فى تنفيذ كل قرار عمل جدى، سواء ذلك فى إعداد الجيش الفلسطينى أو تحويل مياه الأردن إو حتى إستكمال القيادة الموحدة.. ألخ. وإلا فأين الرجعية العربية من القرار التاريخى الخاص بتحديد علاقات الدول العربية بالعالم الخارجى على أساس موقفها من قضية فلسطين؟ أين هى، وهى تترامى فى أحضان، وتطلب حماية أكبر أعداء فلسطين وأشد أنصار إسرائيل اصراراً وأستكباراً؟وسلاح البترول فى يد الرجعية العربية، أليس هو حتى اليوم سلاحاً فى يد أعداء قضية فلسطين والعروبة؟

لقد ثلمت الرجعية هذا السلاح الماضى البتار وفلت حدته حتى لم يكد يصبح عوناً للعرب بقدر ما صار عوناً عليهم بل هواناً لهم- نعم هواناً لهم، فإن هناك من الأدلة ما يوحى بأن بترول العرب يخرج من أرض العرب ليعود فينصب منه فى أرض العدو

الإسرائيلى ذاته وذلك على يد الشركات الإستعمارية الإحتكارية التى تستغله، فضلاً عن أن المساعدات المالية والمادية التى تنهال على العدو من الأستعمار ليست فى نهاية المطاف إلا جزءاً من الأرباح الخيالية التى يستنزفها الأخير من أحتكاراته البترولية فى المنطقة.

أكثر من هذا، أستغلت الرجعية روح القمة فى التآمر ضد التقدمية العربية وضربها فى الظلام. وبإختصار فإن سياسة القمة عند الرجعية هى تكتيك «تمسكن حتى يتمكن»، وحتى يتمكن مم؟ من ضرب التقدمية ذاتها. أنها فرصة لكسب الوقت، ومخدِّر للتقدمية العربية، ومناورة تخادع بها إلى أن تنقض، وطريق دائرى إلى الثورة المضادة. بمزيد من الأختصار، لقد إتخذت الرجعية سياسة القمة تكتيكاً تقلب به الإستراتيچية القائمة برمتها راساً على عقب.

ولا ادل على استثمار الرجعية لطقوس مؤتمرات القمة – مع استهتارها بجوهرها – من انها اليوم نفاقا وخداعا الاشد الحاحا

عليها وطلبا لها بعد أن أصبحت فى كفة الميزان. كذلك فان مما له مغزاه العميق ان الرجعية، التى دأبت بخبث وتربص قبل سياسة القمة على الهجوم على التقدمية وعلى رأسها مصر لدفعها الى حرب سابقة لأونها مع اسرائيل املا فيما ظنته توريطا لها واحراجا ان لم يكن انهزاما فاندثارا، تلك الرجعية حين حاصرتها مؤتمرات القمة وحصرتها فى دائرة العمل الجاد التحريرى من أجل فلسطين، لم تلبث ان كشفت عن نواياها العابثة الانتهازية بل الغادرة الخوانة، وتأكد انها لا تقدر عليه ولم تكن تريده أصلا ولن تريده ابدا. والسلاح الذى اتاحت سياسة القمة حصول الرجعية عليه سواء من ميزانيتها او بدعواها لن يوجه البتة إلى العدو الاسرائيلى ولكنه قد يوجه الى عدو إسرائيل ونعنى به التقدمية العربية.

ذلك ما كان من أمر الرجعية. أما التقدمية العربية من ناحيتها فانها لم تدخر جهدا أو وسعا فى المحافظة على وحدة الصف، وذهبت الى أبعد مدى فى تحمل تحركات ومناورات الرجعية، إدراكا منها بأن الاجماع العربى يستحق كل صبر ومعاناة. ولكن

حين يثبت – وقد ثبت – أن هذا غير ممكن عمليا، فان الوظيفة المنطقية لمؤتمرات القمة تصبح غربلة القوى العربية لكشف عناصر التردد والخيانة وتعريتها امام شعوبها وتجريدها من كل ادعاءاتها وتعلأتها حتى اذا ما وصل الامر الى حد الصدام المسلح معها تكون قد عزلت تماما عن شعوبها وجردت من امكانيات استثارة النعرات المحلية أو العصبيات الضيّقة التى كثيرا ما لعبت عليها بخبث وتضليل فى مثل هذه الظروف. أى ان الوظيفة الطبيعية الآن لمؤتمرات القمة هى تحديد الموقف مرة واحدة والى الابد وبغير ما تميّع أو ضبابية، وتحديد القوى المسئولة الجادة وحصر الانهزاميين اسقاطا لهم من الحساب القومى.

وهذا – سيلاحظ – يقترب بسياسة القمة فى الحقيقة وبالتدريج من خط العمل الثورى العربى، تمهيدا لتبنى هذه السياسة الراديكالية اذا ما ثبت عقم المحاولة حينذاك قد يصبح من الضرورى اعلان نبذ سياسة المهادنة والعودة الى الشعوب العربية واستنفار القوى الثورية فى كل مكان – بإختصار العودة الى «ملابس الميدان» كما قد نقول. ولعل أحدا لم يوضح هذه

الاحتمالات كما وضحها عبد الناصر منذ وقت مبكر فى بياناته النضالية العديدة، حيث ضغط على العمل الثورى العربى كالحل النهائى الحقيقى لتحرير فلسطين.

وليس من شك فى ان اسقاط الانهزاميين والقعوديين من حساب النضال العربى من أجل فلسطين يلقى عبئا افدح وأثقل على العناصر والقوى الطليعية. ماليا وعسكريا ماديا وسياسيا. فهو يضع تمويل كل ميزانية الحرب والاستعداد وما يرتبط بها مشاريع على كاهل قلة من الدول العربية المرهقة من قبل، كما أنه يضعف الى حد موقف العرب سياسيا فى المجال الدولى للقضية. ولكن - فى قضايا المصير - لاشك أن عدوا واضحا خير من صديق خائن.

فهل قد وصل موقف القمة الى هذا الحد؟ هل استنفد أغراضه ونضج للهدم؟ ليس يعنينا هاهنا أن نجيب على هذا السؤال بالنفى أو بالايجاب، ولو أن الموقف اوضح من أن يترك مجالا للشك فى اصدار الحكم. فلو أنك وضعت أرباح الرجعية فى كفة وخسائرها

فى كفة أو لو وضعت ارباح النضال العربى التقدمى فى كفة وخسائره فى كفة، فأنت واجد بسهولة ويقين صافى الارباح الختامى فى صف الرجعية الغادرة، وقد اعلن عبد الناصر فعلا أنه «نتيجة هذه المهادنة ٠٠ أستطاعت الرجعية أن تكسب بعض الارض» . واذا كانت سياسة القمة لم تحقق اهدافها الاساسية ووظيفتها المحورية، فان كل ما يمكن أن يقال فى صفها وفى جانب الاستمرار فيها أمور شكلية سطحية لاقيمة لها نضاليا. وقد لاتصل هذه الكلمات الى يد القارئ الا وتكون قيادة التقدمية العربية قد أعلنت موقف الرفض الثورى والنبذ الكامل لسياسة القمة.

ومع ذلك فان الشئ المؤكد الذى يمكن أن نقرره هنا والان هو أن مؤتمرات القمة أن أفلتت من الانهيار اليوم فلن تفلت غدا. انها محاولة للجمع بين المتناقضات الجذرية والا ضداد المصيرية، ولئن امكن التقريب بينها بعض الوقت، فهى جديرة بأن تنفجر من الداخل فى آخر الوقت. انها أقطاب متنافرة مغناطيسيا وأقدار متصادمة تاريخيا وهيهات أن تتعايش أو أن تتجاذب. ومن هنا

ستظل وحدة العمل الثورى – وحدها – هى صمام الامن والاحتياطى النهائى للعمل العربى المؤثر الفعال، ولا معزى عن التفكير فيها والالتجاء اليها إن عاجلا أو آجلا. فاذا كانت الرجعية الخائنة غير قادرة على القطيعة التامة مع الاستعمار، كما قال عبد الناصر، فان الطليعة التقدمية ينبغي ان تكون قادرة على القطيعة النهائية مع الرجعية العميلة.

لهذا لاينبغي أن نأسى اونجزع حين نسقط مرغمين في النهاية ـ الانهزاميين والخونة من الحساب القومى. يكفي نواة صلبة مندمجة من الدول المؤمنة القادرة الصامدة الفدائية لتكسب المعركة فى النهاية. وكل مجتمع اوجسم يضم الخامل والفعال، الخائن والابطال، وكثيرا ماتكون محاولة تجييش المجموع للانطلاق عملية ساذجة.. والامثلة كثيرة. الاشتراكية لم يبنها في البدء كل الشعب السوفيتي وانما قلة صلبة، اسرائيل نفسها ـ عدونا الاكبر ـ لم تنشئها كل اليهودية بل نواة شرسة من الصهيونية الدموية المسعورة. ومن قبل لم تُطرد الصليبية من الشام بجهد العرب أجمعين ، وانما بتحالف مصر والشام.

وحدة العمل الثورى

غير ان وحدة العمل الثوري لاتعنى فى الحقيقة نبذ الانهزاميين والرجعية الخائنة وحسب ، أوالمضي بدونها وكفى. فبغض النظر عن اخطار الغدر والخيانة والطعن فى الظلام، وما اكثر بوادرها وعلاماتها من قبل، فإن هذا المفهوم السلبى يمتص كثيرا من طاقة النضال العربى الكلية. وانما تعنى وحدة العمل الثوري، في الدرجة الاولى، تجمع القوى التقدمية والقوى الشعبية الضخمة العريضة فى كل البلاد العربية للسيطرة على مواقع القوة والقيادة كل فى قطره. وبمعنى آخر فهى تعنى ان تلتحم تلك التجمعات الصلبة التحاما نهائيا وقاطعا مع رجعياتها المحلية لسحقها وتصفيتها والعودة بأقطارها الى ركب التحررية التقدمية المناضلة.

ان الحديث السائد اليوم عن ضرورة تجمع القوى التقدمية فى الوطن العربى الكبير ليس يكفي - بصراحة - لمواجهة تحديات الموقف، وللاستجابة لمتطلبات وحدة العمل الثوري، فلابد من

تنشيط ودفع العمل الثوري فى كل قطر تتحكم فيه الرجعية وتنحرف به عن أهداف العروبة، تنشيطا ذاتيا ودفعا تلقائيا من الداخل. فليس من الانصاف، ولا هو من الممكن ، القاء العبء جميعا على الدول التقدمية العربية، وليس من الطبيعي ان تقف الشعوب العربية، حتى تحت قهر رجعياتها الحاكمة وكبتها، «متفرجة» على الصراع الظالم بين التقدمية والرجعية. وليس دون تصفية الرجعيات المحلية ـ ونقولها بغير مواربة ـ إلا الثورات الوطنية الكاسحة وهل ظهرت التقدمية في اى قطر عربي، ابتداء من مصر الى العراق الى اليمين.. الخ، الا بالثورة، والثورة المسلحة؟ وهل كانت الدوافع المباشرة للثورة الام في مصر غير قضية المصير : فلسطين؟

انها الان نفس القصة ونفس الدورة. انها الثورة الوطنية وحدها امل تحرير فلسطين. واذا كان الكاتب اليهودي ضد ـ الصهيوني ألفريد ليلينتال قد كتب عن « ثمن اسرائيل» ، فيمكننا نحن ان نتكلم عن «ثمن فلسطين» : انه ببساطة ووضوح ثلاث أو أربع ثورات وطنية متحررة هنا وهناك تدكّ معاقل الرجعية المتخلفة

وتصفى وجودها الخائن بذات طبيعة وجوده. ان كل ثورة وطنية تسحق الرجعية فى قطر عربى هى خطوة مؤكدة وقاطعة نحو تحرير فلسطين وتقربنا من يوم العودة. الثورة الوطنية على الرجعيات الخائنة الداعرة هى وحدها عامل الاختزال الفعال المؤثر ونقطة الانكسار الحاسمة في الموقف الراهن المتميع المطوط. ان مصير قضية المصير ليس هنا بارادة العدو الصهيوني ولا بارادة نصيره الاستعماري ولاعميله الرجعي، وانما هو بارادة التغيير الثوري وارادة الشعوب العربية رهين. والطريق إلى تل أبيب يمر اولا وبالضرورة بالرياض وعمان وأمثالهما: هنا معركة تحرير، وهنا ثورة تحرير. واذا كان شعارنا عند بداية مؤتمرات القمة هو «ياعرب العالم اتحدوا، فليس لديكم ماتفقدونه سوى إسرائيلكم» ، فقد اثبتت التجربة المريرة انه لابد دون ذلك وقبل ذلك من شعار جديد، ليكن «ياعرب ثوروا، فليس لديكم ماتفقدونه سوى رجعيتكم» فلتنطلق من عقالها اذن كل القوى الثورية التقدمية الحبيسة فى العالم العربى، حطمة ولكنها بناءة،

معدية ولكنها صحية، لتعطي الرجعية العميلة الخوّانة ضربتها القاضية ولتدفنها قبل ان تتقدم لتدفن العدو النهائي اسرائيل.

وهنا يبدو دور الشعوب والجيوش وخاصة الجيوش العربية. فهذه الاخيرة الى حد ما وفى معنى ما، وربما دون ان تدرك اوتقصد، حاجز يعوق تحرير فلسطين وعائق في سبيل العودة. انها بحمايتها للنظم الرجعية الخائنة المتخاذلة هى التى تمد فى عمر الصهيونية فى الوطن السليب وتمنح اسرائيل بعض الحياة، بدلا من ان تنطلق أبية كريمة ثائرة لتكسر أسر الرجعية لها أولا، ولتكسر اسوار العدو الصهيوني بعدها ثانيا. وليس يشك احد البتة فى وطنية وبطولة الجيوش العربية - كل الجيوش - وفى تفانيها المطلق وفدائيتها النبيلة من اجل القضية القومية الاسمي والاولى، ولكن قليلا من التوعية والترشيد والتبصير بحقائق الموقف وبحقيقه دورها المفروض عليها قسرا، هو اليوم من الزم واجبات الكفاح العربى المشترك.

ان ولاء جيوشنا العربية الباسلة واخلاصها لوطنيتها

ولقوميتها العليا فوق كل شك وليس بحال موضع سؤال، وانما المقصود ان تضع وعيها فى خدمة ولائها الاعلى وان توظف بصيرتها فى قضية شعوبها القائدة وتنقلها حيث ينبغى لها: فيلقا في جيش تحرير فلسطين لاحرسا حديديا للرجعية المحلية.

وبعد، فعلى مفترق طرق تاريخى بالغ الحيوية والدقة يقف العالم العربى اليوم. وأمام مفترق الطرق لامكان للحلول الوسطى وانصاف الحلول او للمساومات، وانما هو الاختيار الحاسم الصلب. واما عبر ـ مفترق الطرق ـ وبعده فليس الا طريق اللاعودة. وما اروع وأوجب ان تحسم الاختيار، لا القيادة التقدمية المناضلة الرائدة وان كانت تلك مسئوليتها في النهاية، وانما الشعوب العربية المقهورة تحت حكم الرجعيات والمكافحة من اجل مصير العروبة كلها. ما أروع وأوجب ان تحسم الاختيار بالغاء الاختيار واختزاله كلية، ولن يكون الغاء الاختيار واختزاله الا بالغاء الرجعية ذاتها واختزالها الى الابد. ولن يكون الغاء الرجعية واختزالها الا بالتصفية الثورية الحطمة الناجزة وبهذا، وبه وحده،

ترقى الشعوب العربية الى مستوى التحدّى ومتطلبات الموقف القومى الخطير. فهل انتم فاعلون؟ ليت هذا انجزتنا...الخ)

ومع ذلك فان من الواقعية أن نقول أن هذا لن يتأتى حتى تعطى القيادة التقدمية اشارة العمل والبدء، وبها نعنى القطيعة الكاملة الرافضة والغاضبة مع الرجعية المخادعة، القطيعة التى تضع نهاية لحالة الرهو والحيرة التى تزين على القواعد الشعبية المتلهفة للبذل والجهاد.

ان العمل الثوري التقدمي بوضوح حلقة متكاملة : القاعدة الشعبية لا يتاح لها ان تتحرك لضرب رجعياتها المحلية لانها فى انتظار توجيهات التقدمية القائدة، والتقدمية بدورها لاتملك ان تتوقع المبادرة والمبادأة وقد غلّت يدها بدرجة أو باخرى بمهادنتها للرجعية. لقد تحولت الحلقة المتصلة الى حلقة مفرغة، وكسرها وحده هو الذي يحرر العمل الثوري قمة وقاعدة، ولحسن الحظ هاهى القيادة التقدمية المخلصة الصلبة، بوحى ووعى نضالى مرهف وبالهام شعبى فياض، قد اعلنت بالامس القريب فقط،

على يد المناضل الاكبر عبد الناصر، نبذها الحاسم والمشرّف لمؤتمر القمة. فلم يبق الا ان تتحرك الشعوب العربية العريضة بدورها لتؤدى دورها وتحقق رسالتها وتملى ارادتها. فهل انتم - مرة اخرى - فاعلون؟ ليت هندا ... الخ!

الفصل الثانى

قضية فلسطين
ومحور الاستعمار والصهيونية

... ومحور هو بالتأكيد ، فما من احد يشك؛ فى ان اسرائيل ولدت في حجر الاستعمار ومن رحمه خرجت. هو الذي خلقها ثم غذّاها وهو الآن وحده الذى يحميها من الزوال. اسرائيل نبت شيطانى اصطناعى يعيش تحت صوبة زجاجية، بل مسخ يتنفس فى مناخ مفتعل تحت خيمة اوكسجين دائمة، ويحيا على عمليات نقل الدم التى لاتنقطع. والاستعمار الغربى هو هذا الطبيب الذى يقدم لها كل هذه الاسعافات ووسائل الانقاذ، مجانا احيانا وبثمن بخس اغلب الاحيان، ليقوم هذا التشوية الخلقى والشذوذ الباثولوجى.

ولو ان هذه الصوبة او تلك الخيمة انتزعت عن اسرائيل لماتت بالاختناق وفقر الدم، أي لانهارت من الداخل فى المناخ الطبيعى

للعالم العربى. ولكنه الاستعمار مرة اخرى الذى حول دون انتزاعها. انه ايضا حارسها وحاميها الشرس المتربص، ولولاه لانهارت ـ من الخارج هذه المرة ـ امام القوة العربية الشرعية المصممة. الاستعمار فى كلمة واحدة اذن مهندس اسرائيل فى المحل الاول، وطبيبها فى المحل الثانى، وهو جنديها فى المحل الاخيار. بغيره ما كانت تقوم، وان قامت فما كانت لتبقى.

ومحور هو بالتأكيد مرة ثانية، لان الصهيونية العالمية ليست فى حقيتها الا جزءا متخصصا من الاستعمار العالمي وعضوا من أعضائه العاملة. قد تكون الصهيونية من «طفيليات الاستعمار»، بل هى بالفعل أبرز طفيليات الاستعمار الكبرى على مدى القرن الاخير، ولكن علاقة منفعة متبادلة وعميقة سرعان ما نشأت بينهما، وبفضلها تحولت الصهيونية العالمية الى عميل خاص ووكيل دائم للاستعمار العالمى، ملتحم به اشد الالتحام مصيريا وبقائيا، وإن تمايز عنه وتباين.

ويجب ألا ننسى أن بدايات الصهيونية فى المرحلة الهرتزلية لم تتجرثم إلا فى التسعينات من القرن الماضى حين كان الاستعمار العالمى قد انطلق الى خروجه الكوكبى الشامل واندفع فى طريق التكالب المشهور على افريقيا. فقد كان الاستعمار هو الذى وضع فلسفة عصر بأكملة وخلق هستيريا الغزو والنهب وراء البحار. وفي هذا المناخ الملائم تعلقت الصهيونية بأذياله وحاولت أن تطوفو على سطح الموجة الى حلمها الفاوستى الموهوم. وفيما بعد، مع تعاظم تلك الموجة المدية، نجحت الصهيونية كطفيلية طحلبية لزجة وكعميلة انتهازية بلا مبدأ أوشرف، نجحت فى ان تركب الموجة مرتين، كل واحدة منهما تتفق مع أزمة حرب عالمية، وكلتاهما تعدان أخطر نقطتين فى تاريخ حياة الصهيونية. فى الاولى إنتزعت الوعد بالكيان، وفى الثانية إبتزت ذلك الكيان.

وفيما بين الموجتين تحول جهازها السام - الوكالة اليهودية - من دولة داخل الدولة الى دولة فوق الدولة، ثم اخيرا إلى دولة بدل

الدولة! وفى كل هذا لم تتم المأساة فصولا إلا بفضل إجتماع الحقد الصهيونى مع الغدر الاستعمارى فى حلف غير مقدس.

ولو أننا امعنا النظر قليلاً فى هذا التوقيت بداية ونهاية، لماشق علينا أن نرى أن بداية الاستعمار الصهيونى لم تأت فقط فى مؤخرة الاستعمار العالمى وإنما اساسا فى أخر مراحله وعصوره التقليدية، وان ترجمته الى كيان عضوى واقع فى النهاية ـ كما تتجسد فى الاستعمار الاسرائيلى ـ لم تأت فقط بعد ان كاد الاستعمار التقليدي الكبير أن يتحلل ويتساقط، وانما حين كان قد بدأ هذا يغيّر جلده ويتحول الى شكل جديد هو مانعرف اليوم بالاستعمار الجديد. وكانت اسرائيل بالدقة هى أول ماتلقف الاستعمار ليكون وسيلته فى تحوله الجديد. أي أن الصهيونية كانت فى البداية أداة وعضوا يدفع بهما الاستعمار أمامه، وفى النهاية كانت جهازا وواجهة يتخفى وراءهما.

بمعنى أخر، ومعنى حقيقى هو جدا، اسرائيل هى أخر

مراحل الاستعمار القديم، وأولى مراحل الاستعمار الجديد. إسرائيل بأصولها التاريخية وطبيعتها التكوينية تجمع أساسا بين رواجع الاستعمار القديم وطلائع الاستعمار الجديد. وتلك على وجه الدقة هى خلاصة حقيقتها فى الصميم. فاسرائيل فى جوهرها شركة سرية مساهمة بين الاستعمار العالمي والصهيونية العالمية، وكانت بهذا صورة مقنّعة من «الاستعمار الجماعى» الذى عرفه العالم فى الخمسينات فى فترة الانتقال من الاستعمار القديم الى الجديد، مع ملاحظة أن الاستعمار الجماعى هذا هو بالمقابل آخر اشكال الاستعمار القديم وأول اشكال الاستعمار الجديد. وتتكرر مثل هذه الطبيعة المزدوجة فى نوعية الاستعمار الاسرائيلى، فاسرائيل تجمع بكل وضوح بين النمطين الاساسيين فى الاستعمار وهما الاستعمار السكنى والاستعمار الاستغلالى، استعمار الابادة الذى عرفته البلاد الجديدة واستعمار الابتزاز والنهب الذى ساد فى البلاد القديمة الآهلة بالسكان.

ومحور هو بالتأكيد مرة ثالثة ـ محور الاستعمار والصهيونية ـ اذا نقلنا منظورنا من النشأة والتطور التاريخى إلى الوضع الجغرافي والاطار الاستراتيجى. فالحبل السرى الذى ربط فى البداية بين اسرائيل والغرب قد غلظ بعد ذلك وتحجر حتى جمد على محور حقيقى يبدأ من تل ابيب مارا ببون ولندن لينتهى فى واشنطون (أم نقول فى نيويورك وهى بكتلة الصهيونية المليونية فيها تعد تل ابيب الكبرى؟). فالمستعمرة الصهيونية فى إسرائيل التى بدأت «ككلب حراسة» للاستعمار على تخوم قناة السويس، وتحولت الى «قاطع طريق» لحسابه فى الشرق الاوسط، ثم الى «قنبلة موقوته» ـ كما عبّر البعض ـ في قلب العروبة، هى الآن قاعدة عسكرية كاملة أمامية للمعسكر الغربى لاتتجزأ عن نظامه الاستراتيجى العدوانى الذى أقامه حول العالم.

وهنا تتبدى مرة اخرى طبيعة اسرائيل المزدوجة كحلقة الوصل بين قطاعات هذا النطاق الكوكبى المترامى، وهى فى نفس

الوقت أولى وطليعة الحلف المركزى (بغداد سابقا) من جهة أخرى، فهى القاسم المشترك الذى يربط بين احلاف الغرب فى أوربا وأحلافه الغرب فى اوربا واحلافه فى آسيا. واذا كانت إسرائيل لاتنتمى إلى أى من حلف الاطلنطى او المركزى شكليا ورسميا، فهى لاتنفصل عنهما قط فى الواقع العملى: مع الاول، كم عرضت على بريطانيا فى أكثر من مناسبة الدخول فى الكومونولث أو نقل قاعدة السويس إليها؟ ومنذ التصريح الثلاثى ١٩٥٠، كما أعلنت دول الحلف حمايتها لاسرائيل؟ وفى ١٩٥٦، هل كان العدوان الثلاثي الإشتركة مع بعض قوى حلف الاطلنطى؟ ومع الثانى، نذكر العلاقات الديبلوماسية والتجارية بين إسرائيل وإيران وتركيا، وتغلغل نفوذ الصهيونية فى أيران خاصة... الخ.

إسرائيل إذن جزء من الغرب، هى أوربا فى آسيا، وشريحة منها نقلت وزرعت فى قلب الوطن العربى: سكانها الغاصبون

بعض وقطعة من أوروبا، وأرضها المغتصبة إمتداد لها فى حساب السياسة والاستراتيجية. وإن المرء ليحار أحيانا أين تنتهى حدود أوربا الغربية أوهذا الذى يسمونه «العالم الحر» أعند نهر الالب أم عند نهر الاردن؟! واذا كناقد ألفنا أن نسمع عبر التاريخ عن الجيوش المرتزقة، فاننا مع إسرائيل إزاء أول «دولة مرتزقة» فى التاريخ، فهى هنا برمتها تقوم وتعمل لحساب الغرب وفى حمايته الظالمة. بل لعلنا لانتجنى على الحقيقة ولا على الاخلاق إذا قلنا أنها بوجودها وكيانها هذا إنما تعيش بلا مواربة على ممارسة الدعارة السياسية فى سوق الاستعمار الغربى: إنها مع العرب دولة البغى، ومع الغرب الدولة البغى: وهى إذا كانت قد قامت أصلا بفضل إجتماع الحقد الصهيونى والغدر الاستعمارى، فانها لاتستمر ولاتبقى الآن إلا بمزيج من الحقد الصهيونى والظلم الاستعمارى.

العرب والغرب

حسبنا هذا الآن عن العلاقة الملتوية والمتواطئة بين اسرائيل وبين الغرب بصفة عامة. وقد آن لنا أن ننظر الى الجانب الآخر من الصورة، إلينا نحن والغرب، لنرى كيف يستقر الميزان أويختل، ولحساب من أوعلى حساب من. الموقف واضح وبسيط. ليس بالعرب بداهة أى رغبة فى توسيع رقعة معركتها على نفسها، ولاهى بالقطع تسعى إلى شراء أعداء، وعلى الاخص حين يكون الأعداء من مقياس الغرب ووزنه. ولكننا فى نفس الوقت لانملك أن نهرب من الواقع أو أن نفقد وضوح الرؤية. والواقع الذى لاجدال فيه أن العرب والغرب أقطاب متنافرة بل أقدار متصادمة مادام بينهم شئ يقال له إسرائيل.

ومن المحقق أن بيننا وبين الغرب أخاديد عميقة وتاريخا تعسا بما فيه الكفاية وواقعا لايقل تعسا ومشاكل جذرية تمتد من الأيديولوجية إلى الوسائل والطرق السياسية إلى عشرات من

القضايا العالمية والمحلية، ولكنها جميعا على خطورتها ليس مما لايمكن نظريا حله أوتخفيفه، على الاقل فى المدى البعيد- إلا مشكلة واحدة لاتقبل أنصاف الحلول أو الحلول الوسطى، فلسطين واسرائيل. ولهذا فإن الصدام بيننا وبين الغرب لن يزول فى النهاية إلا بأحدى ثلاث:إما بزوالنا نحن، وإما بزوال الغرب، وإما بزوال اسرائيل، وواضح بحكم كل منطق على الارض أوتحت الشمس أن لازوال لنا أو للغرب، ولكن الذى يمكن ويجب ان يزوال وسوف يزول إنما هو اسرائيل. وعلى أن يكون هذا، فيبدو أن كل محاولة للتقريب أوللتهدئة والمهادنة بيننا وبين الغرب مقضى عليها بالفشل مهما كان مصدرها وأيا كانت حوافزها.

ومن الحقيقة بعد هذا أن العرب لم تأل جهدا فى طَرْق كل وسائل الكياسة والحكمة السياسية أملا في ترشيد سياسة الغرب، فحاولت تبصيره بالحق والمنطق والعدل. ولعل محاولتنا

مع الرئيس الراحل كـينـدي لاتزال فى الاذهان، ولـكنهـا من أسف كانت ثمـرة اعطبت سريعا، وسـريـعا مافرض الغـرب علينا عداءه وتحديه. ولا يستطيع منصف أن يزعم أننا نحن الـذين سعينا اليه. فلم نكن نطلب إلا الســلام القـائم على العـدل، والـغـرب يريد أن يفرض علينا سـلام الأمر الواقـع، السلام القـائم على الظلم. ولهـذا اصبح السلام بيننا وبين الغـرب أمرا مستحيلا. ولقد عبّر الرئيس عبد الناصر عن ذلك تعبيرا حاسما حين قال ذات مرة لن نستطيع أن نرضى الغرب والاستعمار مهما فعلنا..

هل يمكن، فى هذا الضـوء، أن يكون فى المعـركة الدعائيـة امل فى كسب الغـرب أو على الاقـل فى تحـيـيده إزاء صـراعنا من اجل تحـرير فلسـطين؟ لاشك أنه ليس يكفى أن يكون الحق وحـده فى صفنا، بل والحقـيقـة ايضا، ولابد من عـرض قضـيتنا العـادلة على الرأي العـام العـالمى لكسـبـه أوبالاحـرى لنكسـب عـدم انحـيـازه الى العـدو. ومـعـروف كم شـوهت الدعاية الصـهـيـونيـة القـضـيـة

بسيطرتها الفاشية فى الغرب بوجه خاص. وإذا كان من المسلم به أننا مهما فعلنا فلن نستطيع أن نواجه هذه الدعاية الاخطبوطية بمثل قوتها لأسباب عديدة مفهومة، فإن هذا لايمنع أن نطلق كل جهودنا بين أجهزة الرأي العام عن طريق الإتحادات والنقابات العالمية، وبين المؤسسات والاحزاب الغربية خاصة بين اليسار الاوروبى والاشتراكيات الغربية.

وهنا تتركز مسئولية المثقفين والمفكرين العرب والمنظمات الشعبية أكثر - ربما - من الحكومات والأدوات الرسمية ، لأن المعركة الدعائية هى أساسا حوار مباشر بين الشعوب: الشعوب العربية والشعوب المعنية، وذلك خلال أجهزتها ومنظماتها الجماهيرية. ومن الضرورى فى هذا السبيل أن نبعث باستمرار بخلايا منتظمة كالحملات من كبار مثقفينا ممن توافروا على دراسة القضية المصيرية وسيطروا على كل دقائقها ودخائلها الفكرية إيجابية وسلبية على حد سواء، ولهم القدرة التامة على

مواجهة الجماهير الأجنبية بلسانها ومنطقها وعقليتها، ليثيروا على المنابر العالمية حوارا عميقا مع الضمير والعقل الغربي، وليضعوه فى الصورة الحقيقية للقضية وليضعوا القضية أمامهم فى أبعادها الصحيحة بعيدا عن تزييف وتشوية الصهيونية، وليدحضو آكاذيبها ويفضحوا ابتزازها وتزويرها للتاريخ. كذلك لابد من ان يتفرغ مختصون من خيرة مثقفينا لوضع مرجع علمى كامل للقضية فى جميع مراحلها وأصولها وجوانبها، لينتشر كمجلد موسوعى ضخم على أوسع نطاق باللغات الأوربية الهامة. كل هذا وغيره من اسلحة وضرورات المعركة الدعائية، وخلف الجميع لابد من معهد كامل للدراسات الفلسطينية.

ولكن المعركة الدعائية على خطورتها فى حاجة إلى بعض إستدراكات وتحفظات لاتقل خطورة. فمن الصراحة أن تقرر انها قد أصبحت أو كادت تصبح بمثابة «عقدة» ـ بالتحديد عقدة

نقص- لدينا جميعا. فنحن نتلهف ونتهافت عليها أحيانا كما لو كان فيها الحل الحقيقى لتحرير فلسطين، وكما لو أن الغرب هو الفيصل في المعركة، أو كما لو أن المثقفين والمفكرين الاحرار فيه هم الذين بيدهم أن يمنحونا «جواز مرور» إلى التحرير أو معركة العودة»

نحن بهذا نعطيهم إحساسا ووهما بأن مصيرنا متوقف على إلادتهم، وحقونا معلقة بكلمة منهم. وهذا خطأ سيكولوجى عظيم، وتكتيكى أعظم. ولقد ناشدنا ـ على سبيل المثال ـ الرأى العام الغربى عشرات السنين لتأييد استقلال مصر دون أدنى جدوى، ولم ننتزع الجلاء إلا بالقوة والدماء .

إن كسب معركة الدعاية أمر جدّ هام بكل تأكيد، ولكن قصاراه وهدفه ليس إلا عملية «غسيل مخ» للغرب وتكييف لمناخه الفكرى وتحييده وتصفية إنحيازه وإعداده لتقبل الامر الواقع الجديد الذى نسعى إلى فرضه وهو إزالة اسرائيل.

أما ما قام بالقوة، فبالقوة وحدها يزول ، وإسرائيل التى خلقت بحد السيف، بحد السيف وحده تزول، وليس بمجرد تفاهم أو تعاطف المثقفين والمتحررين هنا وهناك، مهما كان مطلبا عزيزا جديرا بذلك. وعلى الذين يتصورون أن تتحول معركة التحرير إلى حوار ومناظرة سياسية حملات ومساجلات دعائية، أن ينتظروا عشرات السنين فى البرد والمنفى. ومصير فلسطين سيحدده العرب لاالغرب، وعلى أرض فلسطين بالذات سيتحدد وليس فى العواصم الاجنبية.

وإذا كانت الصهيونية قد حققت نفسها ووجودها بوضع العالم أمام الأمر الواقع فى فلسطين، واذا كنا نحن نرفض هذا الأمر الواقع الظالم الباغى، فإن من واجبنا ان نحاربه بنفس السلاح، بمعنى ان نفرض التحرير عن طريق وضع العالم ازاء الامر الواقع الجديد. وهنا ينبغى أن نشير إلى ماينصح به أحيانا بعض من يعدّ نفسه من أصدقاء العرب، وهو ألانهتم كثيرا بتكرار التهديد

بتدمير إسرائيل وإلقائها فى البحر، على زعم ما لهذا من أثر عكسى على الرأي العام العالمى، يستغله العدو إلى أقصى حد ليقلب الحق باطلا وليمثل دور المضطهد ويستدر ويستجدى به مزيدا من العطف المخدوع والمساعدات الجاهلة. فأيا كان نصيب هذا الرأي من الصحة، وأيا كانت دوافعة الحقيقية، فأهم منه واخطر آن نحتفظ دائما فى أذهان الاخرين بحقنا لافى العودة فحسب، ولكن أيضا فى إستعمال الأسلوب الأمثل بل الوحيد فى ذلك السبيل بغير ماضباب اوأوهام.

يبقى فقط أن نحوّل دعايتنا من الدفاع إلى الهجوم. لاينبغى أن نستجدى التأييد والفهم والتعاطف. هذا تفعله اسرائيل: تضغط لتستجدى ولكننا يجب أن نضغط لنفرض. إسرائيل تضغط بالتهديد والتشهير وإستغلال عقدة الذنب المفتعلة لتتسول المال والسلاح. إما نحن فليس لنا أن نسأل الغرب الفهم على أساس إنساني متبرع، وإنما على أسا توجيه الإتهام إليه مباشرة بأنه

سبب المأساة والكارثة، وأن عقدة الذنب الحقيقية فى أي منطق سليم يجب أن يشعر بها تجاه العرب وفلسطين ، فإنه هو الذى اساء إليهم مرتين: مرة حين شرد اليهود فشردوا العرب، ومرة حين ساعد اليهود على تشريد العرب. وعلى الغرب الآن أن يكفر عن جريمته ضد العرب، أولا بان يقف على الحياد لا أكثر، وثانيا بأن يعيد توطين اليهود من إسرائيل فى دوله المختلفة.

وعند هذا الحد من المناقشة، يتعين علينا أن نتحول من حسابات الدعاية الفكرية بين الغرب إلى حسابات القوة مع الغرب وإحتمالات تدخله العسكرى فى معركة التحرير. ولقد تكلمنا حتى الآن عن «الغرب» كما لو كان وحدة مندمجة متلاحمة فى موقفه وسياسته. ولكن الحق أن هذا لم يعد دقيقا تماما، فقد خضع الغرب ـ لحسن الحظ ـ لضغوط داخلية عميقة أصابته بكثير من التفسخ والتخلخل.

ويمكننا باطمئنان أن نستبعد فرنسا «الجديدة» من حساباته

ضد العرب، بعد إذ تقاربت كثيرا من الدول العربية التقدمية وبدأت تأخذ ـ بوضوح فيما نأمل ـ موقفا غير منحاز من النزاع العربي ـ الاسرائيلي، يَجُبُّ ويشجب تلك العلاقة الخاصة الشريرة التى ربطت بين الجمهورية الرابعة وإسرائيل أيام العدوان الثلاثي. وهى اذا كانت لاتزال تورّد السلاح لإسرائيل، فليس ذلك بالمجّان، وهى على إستعداد لتوريد مثله للعرب. أقرب موقف لفرنسا له مغزاه حين أشيع أن إسرائيل تعتزم إجراء تجاربها على تفجير القنبلة الذرية فى جزر المحيط الهادى الفرنسية، فقد أسرعت فرنسا بقوة وغضب لتنفى هذا الدس من أساسه. فرنسا إذن ـ كما نرجو ـ خارج معسكر العدو الآن. ومن هنا لايعنينا إلا أن نقف أمام قوى ثلاث من الغرب هى ألمانيا الغربية وبريطانيا وأمريكا.

ألمانيا واسرائيل

نبدأ بالمانيا الغربية . من الحديث المعاد أن إسرائيل ـ بتكوينها الحالى ـ قطعة من صميم الغرب بشريا، إقتطعت من جسم الوطن العربى جغرافيا، أو أنها ببساطة مستعمرة أوربية السكان، أمريكية الصنع، مزروعة على أرض عربية. ولقد ألفنا أن نقول أن إسرائيل بدأت إبنا غير شرعى لبريطانيا، ثم أصبحت لقيطا لأمريكا، إلى أن صارت لفترة ما ربيبا لفرنسا. وهذا صحيح فى مجموعه، ولكنا لم نسائل أنفسنا بعد ذلك أوقبل ذلك : فمن هى الأم إذن؟ والإجابة الوحيدة أنها ألمانيا ـ ألمانيا النازية ـ دون سواها.

وتفسيرا لذلك نقول أن العنصرية الصهيونية كانت موجودة فى ألمانيا ـ وفى غير ألمانيا ـ قبل النادى، ولكن كاميبا هلامية أوبروتوبلازمية غير واضحة الملامح أو السمات، إلى أن اصطدمت بالعنصرية النازية فتحولت على نارها وتبلورت بفعل الاضطهاد النازى إلى جنين إتخذ ملامحه محددة واضحة بصورة حاسمة

فى شكل دولة يهودية فى فلسطين. فالاضطهاد النازى فى الدرجة الأولى هو الذى دفع بمئات الآلاف من اليهود إلى الهجرة لينقضوا كأرجال الجراد على فلسطيننا العربية. ومعنى ذلك أن النازية رغم أنها حاولت أن تئد هذه النطفة الصهيونية غير الشرعية فى مهدها، إلا أنها هى التى ولدتها فى النهاية. وبهذا ـ ولامفرّ لنا آسفين من أن نقرر هذا بوضوح ـ خرجت اسرائيل من رحم المانيا سفاحا.

ولعل هذه الحقيقة الأولية هى التى تفسر كل مظاهر العلاقات الشاذة المعقدة وغيرالعادية التى قامت بين ألمانيا وإسرائيل. فليس أغرب من هذه العلاقة التى تختلط فيها الصداقة التآمرية الحميمة بالكراهية والمقت العميق المتبادل! فألمانيا ظلت رسميا تنكر أمومتها لإبنتها غير الشرعية، ولكنها لم تمتنع قط من الناحية الفعلية عن مساعدتها على الحياة بكل طريقة سرية اوملتوية. وإسرائيل من جانبها تستنكر هذه الأمومة غير الشرعية وتتعالى

عليها، ولكنها لاتتورع عن أن تستغلها لتبتز المانيا وتشهّر بها وتذلها. وكأنما إتفق الطرفان على أن يستبدلا أمام العالم علاقة النسب غير الشرعية تلك بعلاقة منفعة ورشوة علنية، هى ماسموه ديبلوماسيا «بالعلاقة الخاصة» .

من هنا نصل إلى دور ألمانيا الحالى: فبدلا من الأمومة غير الشرعية إنزلقت إلى علاقة أحط وأدنى هى بالتعبير المعروف دور «المرضعة والخادمة العامة» لاسرائيل ولسنا نعرف تشخيصا أدق. هذا للعلاقة المرضية التعسة بين الاثنتين، ومانعرف غير هذا تفسيرا لهذه المتناقضة المثيرة التى تبدو فيها ألمانيا كعملاق يتصرف كقزم ـ كما عبر الألمان أنفسهم ـ وإسرائيل كمستأسد وهو فأر!

ومن المحقق بعد هذا أن كل المساعدات التى أغدقتها وتغدقها ألمانيا على إسرائيل لايمكن أن تكون شرعية أكثر من شرعية علاقة النسب بينهما. وإذا كانت اسرائيل تستغل قضية

الاضطهاد «كعاهة» تتّجر وتستجدى بها أوتبتز، فإن دعوى ألمانيا من أنها تعويض عما اصاب اليهود على ايدى النازية دعوى فجة ملفقة قيل فيها الشئ الكثير من وجهة النظر القانونية وغير القانونية. وهناك على الأقل نقطتان خطيرتان يمكن أن نلقى بهما فى وجه العدو المزودج.

فأولا إذا صح أن نحمّل الجيل الحالى من الألمان نتيجة أعمال الجيل السبق - أيا كان مدى صحة مسئولية ذلك الجيل - وإذا صحت مسئولية الألمان اليوم عن تعويض اليهود، لوجب إذن أن تقوم ألمانيا بتعويض مضاعف للعرب عما ألحقوه بهم من دمار وويلات ومأساة فى فلسطين، فإن ضياع فلسطين وتشريد أصحابها على يد الصهيونية، هو نتيجة مباشرة لأضطهاد اليهود وتشريدهم على يد المانيا النازية. وهذا فى نفس الوقت لايغير مثقال ذرة من حسابنا الخاص مع الصهيونية فى إسرائيل ومن حقنا الشرعى فى تصفيتها وإسترداد ارضنا السليبة. هذا أول .

أما الدفع الثاني فيرتبط بقضيةتبرئة اليهود من دم المسيح التى أثارتها الصهيونية بصورة مخزية لتستغلها سياسيا. فنحن نقول أنه ـ بصرف النظر عن إختلاف وجهات نظر الاديان فى هذه المسألة، وبصرف النظر كذلك عن شرعية إثارتها ـ إذا جاز للكنيسة تبرئة الجيل الحالى من اليهود، فلماذا ـ والمنطق واحد ـ لاتصدر أيضا وثيقة بتبرئة الجيل الحالى من الألمان من جرائم الجيل النازى السابق ضد اليهود؟ فى هذه الحال يسقط كل حق مزعوم للصهيونية فى أى تعويض المانى.

هاتان قضيتان متماثلتان منطقيا، ولكن ألمانيا نظرت اليهما بمنطق مزدوج، تكيل فى واحدة بضد الكيل الذى تكيل به فى الاخرى: بون تعوض اليهود عما ألحقته باليهود من ضرار، ولاتعوض العرب عما ألحقته بهم من أضرار أشد خطرا ونكالا، والكنيسة تسعى إلى أن تبرئ اليهود من دم المسيح، ولاتفكر فى أن تبرئ الألمان من دم اليهود! إننا قد لانهدف هنا حقا إلى

الحصـول على تعويضـات من ألمانيا أو تعنينـا تبرئة اليهـود، ولكنا نود أسـاسـا أن نفضح المنطق المعوج الجائز فى التعويضـات الألمانية لإسـرائيل، وأن نثبـت ان العـلاقـة الخـاصـة المزعـومـة بين ألمانيـا وإسرائيل إن هـى إلا علاقة منحرفة منحازة وفاسدة من أساسها.

أمـا العـرب مـن ناحيـتـهم فـقـد حـاولوا طويلاـ على أسـاس الصـداقـة التـقليـدية القـديمة بين الشـعبين ـ أن يرشـدوا سـيـاسـة ألمانيا الغربيـة، ولم يطلبوا أكثر من تحـييدهـا فى الصـراع. ولـكنها وقـد اخـذتهـا العـزة بالاثم، أو بـالأحـرى فـرضـت عليـهـا عـزة الاثم المذلة لأمريكا، أبت إلا أن تفرض علينا المعـركة، ولم يكن مـفر من قبول التحدى. ونحن نخطئ إذ نتصـور أن انحياز ألمانيا الغربية إلى اسـرائيل يتبدى في هـدية السلاح وحدها، وهـى التى فـجرت الازمة مـعـهـا. فـالواقع أن مـسـاعـدتهـا لاسـرائيل أخطر من هذا بـكـثـيـر وأسبق.

فالمساعدات الاقتصـادية التى بلغت أرقاما فلكية رهيبة ـ ٤٥٠٠

مليون مارك ألمانى مايقدر - كانت أداة إسرائيل الأولى فى المعركة الحضارية، معركة القوة الذاتية للبناء الداخلى بل البقاء ذاته وتدعيم اقتطاها الخرب النهار. وربما لولاها لأفلست إسرائيل داخليا. كذلك فإن المساعدات العسكرية أسبق من هدية السلاح السرية، ولكن هذه الأخيرة كانت أسوأ وأقذر ما فيها. فهذه الهدية المجانية هى هدية موت للعرب غلفت بغلالة كشيفة من الكذب الديبلوماسى العامد إلى النفاق السياسى الرخيص والغدر الدولى الفاضح. وإذا كان الضغط العربى قد نجح فى إيقاف بقية الهدية، فيجب الا ننسى أن الجزء الاكبر منها كان قد تم بالفعل.

والسؤال الان بعد أن فُرض علينا الصدام هو : ماذا خسرنا مع ألمانيا؟ لم نخسر - ونحن نفرق هنا تماما بين الشعب الالمانى والحكومة الألمانية - صديقا، بل منافقا خسرنا. فلقد كانت ألمانيا تلعب معنا لعبة مزودجة ذات وجهين وتمارس الخداع السياسى والنفاق الديبلوماسى، على أمل أن تمسك العصا من الوسط.

كانت تحاول ـ كما عبّر بعض الكتاب ـ تعدد الزوجات أو بالأحرى تعدد الأزواج! لقد خسرنا التضليل والتغرير والخداع، وكسبنا وضوح الرؤية، وهو سلاح أساسى فى إستراتيجية الصراع.

وليس صحيحا أننا بهذا قدمنا ألمانيا هدية على صحفة من ذهب إلى إسرائيل، أو أننا تركنا فراغا ديبوماسيا خطيرا فى بون تملؤه إسرائيل وحدها بلامنافس. بل قد يكون العكس هو الصحيح. فبغير الرد العنيف ماكانت ألمانيا لتفيق إلى الحقيقة وهى ترى سياستها العربية برمتها قد تحولت إلى حطام، وبغيره ماكانت لتأخذ موقف الحذر النسبى الذى أخذته أخيرا تجاه مطالب الصهيونية الإبتزازية لتجديد التعويضات. وبغيرة ماكان الرأى العام الالمانى ليهتز ويكشف ـ كما بدأ يفعل ـ عن ثورته المكبوتة على العبودية المهينة لإسرائيل والصهيونية العالمية. وقد بدأت بالفعل آثار هذا التململ والتمرد تنعكس، من بين عوامل

اخرى، على شعبية حكومة بون التى بدأت تهتز، وذلك لحسن الحظ فى وقت بدأت ترتج فيه «معجزتها» الاقتصادية المقولة والتى هللوا لها طويلا - لاجدال جزئيا بسبب النزيف الصهيونى الخطير.

وفضلا عن هذا كله فإن ذلك الرد إنذار ضمنى لمن هم وراء ألمانيا بتصميم التقدمية العربية على التحدى، فليست ألمانيا الغربية فى قضيتنا سوى الجزء البارز من جبل جليدى طاف، كتلته وجسمه الضخم الغاطس هو الولايات المتحدة، ليست ألمانيا التى يصفها البعض بالولاية رقم ٥١ من الولايات المتحدة إلا «قرون إستشعار» لها فى الصراع العربى - الإسرائيلي. ومهما قد تستمر ألمانيا فى المستقبل فى الخضوع للصهيونية والانحياز إلى إسرائيل، فليس من المتصور أن تصل مساعداتها إقتصادية أوعسكرية بعد الآن إلى مستواها السابق إطلاقا، ولن يكون دورها فى معركة التحرير أو موقفها منها أكثر من ثانوى على الأرجح.

دور بريطانيا

بالدور التاريخي وحده تحمل بريطانيا جريمة الأبوة غير الشرعية لإسرائيل، فهى التى فرضت للصهيونية مكانا بالقوة فى فلسطين ثم سلمتها لها بعملية غدر وخيانة مبيته ومخططة بكل وعى وإصرار وتواطؤ. وهى بهذا ستظل تحمل وصمة هذا العار التاريخي إلى الأبد، وستظل تحمل لعنة ونقمة وثأر العرب إلى أن تزول إسرائيل على الأقل. وفاذا اضفنا إلى كشف الحساب تاريخها الحالك كأكبر قوة استعمارية غاشمة وأطولها عمرا فى المشرق العربى، لكانت بسهولة وبساطة رأس الأفعى بين أعداء العرب وفلسطين.

غير أن تطورات العالم المعاصر، كاسحة عاصفة كما جاءت، حولت الرأس إلى ذنب بأسرع مما كان متصورا، وإن بقيت عدوا تاريخيا للعرب وحليفا طبيعيا لاسرائيل ربما بأكثر منها فى اي وقت مضى. فلقد ضاعت الامبراطورية التى كانت تُطَوِّق الكرة

الارضية وطُردت بريطانيا من معظم مواقعها فى الشرق العربى، هذا الذى كانت تعده بالزهد والخيلاء منطقة نفوذها التقليدية وقلعتها الامبريالية الاحتكارية بامتياز. بل انه على يد هذه المنطقة بالذات كانت هزيمتها التاريخية الفاصلة الذليلة فى السويس، فكان فيها أيضا مقبرة الامبراطورية كلها. ومن هنا فإن حقد بريطانيا على المنطقة العربية لايدانيه حقدها على أية منطقة اخرى سبق أن استعمرتها، ولايتضاعف هذا الحقد الا بمقدار عجزها عن الانتقام، وماهو بعجز عسكرى فحسب ولكنه اقتصادى كذلك.

من هنا ـ وليس من هناك ـ تحولت إستراتيجية بريطانيا فى المطنقة من المواجهة المباشرة إلى العمل التحتى، من المصادمة الأمامية الى التسلل من الباب الخلفى، باختصار من الغزو من الخارج الى الغزو من الداخل. وهذا تماما مفتاح سياستها الراهنة فى الجزيرة العربية التى تتلخص فى أنها وقد اجبرت على

التخلى عن أخر مواطئ اقدامها بفضل قصورها الذاتي المطرد وبفعل المقاومة الوطنية المتعاظمة، بدأت تسلم مواقعها للعملاء المحليين من الرجعية العربية الخائنة لتقوم بالنيابة عنها ولحسابها بالعملية الاستعمارية فى غيابها - استعمار غيابي، كما قد نقول أو إستعمار بالوكالة، وهو فى النهاية وعلى أية حال شكل محلى وحديث من اشكال الاستعمار الجديد.

ذلك نمط يتكرر فى كل بقايا الوجود البريطانى فى الجزيرة إبتداء من عدن حتى البحرين بلا إنقطاع أوتحوير. وهو يتفق فى هذا كله مع الخط العام للاستراتيجية البريطانية المنكمشة التى تسلم أغلب إلتزاماتها العسكرية والدفاعية حول العالم للاخيرن: للسادة الاقوى - الامريكيين - على النطاق العالمى الكبير، وللعملاء الاقزام التابعين - الرجعية - على النطاق المحلى الضيق... نسبة محفوظة.

والنسبة محفوظة أيضا حين نعتبر الخط الحركى جغرافيا فى

إنسحاب الإستعمار البريطانى من المنطقة. فسيلاحظ أولا أن هذا الاستعمار يدور عكس عقارب الساعة فى إنحساره من المنطقة العربية، فبعد أن سلم فلسطين غيلة وترك الأردن وضرب فى مصر وطرد من السودان، هاهو ذا يضطر أخيرا إلى الخروج من عدن والمحميات، واخذ يهاجر نحو الخليج العربى إلى مركز ثقل جديد. فالحركة تتبع السواحل، وتسير على طولها ضد عقارب الساعة.

وإذا كانت أخر أساليب الإستعمار البريطانى على النطاق العالمى هى أن يترك القارات بكتلها البشرية الوطنية ويتقهقر الى أعماق المحيطات بقواعده العسكرية فى جزرها النائية غير المأهولة، فمثل هذا على نطاق مصغر قد يكون الملجأ الأخير لبريطانيا فى الجزيرة العربية. فالادلة تشير إلى إحتمال تركها فى نهاية المطاف لأطراف وسواحل شبه الجزيرة نفسها لتتراجع إلى سلسلة الجزر التى تحفّ بها، إبتداء من سوقطرى إلى

مصرية وكوريا موريا إلى البحرين، حتى تتخندق فيها بقواعدها بعيدا عن ضغوط القومية والجماهير العربية.

أى مغزى تحمل هذه الاستراتيجية العامة لبريطانيا فى المنطقة العربية بالنسبة لمعركة فلسطين؟ نفس الخط والخطة: سياسة تسليم العملية والالتزامات الى الآخرين، من فوق ومن تحت. لقد كان العدوان الثلاثى آخر عمل إيجابى عسكرى تقوم به بريطانيا ضد العرب ومع عدوة العرب الصهيونية، كان آخر مرة تمارس فيها دور رأس الأفعى. أما الآن فليس لذنب الأفعى فيما نرى دور مباشر منتظر فى معركة الاسترداد والتحرير، وذلك بالطبع باستثناء تموينها بالسلاح. فليس من المحتمل فى حدود المنطق الواقعى أن تتدخل بريطانيا يوما ما فى المعركة الحربية لتحمى كيان اسرائيل من الزوال، حتى كذنب تابع أوبقوة رمزية مع آخرين، مهما كانت الضغوط والإغراءات ومهما كانت هى تواقة إلى الانتقام.

لماذا؟ من ناحية لأنها الآن أعجز ماديا وأدبيا، إقتصاديا وعسكريا، من ذلك وهى التى تختنق بالازمات الإقتصادية وتسحب قواتها من بقايا قواعدها إبتداء من سنغافورة إلى عدن إلى الراين. ومن ناحيةأخرى لأنها تدرك أن تدخلها سيصيبها هى بالدقة وعلى وجه بالتحديد بكارثة لايمكن أن يصاب بها الأخرون أو بمثلها قط، وهى ضياع البترول الذى لم يعد فقط كل ماتملك من مصالح حقيقية فى المنطقة وانما كل ماتملك من موارد بترولية فى العالم عليها تتوقف حياتها برمتها. أما الاخرون فمصالحهم البترولية فى المنطقة إستثمارات حيوية حقا ولكنهم لايعتمدون عليها كثيرا فى الانتاج.

لكن بريطانيا من الناحية الاخرى «تسلّم» مهمة التدخل العسكرى كما قلنا إلى الآخرين ممن هم فوقها ودونها على السواء، وهم هم نفس الذين تسلم اليهم إلتزاماتها العالمية والمحلية خارج نطاق المشكلة الفلسطينية. ولمن هم فوقها حديث مستقل،

أما من دونها فهى الرجعية العربية الخائنة. فهذه تحولها بريطانيا تحت ناظرينا وبوضوح تام إلى رصيد واحتياطى لإسرائيل فى معركة التحرير، وإلى قنبلة موقوتة فى المعسكر العربى لتفجره من الداخل. فإن بريطانيا التى عاشت عمرها فى المنطقة على سياسة الايقاع والمضاربة بين عناصر السكان والحكام، قد وصلت فى عدائها وحقدها على التقدمية العربية عدوة إسرائيل الأولى إلى حد دفن تلك العداوات القديمة والجمع بين كل هذه المتناقضات التاريخية، فأصبحت الهاشمية تتعاون مع المنافسة اللدودة سابقا السعودية، والوهّابية الحفرية المتزمته تتعانق مع الإثنا عشرية الإيرانية المترخصه، والاستعمار البريطاني المتكالب يُورّث الرجعيه العربية مستعمراتة!

ومناورات بريطانيا ومؤامراتهاحاليا فى الجنوب العربى والخليج من أجل ضم السعودية وابتلاعها لبعض مناطقه، والتواطؤ مع ايران لاغراق الخليج وأبتلاع بعض مناطقه الاخرى،

ووضعها لهيكل عسكرى دفاعى هجومى مسلح بالاشتراك معهما على حدود اليمن وفى دائرة الخليج، واغراق المنطقة جميعا بالاسلحة... الخ، كل هذه خطوات تنفيذية لتوريث دورها الاستعمارى للرجعيات العميلة المحلية، لكى تقوم لها بوظيفة الوسيط الاستعمارى المقنّع، ولكى تضرب التقدمية العربية من الخلف - فى اليمن مثلا - غدرا وفى الظلام فيما تحسبه الوقت المناسب وهو حين تشتبك مع اسرائيل فى المعركة الفاصلة. واذا كانت هذه جبهة بعيدة عن فلسطين جغرافيا، فإن النتيجة واحدة من وجهة المعركة العسكرية التى ستخوضها التقدمية.

نصل من هذا كله إلى النتيجة الطبيعية للأشياء، وهى أن حلف الاستعمار البريطانى والرجعية العربية هو اليوم البديل المباشر لحلف الاستعمار البريطانى وإسرائيل الصهيونية الذى لم يعد من الممكن إحياؤه. الرجعية العربية هى اذن سلاح بريطانيا الجديد فى صف اسرائيل وهى قوتها الضاربة التنكرية ضد قوى

التحرير العربية المتطلعة الى فلسطين. وهذا جميع مايعود بنا الى دور الرجعية المحلية فى قضية فلسطين ، ومايؤكد مرتين ضرورة سحقها: مرة لإبادتها هى ذاتها بعمالتها الخائنة، ومرة لإبادة فلول الاستعمار البريطاني الحقد الغادر المتخفية وراءها والمتقمصة لها.

موقف الولايات المتحدة

حقيقة أولية كالمعطيات لاتقبل جدلا: إذا كانت بريطانيا هى التى خلقت إسرائيل، فإن هذه ماكانت لتعيش لولا أن تبنتها الولايات المتحدة كلقيط سياسى منبوذ، فهى التى كفلتها ورعتها وأمدتها بأسباب الحياة وفرضت عليها حمايتها. وإن المساعدات الالمانية إقتصادية وعسكرية لتتضاءل على ضخامتها بجانب المساعدات الامريكية التى ضخمتها بسفهٍ فى كيانها المريض الهزيل «ان الولايات المتحدة هى، بلغة الانثرويولوجيين، «الاب

الاجتماعى» لإسرائيل إذا كانت بريطانيا هى «الاب البيولوجى» ـ وكل غير شرعى عند ذلك .

ومن هنا فإن جريمة الولايات المتحدة فى حق فلسطين والعرب لاتقل بشاعة وضراوة وظلما عن جريمة بريطانيا. ولكن من حق العرب ـ باعتبار ان دور بريطانيا الايجابى قد انتهى من الناحية العملية وبقى دور الولايات ـ من حق العرب أن يعدوها الآن العدوالأول والأكبر للامة العربية ولفلسطين، لقد عبرت رأس الأفعى الى الجانب الآخر من الاطلنطى، واذا كان لأحد أن يشعر بعقدة ذنب تجاه أحد، فإنه بمنطق الحق والعدل أمريكا وبريطانيا تجاه العرب وليس ألمانيا تجاه اليهود. ومن هنا نبدأ.

ان الولايات المتحدة هى القوة التى من أسف ورثت دور بريطانيا القرن التاسع عشر كطليعة الامبريالية فى القرن العشرين ـ ونقول من أسف لأنها كانت فى يوم ما أملا كبيرا للشعوب الصغيرة والمغلوبة على أمرها، ولكن ماأسرع ماتحول

هذا الأمل الى سراب ثم السراب إلى عقاب! فإن امريكا هى التى ورثت «إلتزمات» بريطانيا الاستعمارية حول العالم بما فيه الشرق الاوسط، وتحاول بدور بوليس إرهابى أن تفرض وصايتها على العالم، وصاية تكاد تتوهمها على أساس من حق إلهى مقدس لايعرف أحد له مصدرا أومبررا إلا أن يكون « الله أمريكيا(؟)» كما يسخر البعض احيانا. وهى فى سبيل هذا وباسم الحرية تفرض «السلام الامريكى» القائم على «الوضع الراهن» (أقرأ: السلام القائم على الظلم الاستعماري)، وبذلك تمثل أكبر قوة محافظة ومجمدة فى العالم واكبر حليف طبيعى للرجعية فى كل مكان. وفى الفترة الاخيرة إستغلت امريكا «توزان الرعب الذري» لتنطلق معربدة بلا وازع ولارادع فى مغامرات عسكرية عدوانية كأنها انكشارية العصر، وحيت لتكاد تتحول دوائرها الحاكة الى حلف بين رعاة بقر تكساس وعصابات جانجستر شيكاغو- البيت الابيض والبنتاجون على الترتيب.

وتخصيصا من هذا على الشرق الأوسط، نجد أن اميركا ـ إرثا عن بريطانيا ـ هى السيد الجديد للرجعية المحلية والخادم الجديد للصهيونية الاسرائيلية. فهى اليوم الحليف الاكبر للرجعيات فى المنطقة وهى حاميتها من القوى التقدمية، ولها فيها أكبر وأخطر القواعد العسكرية الآن بمثل ما أن لها أكبر الاستثمارات والاحتكارات فى مواردها وبترولها. وإذا كانت الرجعية السعودية قد وضعت نفسها رسميا تحت الحماية الامريكية أخيرا فليس ذلك بجديد تماما إلا من حيث الشكل، فهى فى حماية مستترة مستمرة منذ كان البترول. وباختصار فإن كل مخططات الأحلاف الرجعية فى المنطقة، وكل تآمرات الرجعية على القيادات التقدمية بما فيها مؤامرات الاغتيال رأسها المفكرة الأولى ومهندسها الأخير هو الولايات المتحدة.

أما عن اسرائيل فهى ولاية امريكية فى كل شئ إلا الاسم وإلا أنها عبر البحار ، وإن كنا لاندرى أتكون هى أو ألمانيا الغربية

الولاية رقم ٥١ أم ٥٢ ! فمنذ تبنتها الولايات المتحدة ساعة ولادتها أعطتها كل شئ إلا اسمها ، والمساعدات والتبرعات الامريكية التى لاتنقطع هى باعتراف العدو نفسه شريان حياته ودم اقتصاد إسرائيل. ويكفى أن نذكر أن مجموع المساعدات التى قدمتها الولايات المتحدة رسمية وغير رسمية بلغت حتى ١٩٥٩ فقط نحوا من ١٤٥٩ مليون دولار، وماتلى لاشك أعظم، وربما ماخفى كان أعظم وأعظم.

لكن الجانب السياسى لا يقل خطراً فأمريكا هى أشد حماة إسرائيل إصراراً وإستكباراً، لا تؤكد أنها «وجدت لتبقى» فحسب، بل ، وتعمل بكل الطرق مكشوفة وملتوية على تصفية القضية الفلسطينية وتذويب الشعب الفلسطينى بالتوطين أو بالتهجير، كما تعمل على تبرير وتغطية الاعتداءات الاسرائيلية على الحدود، وهى بانتظام العقبة الأولى فى الأمم المتحدة فى سبيل الإعتراف بحقوق اللاجئين فى العودة.

ومنذ التصريح الثلاثى الذى دفنه العرب فى السويس، لاتنفك الولايات المتحدة تعلن أنها ملتزمة بحماية وأمن اسرائيل عسكريا وبحدودها الاقليمية ووحدة أراضيها المغتصبة، وأنها ملتزمة بالمحافظة على الوضع الراهن كله فى الشرق الأوسط، وتتعمد من وقت إلى آخر التلميح إلى وجود معاهدات واتفاقيات سرية للأمن المتبادل بينها وبين إسرائيل.

بيد أن إنحياز الولايات المتحدة لا يقف عند هذا الحد، بل ركزت كل نفوذها السياسى والاقتصادى لتخريب المقاومة المعربية المتمثلة فى قيادتها التقدمية. فهى توجه كل سياستها لحصار مصدر الخطر الحقيقى على اسرائيل وهو الجمهورية العربية المتحدة. فهاهنا المصب المركزى لكل حروب أمريكا التى تشنها لحساب اسرائيل: الحرب النفسية والدعائية، الحرب الاقتصادية من حصار إلى تجويع... الخ. أمام إحتكار السلاح كانت خطتها توريده لإسرائيل ومنعه عن مصر. ومنذ مناورة السد العالى

وقبلها، ومنذ شحنات القمح والأغذية وبعدها. وهدف الولايات المتحدة هو ألا تسمح لاقتصاديات مصر أن تجد فسحة توجه للتسليح، حتى تحول القمح فى يدها إلى سلاح سياسى خبيث مشروع: إما أن تتسلح مصر لإسرائيل فتجوع، وأما أن تأكل وهى عزلاء أمام اسرائيل!

وقد وصل الأمر بالفعل، وهو ما لايكاد يصدق، إلى حد أن اشترطت الولايات المتحدة فى حين ما مقابل توريد القمح إلى مصر أن تتعهد بتحديد قواتها المسلحة وبعدم زيادة التسليح وبعدم السعى للحصول على السلاح الذرى! ولو أن جيشا محاربا انتصر على عدو استسلم له، لما جرؤ – ربما – على فرض مثل هذه الشروط! ومهما يكن من أمر، فأن معنى هذا كله أن الولايات المتحدة التى كانت تقدم الغذاء بالسحاحة كما يقولون لمصر، والسلاح لاسرائيل بلا حساب، كانت فى أحسن الاحوال كمن يسّمن الذبيحة للجزار، وفى أغلب الاحوال كمن يجوعها

ليفترسها الذئب... ولسنا بحاجة بطبيعة الحال إلى أن نضيف أن كل هذه السياسة فشلت وتحطمت على صخرة القوة الذاتية الضخمة لمصر وثورة التنمية فيها وبناء القاعدة الاقتصادية العريضة لها، تلك التى يمكنها أن تضمن لها السلاح والغذاء معاً دون عجز أو قصور. غير أنه يبقى فى النهاية مغزى الموقف الأمريكى المعادى ودلالته.

وهذا ما ينقلنا إلى موقفها من التسليح بما له من خطر مباشر فى معركة التحرير. محور السياسة الأمريكية ظل دائماً أن ترجح كفة إسرائيل تماماً على كفة العرب مجتمعة. وبغض النظر فان الاستحالة السفيهة فى هذا المنطق المعوج الأعوج، فان المغزى لا يحتاج إلى تعليق. هو - على الهامش - مغزى لا يشمل فقط ضمان عجز العرب وهزيمتهم وضمان تفوق وبقاء إسرائيل، وإنما يشمل ضمنا ضمان تعجيز العرب اقتصاديا وحضاريا لأنهم يدفعون ثمن تسليحهم من صميم انتاجهم

القومى، بينما أن اسرائيل تتلقى السلاح بالمجان أو بالبخس من خارج اقتصادها تقريباً.

غير أن أمريكا، إلى هذا العداء، أبت الا أن تضيف النفاق.

فقد حرصت لفترة طويلة على ألا تبدو كمورد للسلاح لاسرائيل، ودفعت بحلفائها وتوابعها إلى القيام بالمهمة القذرة نيابة عنها. فكانت بريطانيا إلى حين، ثم كانت ألمانيا الغربية حين كُشفت هدية السلاح السرية الغادرة، ولم تسفر الولايات المتحدة مضطرة عن وجهها مباشرة إلا بعد ذلك حيث بدأت تستكمل الصفقات التى لم تتم وكذلك الجديدة بحجة «الالتزام الأدبى» قبل اسرائيل! كذلك فإن نوعية تسليحها للعدو قد تطورت هى الأخرى فى مراحل ثلاث: من أسلحة خفيفة عادية، إلى أسلحة دفاعية ثقيلة صاروخية وضد صاروخية، إلى أسلحة هجومية تكتيكيةواستراتيجية. والخط البيانى الصاعد واضح، وهو أيضاً خط بيانى للعداء الأمريكى الكامن للعرب. ولكن هذا الخط يصل

إلى قمته ـ قمة دلالته ـ فى مرحلة رابعة وخفية هى المرحلة الذرية. فالثابت الذى لا جدال فيه الآن أن كل جهود ومحاولات إسرائيل للحصول على، أو للوصول إلى القنبلة الذرية لعبت فيها المساعدة الأمريكية المباشرة وغير المباشرة دور الأساس، سواء ذلك من حيث المادة الخام أو المفاعلات أو سر الصنعة. ومن لزوم ما لا يلزم أن نضيفأن إسرائيل ما كانت لتستطيع أن تقترب من السلاح النووى لولا هذه المساعدة الأمريكية.

وكل خطوات النشاط الإسرائيلى فى المجال النووى تمت بعلم الولايات المتحدة ومعرفتها وفى ظل زيارات علماء الذرة وخبرائها الأمريكيين التى لا تنقطع إلى اسرائيل سرا وعلنا. كل أولئك فى الوقت الذى تخرج بسلسلة من الدعايات الاخبارية المتناقضة، تؤكد فى واحدة منها أن اسرائيل على وشك الوصول، وتؤكد فى أخرى أن التفتيش لم يثبت أى نشاط ذرى لغير الأغراض السلمية، وتنفى فى ثالثة أن التفتيش قد تم أو سمح به... الخ. وإذا

كان لهذا التناقض المقصود من معنى، فهو أن التمويه والتضليل، بهدف التخويف أو التخدير، هو السلاح الثانى، السلاح النفسى، الذى تقدمه الولايات المتحدة هدية إلى إسرائيل بجانب السلاح.

ذلك أذن هو سجل الولايات المتحدة فى قضية فلسطين، والأحرى أن نقول قائمة الاتهام. وإذا كانت قضية فلسطين هى قضية العرب المصيرية الأولى، وإذا كان الشعب العربى يحدد أعداءه وأصدقاءه النوويين...

بمواقفهم منها، فالولايات المتحدة ـ بمحض إرادتها وأفعالها ـ وليس قط بأى تحيز مسبق أو مركب ثابت من جانبنا ـ هى الآن العدو الأكبر للأمة العربية. نقولها بلا مواربة أو حرج، ولا لوم علينا ولا تثريب، فذلك قد فرضته هى علينا ولم نسع إليه.

ونخلص من هذا منطقيا إلى أن احتمالات التدخل العسكرى فى معركة التحرير محصورة فى الولايات المتحدة وحدها.

والعدو الاسرائيلى القمئ من جانبه لا يفتأ يهدد من حين إلى آخر بأنه لا يقف وحيداً وأن له أصدقاء أقوياء... الخ.

هذا إلى أن القواعد الأمريكية ذرية وغير ذرية، تملأ المنطقة وتطوق العالم العربي، بينما أن وجود الأسطول السادس فى البحر المتوسط يمثل النسخة العصرية من ديبلوماسية الزوارق المسلحة القديمة. فإلى أى حد يحتمل أن تتدخل أمريكا، وفى أى شكل؟ هذا هو السؤال العربى الهام الذى لاشك يبحث عن اجابة محددة لوضع حسابات المستقبل فى كل أبعاده واحتمالاته.

والاجابة العلمية ـ مباشرة ـ هى أن الجزم مستحيل، نفياً أو إيجاباً، ولو أن هناك هامشاً ضيقا من الترجيح الحذر، الترجيح بالنفي. ولعل هذه ليست حيرة وقلق المفكر السياسى أو المخطط الاستراتيجى على الجانب العربى وحده، وانما حيرة أمريكا نفسها أيضاً. ذلك أن هناك بالنسبة لأمريكا شبه توازن حساس ودقيق بين مجموعة من الاغراءات فى كفة ومجموعة من المحاذير فى الكفة الأخرى.

فعلاقة الخلق والحياة والمصلحة المشتركة مع اسرائيل، تعدّ

اقوى، وجماعات الضغط الهستيرية الداخلية، تجذبها أو تدفعها كالمغناطيس فى اتجاه التدخل. ولا نَنْسَى أن السنة الماضية قد كشفت عن خطط عسكرية سرية موضوعية للتدخل البريطانى والأمريكى فى خمس دول عربية فى حالات ولاسباب ومصالح أقل وزنا بالتأكيد من حماية حياة اسرائيل. ولكن الاخطار المروعة التى يمكن أن تتعرض لها مصالح الولايات المتحدة فى العالم العربى كله رادع غلأب يلزمها التردد والنكوص.

وبين هذا الشد والجذب تلجأ أمريكا إلى سياسة التمويه، سياسة وسط العصا، ممثلة فى المحافظة على الوضع الراهن، وتعمد فى ذلك إلى تخويف العرب بوسائل شتى ليتقاعسوا ويقعدوا عن المعركة أطول وقت ممكن أو إلى الأبد. وتتراوح هذه الوسائل بين التهديد بالتدخل المباشر المحدود إلى التخويف بأخطار عالمية أضخم من أبعاد القضية كصدام نووى بين الكتل... الخ.

فإذا نحن حاولنا أن نقيّم هذه التحذيرات والتهديدات من واقع التجارب العدوانية الأمريكية المعاصرة، أمكن أن نميّز بين ثلاثة أنماط أو طرز من التدخل الأمريكى المسلح. طراز سان دومنجو، والطراز الكوبى، والطراز الڤيتنامى. والأول خارج عن المقارنة لانعدام التكافؤ كلية. أما الثانى فهو الذى تلوح به أمريكا (مثلما تفعل اسرائيل نفسها) عن احتمالات التصعيد الذى قد يصل إلى حد مواجهة بين الكتل النووية، أى تحويل المشكلة إلى جزء من الحرب الباردة مما قد ينتهى إلى مساومة وتراجع الطرفين على أساس الابقاء على الأمر الواقع والوضع الراهن. وتصورنا ـ مع التحفظ كله، ودون التطرق إلى أوضاع العالم الاستراتيچية والسياسية المعاصرة ـ أن هذا هو لبّ سياسة التخويف (التهويش) الأمريكية فى قضيتنا، وأنه تلويح لا محل له من الاحتمال. انما الاحتمال الحقيقى هو النمط الثالث، النمط الڤيتنامى، الذى يعنى فى الحقيقة أن تحول أمريكا المعركة

المنتظرة إلى «هدنة ثالثة»، وحوله وحده ينبغى أن تكون محاولات تنبؤاتنا الجادة بغير استخفاف أو مخاوف.

مع استحالة القطع، ثمة أدلة وشواهد متزايدة ترجح استبعاد مثل هذا التدخل، ويزداد هذا الترجيح مع الوقت فيما يبدو. والموازنة هنا تدور بين طرفين: القوة والمقاومة، بالقوة نقصد مدى الضغوط والاغراءات بالتدخل بداخل المعسكر الأمريكى ـ ولا شك أن الدرس الڤييتنامى هنا له أهميته البالغة. فهناك النزيف الاقتصادى وما أدى إليه من أزمات وتضخم، بدأت تفرض على أمريكا التفكير فى سياسة انكماشية فى مغامرات التدخل بل فى وجودها العسكرى نفسه فى الخارج، وهناك الصدمة النفسية الداخلية ازاء ردود الفعل المعادية فى الرأى العام العالمى كله. ورغم عناد وإصرار العزة بالاثم الذى ساد حتى الان فان الشعور الذى بدأ يتسلل أخيراً هو شعور المرارة العميقة ازاء ما يعدونه جحود (!) الحلفاء والعالم، مما أخذ ينعكس فى دعوات أو ميول إلى نوع

من «العزلة» الجديدة قد تكون جنينية بعد ولكنها معدية ومؤثرة فى المدى الطويل. وليس فى هذا المناخ ما يشجع على مزيد من المغامرات.

وفضلاً عن هذا، فان الحرب الڤييتنامية فى ذاتها قد يكون لها أثرها المباشر على امكانيات التدخل. فهى إذا طالت واستمرت فى توسعها وتصعيدها فليس من المتصور بسهولة أن تفتح أمريكا على نفسها جبهة أخرى، وهى إذا انتهت وشيكا فلن يكون ذلك إلا بخروجها خاسرة، وليس من المعقول ساعتها أن تقدم على ما قد يكون كارثة أخرى، لاسيما أن المصلحة المعرضة للخطر والرهان المهدد فى ڤييتنام قد يكونا أكبر وأهم من وجهة النظر الأمريكية منه فى اسرائيل.

وقد ظهرت فيما يلوح مؤشرات ترجح هذا المنطق. فقد جاء بالأخبار فى الشهور الأخيرة أن خطة الاستراتيچية الأمريكية الجديدة خضعت لتطور خطير، فهى تُبنى من الآن فصاعداً على

أساس أن تترك معالجة المشاكل المحلية بالقوة لاصحابها مكتفية هى بأن تقدم السلاح. وهذه علامة هامة إذا صحت، ولعلها صحيحة، فان فى خروج الولايات المتحدة فجأة عن مبدأ عدم توريد الأسلحة الهجومية لاسرائيل، الذى التزمت به حينا ما يدعمها. وقد كان آخر تصريح لاشكول هو أن كل القيود قد رُفعت أمام حصول اسرائيل على السلاح، أى أن الترسانة الأمريكية قد باتت مفتوحة لها بلا عقبات. كذلك فان تمكين الولايات المتحدة لاسرائيل من الحصول على قدرات نووية هو لا شك علامة أخرى فى نفس التجاه، لان من المفهوم أن هذه القدرات هى البديل النهائى والمثالى للتدخل.

تبقى المقاومة عاملاً من عوامل الاحجام عن التدخل. بهذا نعنى أنه بقدر صلابة أو ضعف الجبهة العربية، وبقدر فداحة الخسارة أو ضآلتها، بقدر ما يكون الاقدام أو الاحجام، فلابد فى المقام الأول أن ينمى العرب قوتهم العسكرية كماً وكيفاً على

أساس مواجهة عدو أكبر من اسرائيل. فذلك هو الرادع المباشر. وقد أشارت إلى هذا بالفعل قيادة التقدمية العربية فى أكثر من مناسبة بما لا يدع مجالا لتزييد أو إطناب.

ولكن الرادع غير المباشر، وهو المصالح الأمريكية فى الوطن العربى، رادع أخطر. فلو أيقن المتدخل تماماً أن كل مصالحة ستنسف حقيقة مرة واحدة وسيطرد هو إلى الأبد من المنطقة، فاغلب الظن أنه سيتردد كثيراً قبل أن يتدخل. وإذا كان البترول هو أهم هذه المصالح، وكانت الولايات المتحدة لا تعتمد عليه مباشرة فى حياتها اليومية بدرجة مؤثرة حالياً، فيجب أن يوضح لها تماما أن أى بادرة من تدخل تعنى ليس فقط قطع تدفق الانتاج كما كانت تجربة العدوان الثلاثى، ولكن التأميم المطلق المباشر، والتأميم بلا تعويض على الاطلاق، وهى مصادرة شرعية يقرها القانون الدولى لقاء العدوان الخارجى.

غير ان كلا الرادعين، الجبهة المسلحة والمصالح البترولية،

يستدعى الحد الاقصى من وحدة الشعوب العربية. فلا الاولى تسمح بالخيانات الانتهازية المبيتة، ولا الثانية ـ وأغلبها يقع للاسف فى الدول الرجعية ـ تقبل القسمة على اثنين، وهذا يعود بنا على الفور إلى ضرورة كسح الرجعيات والخيانات العربية من جبهتنا الداخلية قب المعركة، مما يعود بنا بدوره إلى مسئولية الشعوب العربية فى الثورة الفاصلة. وهذا يؤكد ما سبق أن إنتهينا إليه من أن ابادة الرجهية العربية هى الخطوة الأولى إلى تحرير فلسطين، وأنها خطوة لا تصفى الجناح الأيسر لاسرائيل فحسب ولكن جناحها الأيمن كذلك فى نفس الوقت. ولمثل هذا فليعمل العاملون..

الفصل الثالث

حول الدعوة إلى نظرة جديدة
إلى القضية الفلسطينية

كان للنكسة وقع رهيب على العقل العربى، مثلما كان لها على النفسية العربية، فقد رجّت الهزيمة بصدمتها وهولها أعماق الإنسان العربى حتى النخاع، وزلزلت كثيراً من قِيَمَة ومعتقداته وقناعاته. ويعد مرحلة طالت أو قتصرت من الدوار والذهول وفقدان الإتجاه كانت فى الحقيقة مرحلة أعادة أكتشاف للذات وأرتياد للوعى الباطن، أتى شعار «التغيير» ليصبح موتيف المرحلة ومفتاح المستقبل.

فلقد وضعت النكسة أصابع الإنسان العربى على كثير من أخطائه وعيوبه وسوالبه. وأدرك أنه لا بد أن ينفصل عنها وينفُض يده منها حتى ينتفض معاوداً مسيرته النضالية القومية العليا. والحديث عن التغيير فى الجبهة الداخلية يملأ دنيانا بما فيه الكفاية، بل لقد بدأ بالفعل أملا وعملا. لكن هناك أيضا دعوة

موازية الى التغيير على صعيد الجبهة الخارجية، وبالتحديد فى منهج معالجتنا لقضية المصير الاولى وهى قضية فلسطين.

فقد ظهرت منذ النكسة دعوة سارية إلى ضرورة البحث عن «نظرة حديدة» إلى القضية برمتها وإلى فكر جديد وبكر فى الموقف كله محلياً ودولياً. ولا شك أن تجربة النكسة كانت أختباراً قاسياً لكثير من أساليبنا وتقديراتنا، وربما أثبت أفلاس بعضها أو ركاكته.

ومع إستبعاد المواقف المغرضة أو العملية أو الإنتهازية المرفوضة أصلاً، فإن أساليبنا عرفت بحدة نظرتنا إلى القضية الفلسطينية بعد ومنذ النكسة. فقد ذهب البعض إلى القول بعقم إستراتيجيتنا العامة، والهجوم على كل شىء، والمطالبة بتغيير كل شىء بينما عجز البعض الآخر عن أن يرى بديلاً حقيقياً لخطوطنا الأساسية أو مجالاً لتغيير عام. ومن المؤكد أنه فى نقطة أو منطقة ما بين أقصى تيار الهدم وأقصى تيار الجمود، تقع الصيغة أو الوصفة «الفورميولا» السليمة للتغيير والتكّيف مع الموقف الجديد.

والواقع أن البحث عن منظور جديد فى قضيتنا يصطدم بكثير من الإتجاهات المتجاذبة أكاد أقول المتناقضات المتعارضة. وعلى سبيل المثال لا الحصر، وكمجرد رءوس موضوعات، يمكن أن نورد هذه السلسلة مع النقائض أو الأقطاب المتنافرة:

* هل تُكسب القضية بالسلاح فى المعركة، أم بالدعاية بين الرأى العام العالمى؟
* هى معركتنا مع إسرائيل وحدها، أم هى مع إسرائيل ومن هم وراء إسرائيل؟
* هى نتحدث مع العالم الخارجى بلغة القوة، أم بلغة السلام كما يفعل العدو تمويها وخداعاً؟
* هل نلجأ إلى التهويل فى قوة العدو وفى الخطر الكامن إلهابا للوعى العربى، أم تلجأ إلى التهوين حفاظاً على روحنا المعنوية؟
* هى ننظر إلى القضية على أنها أخطر شىء فى حياة الأمة

العربية، أم على أنها جانب جزئى فى حياتنا لا ينبغى أن نقصر حياتنا عليه كما ينصح البعض؟

* هل عامل الوقت، فى المدى القصير والمدى الطويل، معنا أم علينا؟
* هل المعركة معركة فلسطين والفلسطينيين، أم معركة الشعب العربى؟
* هل الوحدة طريق إلى فلسطين، أم أن فلسطين هى الطريق إلى الوحدة؟
* هل ننتظر حلا سريعاً ناجزاً، أم طويلاً وموجلاً للقضية؟
* هل مفتاح الحل فى الحرب النظامية، أم الشعبية؟
* فى حالة الحرب النظامية، أهى الحرب الخاطفة الصاعقة، أم هى الممطوطة المطولة؟
* هل أمريكا قاض يملك حل القضية، أم أنها الخصم والطرف الأساسى فى معسكر العدو؟

* هل الحل هو الحل السياسى، أم هو الحل العسكرى؟

قائمة لا شك حافلة، ولو أننا سنرى أنها أبعد وأبسط ما تكون عن التناقضات أذا توفرت الصلابة الكاملة فى النظرة والقدرة، فى الفكر والعمل، أما التناقضات فلا تنبع إلا من التمزق بين العجز والأمل.

وقد يكون من السهل أحياناً الإجابة على تلك الأسئلة بالحلول الوسطى الأكاديمية أو الشكلية التى يثبت التطبيق الجاد إفلاسها، وأسهل منه الإنحراف بها إلى هاوية الإنهزامية والأستسلام، وهو ما تقوم به قوى الثورة المضادة بالفعل. أما الصعب حقاً، مع مرارة النكسة ومحاذيرها وحساسياتها، فهو التقييم الدقيق، العلمى، الثورى، وعلى مستوى العمل الميدانى، لكل من هذه الأقطاب المتقابلة.

والحقيقة أن الحديث عن القضية والمعركة قد بات اليوم أمراً شاقاً صعباً، تحُفّه المخاطر، فكل كلمة تؤول ظلالا وانعكاسات،

وقد تقلب إلى ضدها تماماً. من هنا فإن الصراحة النزيهة الشجاعة هى وحدها التى تضمن شرف الكلمة وأمانة الرأى. ويجب إلى هذا أن نضع خطأ فاصلاً كالسيف بين المراجعة والتراجع، وألا نسمح للمرونة فى الفكر والعمل أن تنزلق إلى ميوعة أو تنازل، وألا تتحول المقاومة بحال إلى لون من المساومة...

من هذا المنطلق، نطرح السؤال المحورى، أو هو يطرح نفسه: كيف ننظر إلى القضية نظرة جديدة؟ وإلى أى مدى يصل هذا التجديد؟ أين يجوز الإجتهاد وأين يمتنع؟

إن الرد العلمى القومى يجب، بغير أفراط ولا تفريط، وبلا مزايدة أو مناقصة، ألا يخرج عن الإطار الثورى. هذه نقطة إبتداء شرطية، بغيرها نفقد الإتجاه ويستحيل الحد بين المراجعة والتراجع خطا واهياً دقيقاً أو هى من خيط العنكبوت. ومن هذه الزاوية، فإن الرفض السلبى الذى نُتهم به قد يكون فى معنى ما الإيجابية بيعينها، لأنه يحفظ علينا - إستراتيجيتنا - جوهر

حقوقنا. فهناك كما سنرى، خطوط وجوانب يجوز ويجب فيها الفكر الجديد، ولكن هناك أخرى لا يمكن فيها التجديد أو التغيير- إلا بالتنازل، وهو ما لا محل له من البحث إطلاقاً.

وعلى هذا، فلعل المفتاح يكمن في أن نميز بين طبقات ومستويات من القضية، لكل منها أمكانيات محددة للتجديد والإجتهاد. ونحن عادة نميز بيّن التكتيك والإستراتيچية، غير أننا بحاجة حقيقة إلى ثلاثية تميز بين التكتيك، وبين الإستراتيچية، وبين ما يسمى الأستراتيچية، وبين ما يسمى الأستراتيچية العظمى أو العليا grand strategy وهو تمييز يمكن أن ينسحب على مرحلتي القضية: مرحلة الأرض السليبة أو الإحتلال القديم، ومرحلة الأرض المغتصبة أو الإحتلال الجديد. ولكننا سنقصر بحثنا هنا على المرحلة الأولى أساساً، وصولاً إلى أمكانيات الحل البعيد المدى للقضية الأصلية وهي تحرير فلسطين النواة، وذلك مع الإفادة من درس المرحلة الثانية كلما

أمكن. فلنحلل الآن بعناية كلا من تلك المستويات الثلاثة، ولتكن أولاها الإستراتيچية العظمى.

الإستراتيچية العظمى

فى عقيدتنا أن الأستراتيچية العظمى فى القضية مجال مقدس لا يمكن بحال أن يمس، أنها النواة الصلبة الدفينة التى لا يجوز قط أن تخضع لبحث بالتغيير أو التجديد. الإستراتيچية العظمى، فى كلمة، هى: ألا بد من ذهاب إسرائيل– مهما بدا الهدف اليوم بعيداً، واليأس والتشاؤم دفيناً، ومهما كانت أو ستكون التضحيات والمخاطر والمحاذير دولياً أو غير دولى.

أن كل يوم مضى منذ ١٩٤٨، ولكن بالأخص منذ ١٩٦٧، يؤكد ما سبق أن قيل من أن دولة عربية واحدة لا يمكن حقاً أن تُعدّ مستقلة ذات سيادة ما دامت إسرائيل قائمة. غير هذا خداع مهلك للنفس. لقد فقد العرب حرية الحركة داخل دولهم ذاتها،

كما كشفت مثلا تجربة تحويل مياه الأردن، وكما أعلنها عبدالناصر بالفعل، بل وكما كشفت تجربة إرسال فو'تنا المسحلة إلى سيناء نفسها. والآن، هناك ثلاث دول عربية «محتلة»، وهذا وحده يكفى جداً لندرك خطر وجود إسرائيل.

نريد أن نقول أن هذه جميعاً نماذج وأدلة على أن وجود إسرائيل هو بمعنى حقيقى جداً نزيف دائم مباشر وغير مباشر على إقتصاديات العرب، وهو بمثابة الأسفنجة التى تمتص أولاً بأول كا طاقاتهم ومواردهم، وسيظل ذلك جميعاً ما بقيت إسرائيل. وجود إسرائيل ليس تهديداً دائماً للكيان العربى، ولكنه أيضاً تبديد مزمن لكل قواهم، وعبء ثقيل يشل إنطلاقتهم نحو التقدم والتطور.

كل آمالنا القومية هى الآن- حرفياً- «رهينة» الخطر الإسرائيلى. القومية العربية والوحدة، التى لن ندخل القرن الحادى والعشرين بغيرها، وقد لا نكاد نعيش فى العصر النووى بدونها، والتى «أقلقنا» العالم بالحديث عنها والقول- دون فعل-

أكثر مما فعلت أى قومية أخرى تحققت، هذه القومية وتلك الوحدة تظل حتى الآن دعوة نظرية يتجاذبها المد والجزر، فإذا لم يكن هذا الذى وقع مدعاة للوحدة، فأية مدعاة تُنتظر؟ إن النكسة إذا كانت قد ضربت هيبة العرب فى العالم فى الصميم، فقد أصابت أيضاً زعامتها الطبيعية الجغرافية أصابة بالغة ليست فى صالح دعوة الوحدة. وليس هناك (عدا النصر المضاد الباتر) ضمان بألا ينصرف العرب أو بعضهم فى النهاية عن الوحدة كل إلى طريقه الضيق، ما بقيت إسرائيل تهدد طليعة أو مركز الثقل والقيادة فيهم.

ولقد كانت أطراف العروبة وهوامشها- وهى مواطن الضعف والخطر الحقيقى فيها- لا تستمد القدرة على مواجهة الإطماع الخارجية المحدقة بها إلا من هيبة وقوة قلب العروبة، وها هو القلب قد ضرب بالعدوان الإسرائيلى، وباتت الأطراف مهددة بلا سند حقيقى. إن وجود إسرائيل تهديد مباشر لقلب العروبة،

وبالتالى تهديد غير مباشر لأطرافها، والخطر هنا والخطر هناك يتناسبان فى الحقيقة تناسباً طردياً، والكل تهديد فى النهاية للقومية والوحدة.

كذلك فإن درس النكسة قد حسم السؤال القديم الحائر: أيهما أسبق: الوحدة أم فلسطين؟ أن الكل يؤمن- منطقياً- أن الوحدة طريق طبيعى إلى فلسطين، ولكن الوحدة باتت بعد النكسة واحدة من تلك العقائد والقناعات الأساسية والضرورات البقائية التى لا يعرف أحد مع ذلك هل تحقق، وكيف- والسبب هو الوجود الإسرائيلى أساساً. قلد أصبحنا- بفعل الوجود الإسرائيلى- نحاول أن نحقق أملاً بأمل آخر، والنتيجة الصافية بطبيعة الحال هى نقطة الصفر دائماً. فكلما تقدمنا خطوة إلى الوحدة تحركت إسرائيل لتضربها، وفى نفس الوقت فنحن بغير الوحدة لم نستطع أن نصفى الوجود الإسرائيلى. إن باب الوحدة

يكاد يكون مغلقاً وربما سيظل كذلك من الناحية العملية ما بقيت إسرائيل. بإختصار، أن الوجود الإسرائيلى هو أكبر عامل فى إضطراب حياة العرب وعدم وضوح أو أستقرار مستقبلهم.

من هنا، وعند هذا الحد، تتكشف حقيقة أخرى جذرية حسمتها هى الأخرى تجربة النكسة : إن قضية فلسطين لا تخص الفلسطينيين وحدهم. هم حقاً ضحيتها الأولى، ولكن ليسوا الأخيرة، وهم قطعاً طليعة التحرير، ولكن ليسوا مؤخرته، والخطر يهدد الجميع، بل يحتم بالأصح عليهم . والقضية عربية بقدر ما هى فلسطينية، وليست كما قد يُظن فلسطينية أولاً وعربية ثانياً. بل أن فلسطين لم تعد تملك- فرضاً- حق التصرف فى قضيتها، دون أن نقصد بهذا إطلاقاً مصادرة لإرادتها أو وصاية، وإنما الخطر الذى يكتنفها يكتنف العرب جميعاً ، و«مشكلة إسرائيل» أكبر فى الحقيقة من «مشكلة فلسطين» ، فهى لا

ترادفها ولا تخصها وحدها ولكنها تتعداها لتكون مشكلة كل دولة المشرق العربى بصورة مباشرة والعالم العربى كله بصورة غير مباشرة.

لقد أصبحت فلسطين- فى معنى حقيقى جداً- بعداً أساسياً فى وجود وكيان ومصير كل دولة عربية، أصبحت- نكاد نقول- «جزءاً» من سوريا، و «جزءاً» من مصر، «وجزءاً» من الأردن، «وجزءاً» من العراق.... إلخ، بمثل ما أن كلا من هذه قد أصبحت «جزءاً» من فلسطين مصيراً ومآلاً. إنها قمة التداخل والإلتحام القومى العربى، فى النظرية والتطبيق.

ولهذا التحديد النظرى قيمته التطبيقية الكبرى، يحدد المسئوليات العملية ويقطع الطريق على المناورات النكوصية. نقول هذا لأن بعض القعوديين والإنهزاميين أراد بالقول بأن القضية فلسطينية أولاً وعربية ثانياً أن يلقى عبء التحرير على الفلسطينيين لكى ينفض يديه ويتخلص من المسئولية. ومن الناحية الأخرى فإن القول بأنها قضية عربية أولاً وفلسطينية بعد

ذلك من الممكن أن يعزل الفلسطينيين عن الكفاح أو عن طليعته أو يبث روح التواكل أو الأستاتيكية السلبية ويسيء إلى النضال والقضية دعائياً ودولياً.

أما الموقف السليم فهو تزاوج العمل النضالى الفلسطينى والعربى: الفلسطينى كطليعة فدائية، أصحاب الدعوى وجسم الجريمة، والعربى كجسم القوة وقلب المقاومة والتحرير.

ثم نعود، ومن وجهة الأستراتيچية العظمى، لنقول أن الوطن فى خطر - الوطن العربى، كل وطن عربى- ما دامت فلسطين تحت الخطر، وما دامت إسرائيل باقية. ولسنا من المنذرين المحترفين أو هواة التلويح بالويل والثبور، ولكن الحد الأدنى من الأدراك السياسى جدير بأن يثبت أن العرب فى كفة ميزان، فى كفة القدر، ما بقيت أسرائيل. والعالم العربى لا يمكن أن يتسع للعرب والصهيونيين معاً، ولكى يبقى أحدهما لابد أن يذهب الآخر. أما النظرة التى تدعو إلى عدم المبالغة فى خطورة القضية

بالنسبة للكيان العربى، وأن الوجود العربى أكبر من أن يدمره الخطر الإسرائيلى، فإن لها حقاً وجاهتها، فقط حين وحيث تثبت الأحداث العكس، وهو ما لا تبررة النكسة للأسف.

وكمجرد مثال، خذ ما يمكن أن نسميه «الدورة التوسعية» فى كيان إسرائيل. إن الخطر الإسرائيلى ليس فقط ما هو واقع وحال، ولكنه بنفس الدرجة أطماعها التوسعية المعلنة. وتوضح تجربة النكسة الميكانيزم الذى تعمل به تلك الدورة التوسعية. لقد جلبت الصهيونية أفواج الهجرة إلى فلسطين حتى غيرت تركيبها السكانى إلى الدرجة التى إستطاعت فيها أن تغير تركيبها السياسى بخلق الدولة اليهودية. ثم إستمرت الهجرة تتدفق عليها حتى تضاءلت، بعد أن وصلت الرقعة المحتلة إلى درجة التشبع السكانى وهنا عمدت أسرائيل إلى شن حرب يونيو، المدبرة المخططة منذ سنين، لكى تكسب مزيداً من الأرض تجتذب به تيار الهجرة من جديد. وهكذا: تستجلب الهجرة لتملأ الأرض

المغتصبة، حتى إذا لم تعد هذه قادرة على إستيعابتها وإمتصاصها، تتوسع إقليمياً بالعدوان، فتستجلب مزيداً من الهجرة لتملأ التوسع الجديد.. ألخ. وهذا الحلقة المفرغة ستظل تدور ما بين حرب وهجرة، وهجرة وحرب، ما بقيت إسرائيل.

كذلك فإن النظرة التى ترى عامل الوقت فى صفنا، لا يمكن أن تصح أو تمضى هكذا بلا قيود ولا تحفظات. لقد كانت الدعوة إلى الحل السريع الباتر للقضية هى السائدة قبل النكسة، ولعل العكس الآن الرائج، ولعله أيضاً الأسلم والأصح. وتعينيا إن الوقت معنا فى الأعداد لإزالة أراء العدوان الراهنى ولسنوات بعده ربما. ولكن أن نرتب أنفسنا- بعد مرارة النكسة- وأن نستعد ذهنياً ونفسياً ونضالياً لمرحلة جديدة طويلة من الصراع قد تمتد إلى عشرات وعشرات من السنين، كما يبدو أن البعض يريدنا، فها هنا موطن الخطر والخطأ معاً.

الوقت معنا فى المدى القصير، نعم، أما فى المدى الطويل،

فكلا على الأرجح. فالمستقبل يحمل إحتمالات وأخطاراً لا سبيل إلى التنبؤ بها، ولكن إذا عجزنا عن إجتثاث السرطان الآن، فكيف بعد أن يستشرى وينشر أخطبوطه ويعمق جذوره وأخيراً وليس آخراً ينمى لنفسه أنياباً ذرية؟

من واجبنا إذن أن ننظر إلى الحقائق المرة بعين مباشرة وبصراحة موضوعية، وذلك دون قلق أو أنهيار، وإنما لنجد الرد الصحيح عليها. أننا، مثلاً، كثيراً ما نطمئن أنفسنا بأن الهجرة اليهودية إلى إسرائيل فى خطر وإهتزاز، وبأن المجتمع الأسرائيلى مفكك إجتماعياً إلى حد التفتيت وربما الإنهيار وشيكا، وبأن الأقتصاد الإسرائيلى المصطنع سوف يصاب بتصلب الشريان يوماً ما، وأخيراً نستنيم إلى أن أسرائيل ليست دولة طبيعية وليس أهلها بأمة أو بشعب أو بقومية بالمعنى الصحيح... إلخ.

ولسنا نشك أو نختلف لحظة فى أن هذه سلبيات حقيقة جداً فى الكيان الإسرائيلى بإعتباره كياناً مفتعلاً مقتلعاً مقتطعاً، وأنها

عوامل ضعف كامنة فى نسيجها الجيوبوليتكى العدوانى. ولكننا لا نخدم قضيتنا بواقعية أو بأمانة إذا قصرنا نظرتنا عن حدود الحاضر المسطح وتغاضينا عن درس التاريخ البعيد والحديث، وعن أن «الزمن خير عامل إلتئام»، أو عن خطط العدو وأهدافه وإمكانياته.

لا يجوز مثلاً أن ننسى أن رقعة فلسطين المحتلة كانت تحمل قدراً من السكان العرب لا يقل كثيراً عما أقحم عليها من الغزاة المحتلين، دون أن يعجز إقتصادها عن تحملهم. أما عن تركيب المجتمع الإسرائيلى، فعامل الزمن كفيل بأن يصحّح كثيراً أو قليلاً من أخطائه الأساسية. إن العبرية تتسع رقعتها بإطراد بين سكان إسرائيل، وفى جيل آخر أو جيلين قد تصبح اللغة المشتركة. وفى مقابل التناقضات والمفارقات والتعدد الإجتماعى، فإن هناك روابط متزايدة تنشأ كل يوم، ونحن نعيش فى عصر الوعى بالذات كما لم يسبق قط فى التاريخ. فالى جانب الدين، ثمة يربط بين شرائم المجتمع الإسرائيلى عامل الخوف من المحيط المحدق، فضلاً عن عامل «الحقد» العنصرى الأسود.

وفوق هذا كله، فهناك النظرية الجديدة فى القومية. فإذا كنا تقليدياً نعتبر أن الأمة هى التى تصنع الدولة وأن الدولة إنبثاق طبيعى للأمة وتعبير سياسى عنها، فهناك نظرية قوية محدثة- كما ينبهنا جوبليه- ترى العكس، وتعتقد أن الدولة هى التى تصنع الأمة على المدى الطويل، وكل أمة لم تبدأ أمة حقيقة بالضرورة، ولكنها فى إطار تنظيم سياسى مشترك، مضروباً فى عامل الزمن الكافى، تتحول إلى أمة بمعناها السليم. وعامل الزمن فى هذه المعادلة يصل إلى حده الأدنى فى عصرنا هذا. عصر الوعى الحاد بالذات، فنحن لا نعيش فى العصور الوسطى أو أيام الحروب الصليبية.

وبمعنى آخر، فإن ٥٠ سنة أخرى مثلاً قد تحيل كيانا مصطنعاً ملفقاً مثل إسرائيل إلى كيان طبيعى بدرجة أو بأخرى، يضرب بجذوره فى الأرض مادياً وبشرياً، بحيث تصبح طائفة الصهيونية الخلاسية فى النهاية قومية أو شبه قومية، قومية

الحقد والعنصرية على الأقل، وبحيث يصبح إقتلاعها أكثر صعوبة. إن وحدة الأرض (المغتصبة)، مع وحدة العقيدة (والعقد)، مع وحده اللغة (المفتعلة ولكن المتزايدة والممكنة)، إذ تركت للزمن بغير حدود، فيمكن أن تقترب بإسرائيل من شكل القومية بصورة ما، لأن وحده الجنس ليست شرطيه تماماً ورغم كل شيء.

والخلاصة أن عامل الزمن فى المدى البعيد ليس فى صالح العرب بغير تحفظ وبلا حدود. ولسنا نتبنى بهذا نظرة تشاؤمية أو إنهزامية، ولكن علينا أن لا نستكن إلى سلاح ذى حدين على الأقل، ومن الخير لنا أن ندرك أنه إذا كان لا بد – ولا بد– من ذهاب إسرائيل، فكلما كان ذلك مبكراً وسريعاً كلما كان خيراً وأجدى.

وفى النهاية، فلقد قال أحد الكتاب عن القنبلة الذرية أنها إما أن تأتى العالم بشر مستطير مدمر، وأما أن تأتينا بخير لا نكاد

نتصوره. مثل هذا قد يقال عن القضية الفلسطينية بالنسبة للعرب. فبقاء إسرائيل ضياع لفلسطين والقومية والوحدة العربية، وللعرب أنفسهم فى التاريخ، ولن ينظر العالم اليهم بعدها إلا كأمة من المستضعفين فى الأرض، مغلوبة على أمرها، عاجزة لا تؤخذ جدياً، بل لامكان لها فى حضارة العصر الحديث، بينما أن إزالتها خليقة بأن تضع العرب على طريق الوحدة الكبرى، وضمان لهم بمكانهم تحت الشمس.

أننا ما زلنا نعيش فى عصر الصراع بين الشعوب والأمم والجماعات البشرية، بعيداً عن روح المساواة والتعاون والإعتراف بحق الحياه الكريمة المتكافئة للجميع. أو على الأقل فنحن لم نزل فى مرحلة الإنتقال بين عهدين. لقد نجح الأستعمار والأمبريالية وسياسة القوة والعنصرية خلال قرون أن ترسم خطاً يقسم العالم مادياً وحضارياً، وأكاد أضيف إنسانياً، إلى الجنوب منه، والإنسان السيد (السوبر مان) إلى الشمال، ولا نقول شبه الإنسان والإنسان على الترتيب.

وهذا الخط. خط الإستواء البشرى أو الإنسانى، يمتد من البحر الكاريبى إلى المتوسط إلى بحر الصين. وكل ثورة التحرير المعاصرة فى العالم الثالث، وكل الفورات المتفجرة المتحتدمة من جانب الدولة المتخلفة، لم تكن وليست إلا محاولة عظمى «لإختراق حاجز الإنسانية» هذا، وإقتحام خط الإستواء البشرى وعبور البحر إلى أوربا والغرب. وقد كانت الطليعة الرائدة والفاعلة والضاغطة فى هذا التحدى هى العالم العربى بلا شك، وكان كل ما فعله الغرب من مؤامرات وحصار هجمات إنما هو لدفعه مرة ثانية إلى أسفل وإستبقائه جنوب الخط لكى لا يعبر البحر- المتوسط- حتى لا يؤكد مكانه على قدم المساواة مع أوربا والغرب أو يرغمهم على الأعتراف بهم أكفاء لهم وأنداداً ...

تلك هى الحقيقة.العظم والدفينة فى كل قصة الصراع. وإسرائيل هى أعظم إداة أتيحت للغرب فيها. هى قد أصبحت بوليصة تأمين للغرب نفسه، يؤمن بها على مستقبلة وأستعلائه

وأمتيازه، ويضمن بوجودها إستبعاد أى خطر من منافسة عربية أو شبهة من مساواة بينهما. فالغرب يدرك أنه ما بقيت إسرائيل فلا مجال للعرب فى فرض المساواة الإنسانية الحقيقية، ولا محل لهم من العزة القومية الحقة فى هذا العالم. إن وجود إسرائيل عار العرب وموطن ألإالهم فى المجتمع الدولى، ولن ينتزعوا أى هيبة أو مكانة فيه حتى يغسلوا ذلك العار. إنها الوصمة التى لا يجرؤون أن يرفعوا رأسهم بها بين العالم.

عن الإستراتيچية

إذابة أم إزالة إسـرائيل؟ أعنى، والكلام كما حددنا عن المدى البعيد وليس عن إزالة اثار العدوان، والحل السياسى أم العسكرى؟ هذا هو السؤال. والسؤال- فى ظل النكسة وبالرغم منها- ليس أكاديمياً تجريدياً بحتاً، فقد تكاثرت فى الخارج أخيراً الأحاديث والمشروعات عن «التسوية النهائية»، سواء من الأعداء أو من

المحايدين. بل في أعقاب الهزيمة مباشرة ظهر بيننا من تصور باليأس ألا مفر من التسوية السلمية لكل القضية الفلسطينية. وقد نجدنا بعد جولة عسكرية أخرى وجهاً لوجه أمام محاولات للتسوية النهائية للقضية برمتها. ونحن متهمون دائماً بأننا لا نملك حلا أو رؤيا لحل واقعي عملي بنّاء مبرمج واضح النوايا والضمانات نقدمه ونطرحه على العالم من وجهة نظرنا، يضمن- كما يقال- مصير المستعمرين ويحدد وضعهم في البقاء إذا أرادوه. وبمثل هذا البرنامج نفعل كما فعلت الجزائر بالنسبة إلى المستوطنين، ونكسب مثلها الرأي العام العالمي. فهل التسوية السلمية ممكنة حقاً؟

دعنا لا ننسى إبتداء أن أحدا من الأصدقاء أو المحايدين فضلاً عن الأعداء يقول أو يقبل بذهاب إسرائيل، سواء بالإزالة أو بالإذابة أو التفكيك. كذلك فإن هناك إتفاقاً على أن للقضية جانبها الدولي الى الجانب الاقليمي أو العربي. وأخيرا فان من الجلي ـ

بعد النكسة ـ ان كل هزيمة عسكرية لنا تُغلب لنا الجانب الدولى على الجانب الاقليمى، أى تخرج القضية ومصيرها اكثر وأكثر من أيدينا، وتضعنا وتضعها رغما عنا تحت رحمة ووصاية الدول الكبرى إلى الحد الذى يفقدنا زمامها ويزيد من فرص فرض التسوية السياسية علينا من الخارج بينما يضعف من فرص فرضنا نحن للحل العسكرى.

والحديث عن التسوية السلمية يدور غالبا حول محورين أو بالأصح قطبين متعارضين لا إلتقاء لهما، الأول يبقى على إسرائيل كدولة بقدر أو آخر، والثانى يبقى فقط على الاسرائيليين أو بالأصح اليهود من سكانها بقدر أو بآخر. فأما الأول فيبدأ عادة من اعادة اللاجئين العرب من ناحية، ثم ضمان حدود إسرائيل دوليا بعد ذلك من ناحية اخرى، وقد يدور أحيانا حول «تقليص» إسرائيل إما الى خطوط التقسيم وإما الى ما دون ذلك بدرجات متفاوتات بحسب الاقتراحات حتى تصل فى تصور بعضنا الى رقعة رمزية محدودة. وفى كل الحالات، فالشرط الضمنى هو

إعتراف العرب قانونيا، بما يستتبع أو يسبق ذلك من إنهاء المقاطعة وحالة الحرب وإقرار حق المرور فى القناة ... الخ.

ولعل هذا الحل، بإبعاد وشروط متباينة، هو ما فى رأس بعض الدول الكبرى من الأعداء أو من المحايدين: الأعداء على أساس خطوط الهدنة القديمة (قبل ٥ يونيو ١٩٦٧) على الأقل، وربما بعض الاضافات الهامة فى الحدود على الأغلب، والمحايدون على أساس خطوط التقسيم على الأرجح. وفى كل الحالات يساق الاقتراح كنصيحة للعرب ولمصلحتهم ذاتها، بمعنى أنهم ما داموا قد عجزوا عن إقتلاع اسرائيل فالأفضل أن يتعايشوا معها، وما داموا هم فى حاجة إلى التنمية والتقدم ففى وسع اسرائيل أن تقدم لهم أسبابه وأدواته (كذا!). على أن الشئ المشترك بينها جميعا هو رفض العرب القاطع، فعلى ضوء الاستراتيجية العظمى لهم، لا مكان «لدولة» اسرائيل بينهم على أى أبعاد أو أشكال ومهما قدمت التبريرات والتمويهات.

أما عن النوع الثانى من الحل السلمى، فهو عادة إقتراح يتساءل عما إذا كان من المقبول أن يعلن زوال اسرائيل كدولة مع بقاء سكانها أو جزء من سكانها حيث هم، كيهود لا كاسرائيليين، فى ظل فلسطين عربية مجددة. وقد تبنت منظمة التحرير الفلسطينية أخيرا، ودفعا لانتقاد العرب بالاحجام عن إقتراح الحل البناء، دعوة من هذا الطراز، حيث أعلنت استعدادها لقبول الحل السلمى الذى يزيل كيان اسرائيل كدولة، مع إستبعاد المهاجرين الصهيونيين الذين وفدوا بعد تاريخ معين، وإعادة اللاجئين ودولة فلسطين العربية بالطبع. غير أن من المفيد هنا أن نلاحظ أن الصحافة العالمية شوهت الاعلان وحرفته، فضلا عن أن أحدا لم يتقدم لمناقشته.

وهناك بعد هذا، نوع من الحلول الغامضة أو الخلاسية، قل الخنثوية التى يصعب تحديد جنسها تماما، إذ تفتقر إلى الوضوح والتحديد، ربما عمدا. من هذه اقتراح قديم بدولة ثنائية من

العرب واليهود، والمثل الذى يقتبس عادة - وإن يكن التشبيه خطأ فى الواقع شكلا وموضوعا - هو لبنان. والحقيقة أن بعض هذه الحلول المزعومة يعقد المشكلة أكثر مما يحلها، بل ويضيف مشكلة جديدة اليها، ذلك ان لم يكن فى الحقيقة حلا صهيونيا صرفا. مثال لذلك اقتراح «الشرق الأوسط الصغير» الذى يقدم كإتحاد فيدرالى بين إسرائيل والأردن ولبنان (!). وواضح جدا أن هذا الاقتراح من صنع الدعاية الصهيونية، وهو فى جوهره دعوة إلى توسيع اسرائيل أكثر منه محاولة لتصفيتها! وهو بالقطع مرفوض عربيا.

وحقيقة الأمر أن مثل هذه الاقتراحات الملتوية المدسوسة تصدر عن منطق التلفيقات الصهيونية الكاذبة التى تروّج فى العالم بأن مشكلة العرب واسرائيل «مشكلة عائلية» لأنهم جميعا ساميوّن وأبناء عمومة (كذا !)، وإن اسرائيل تمثل فى جانب منها مجرد عملية «تبادل سكانى» بين الطرفين حيث إنتقل عرب

فلسطين إلى الدول العربية المجاورة وإنتقل يهود العالم العربى إلى اسرائيل (كذا !) . بل لقد وصل التبجح والاستخفاف وتزييف العلم بالدعاية الصهيونية الى حد الزعم الإفك الفاضح بأن إسرائيل دولة «نصف أو ثلث عربية» (كذا !)، حيث أن السواد الأعظم من نصفها السفاردى هم من يهود البلاد العربية !! وهذه التخريجات البهلوانية السفيهة، التى لا يكاد يتصورها العقل العربى، هى وحدها دليل مؤكد على سقم وعقم كل أمل ساذج فى حل سلمى حقيقة للقضية ...

وبعيدا عن هذه التصنيفات التى عرضنا، فاذا نحن أردنا نموذجا لاقتراح ما متكامل نقف عنده قليلا كمجرد عينة، فليكن إقتراح المستشرق الفرنسى اليهودى غير الصهيونى والصديق للعرب ماكسيم رودينسون. إنه يرى ألا حل للمشكلة إلا بإحدى إثنتين، الحرب أو السلم، ولكنه إذ يستبعد الحل العسكرى على الأسس الانسانية، يرى أن الحل السلمى يتوقف على قبول

إسرائيل بالتخلى عن الأيديولوجية الصهيونية الاستعمارية التوسعية، وأن توقف الهجرة تماما، وتكف عن أن تكون رأس جسر للامبريالية الغربية. عندئذ يمكن لسكانها أن يعيشوا لا كصهيونيين بل كيهود فى دولة يتوازن فيها اليهود والعرب «مثلما يعيش المسلمون والمسيحيون فى لبنان»، وعندئذ يمكن لها أن تتحول الى دولة «مستشرقة» تندمج فى المنطقة العربية دون ما خطر عليها حيث لا خطر من مليونى يهودى فى كفة ومائة مليون عربى فى الكفة الأخرى، بل على العكس سيتحولون مع إنهاء حالة الحرب إلى قوة فعالة فى تنمية وتطوير المنطقة.

وليس من الواضح تماما ما إذا كان رودينسون يقصد باقتراحه الابقاء على إسرائيل كدولة أو تصفيتها سياسيا، ولكن الأغلب أنه يبقى عليها، كما أنه لا يوضح من الذى سيذوب فى من، فضلا عن أنه إذا صح أن مليونى يهودى ليسوا خطرا على مائة مليون

عربى فانهم خطر على مليونى عربى فى الدولة المعنية، التى لا ندرى إن كان المقصود بها دولة فلسطين أو دولة اسرائيل.

ومن العبث هنا أو التزيد أن نبحث عن الرد العربى على كل من هذه الاقتراحات الفرضية البحتة وأمثالها، ولو أن كل اقتراح لا يبدأ على الأقل من إزالة اسرائيل كدولة، لا محل له من البحث إطلاقا. نقول ذلك، لأن الرد الاسرائيلى وحده يكفينا تلك المشقة إن التوسع، لا التقلّص، هو حياة إسرائيل وهدفها المعلن، وأى قبول بغير ذلك هو انتحار بطئ لها. أما الاقتراح بتصفية إسرائيل سياسيا كدولة وليس بشرياً كسكان، فليس فى اسرائيل أحد يمكن أن يقبل بمجرد سماعه، وليس فيها كما يتوهم البعض صقور وحمائم، وانما فقط صقور جارحة تريد التوسع بالقوة وتعيش له وعليه، وأبناء اوى تقبل كل ما تلقى اليها به تلك الصقور من رمم وجيفة.

ثم من ذا الذى يستطيع أن يقنعها بهذا الحل أو يرغمها عليه؟

أن التجربة تقول أنه فى وجه أى اقتراح من هذا القبيل ستأخذ إسرائيل «قضيتها» فى يدها، وتتمرد حتى على الدول الكبرى، مهما كان إعتمادها عليها، كما تمردت على بريطنيا فى أخريات الانتداب، فتهجم على العرب بلا إنتظار لكى تفرض وجودها، وتعود بذلك كما بدأت عصابة إرهابية على نطاق أضخم. وإسرائيل تدرك تماما ـ من التجربة الجزائرية مثلا ـ أن مجرد زوال صفة الدولة مع عودة العرب يعنى مباشرة خروج الصهيونيين بالجملة فى شهور، حتى بلا ضغوط ولا تشريعات ولا طرد (سجّل شهر واحد خروج نصف مليون معمر فرنسى من الجزائر بمحض إختيارهم بعد إعلان الاستقلال مباشرة).

النتيجة المحققة أن الاذابة، التسوية السلمية، مستحيلة بصميم كيان إسرائيل نفسها، إن لم تكن مستحيلة مرتين بحكم موقف الطرفين. ولا يبدو أن هناك نظريا إلا طريق الازالة والعمل العسكرى. ومن الواضح أن هذا حتى الآن طريق مسدود أو

مشلول عمليا، وذلك لعجزنا نحن العرب. فلماذا عجزنا؟ دعنا أولا، قبل أن نجيب على هذا السؤال، نقترح أن نوع الحل الذى يمكن أن يحل المشكلة فى المدى الطويل وفى جذورها الأولية، هو نفس نوع الحل الذى سيحلها فى المدى القصير وفى مضاعفاتها الراهنة. أعنى أن إزالة آثار عدوان يونيو ١٩٦٧ ستكون بمثابة كشّاف أو قرن إستشعار للطريقة الوحيدة لإزالة آثار مايو ١٩٤٨.

فإن أمكن للحل السياسى، بدون أدنى تنازلات عربية أو مساومات طبعا، أن يعيد اسرائيل الى حيث كانت قبل ٥ يونيو، فنحن على إستعداد علميا لأن نقتنع بأن تحرير فلسطين وعودتها الى ما قبل ١٥ مايو ممكن بالحل السياسى. وإلا فانه الحل العسكرى - والعسكرى وحده - فى الحالين، والحالين معا على السواء. ونبادر فنقول إننا لا نرى حلا سياسيا لإزالة آثار النكسة، غير أن الشهور القادمة، طالت أم قصرت، كفيلة وحدها بأن تقدم الرد وتحسم كل وهم دفين أو تنظير مسبق. إن على

كل من يؤرقه ويقلقه البحث فى كيفية تحرير فلسطين نهائيا أن ينتظر وينظر بكل اهتمام إلى كيفية إزالة آثار العدوان والنكسة الأخيرة كما ستفرضها تجربة الواقع العملى الذى لا لجاج فيه.

ثم نعود الى سؤالنا عن الحل العسكرى: لماذا عجزنا حتى الآن عسكريا؟ منذ ١٩٤٨، يمكن أن نرى دورة معينة فى الصراع العربى - الاسرائيلى تبدو كدوائر متتابعة حول مركز واحد، أو كحلقات متصلة كالحلقة المفزعة. وهذه الحلقات تتعاقب - كالبقع الشمسية: - مرة كل ١٠ - ١١ سنة، كل منها تمثل حربا مع إسرائيل تتوسع بعدها، ثم حربا أخرى تزداد فيها توسعا: ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧. وفى كل مرة يزيد قطر الدائرة، أى تزداد أبعاد الصراع وتتضخم أدواته. هذه هى «الدورة الصراعية» كما قد نقول. وهى تتوسع باستمرار، ولكننا للأسف نخسر على الدوام. فلماذا؟ السبب أساسا أمريكا!

مما لا خلاف عليه أننا خسرنا معركة يونيو - فى جزئ منها

- بخدعة الدبلوماسية الأمريكية المعروفة التى أرجحتنا بين التردد ما بين الهجوم وانتظار الهجوم. وقد نجحت الخدعة أساسا لخوفنا من التدخل الأمريكى المسلح. ولابد لنا أن نعترف أن الخوف من التدخل الأمريكى قد تحول لدينا الى عقدة، وأن هذه العقدة خلقت لدينا خطأ أو إنكسارا من المنظور: ننظر إلى إسرائيل، فلا نبصر إلا أمريكا، ونرى النجمة الخماسية خلال النجمة السداسية. وفى النتيجة، فقد أصبحنا لنجد أنفسنا من خوف وخشية أمريكا فى هزيمة حقيقية لإسرائيل.

ولئن كان هذا ينصرف إلى جولة ١٩٦٧، فإنه يظل عنصرا كامنا فى جولات المستقبل. ومعنى هذا: إما أن تستمر الدورة الصراعية كما كانت غالبا، وإما أن نكسر هذه الحلقة المفرغة الجهنمية بطريقة أو بأخرى. وهذه الطريقة والأخرى لا تخرجان عن الصدام العسكرى النظامى الذى يحتمل ويقبل بالمخاطرة

بمواجهة التدخل الأمريكي يوما ما فى المستقبل البعيد، أو عن الحرب الشعبية الفدائية التى تستبعد بطبيعة الحال أى خطر خارجي بالتدخل.

ولقد أثير نقاش طويل عن المقابلة بين هذين الحلين، النظامى والفدائى، وعن مدى التكامل أو التفاضل بينهما، كاد أحيانا أن يصل الى، أو يكشف عن، تناقض ما يبدو كامنا بينهما بدرجة أو بأخرى. والملاحظ إبتداء أن الحلين يوشكان أن يتناسبا تناسبا عكسيا، فكلما تعثرت جهود الحرب النظامية برزت الى المقدمة دعوة الحرب الشعبية، وكلما تعرضت نشاطات الفدائيين فى الحرب الشعبية الى خطر العدو، عادت الى الصدارة دعوى الحرب النظامية كالحل الفيصل. وليس غريبا لذلك أن تعكس الدعوة الى العمل الفدائى الشعبى نوعا ما من اليأس من قدرة العمل النظامى على المواجهة. كذلك فلا ننسى أن هذا التأرجح بين الطريقين ينعكس الى حد ما على تحديد دائرة العمل الميدانى، فالأول يلقى

العبء الأكبر على الفلسطينيين غالبا، والثانى يلقيه على الدول العربية الاخرى بعامة.

والحقيقة أن هناك ، فى ظل الظروف الراهنة فى المنطقة، قدرا ما من العلاقة المزدوجة بين الطريقين. فاذا كانت الحرب الشعبية تستبعد خطر التدخل الأجنبى من خارج المنطقة والذى تثيره الحرب النظامية (العدوان الامريكى)، فإنها تثير خطر التدخل العدوانى من داخل المنطقة (العدوان الاسرائيلى)، كما تشير تجربة يونيو، بل وإلى الحد الذى وصل بالبعض إلى اتهام العمل الفدائى بالتوريط فى المعركة النظامية(؟!). والاتهام أخطر من أن يؤخذ على علاته وعواهنه، ولكن الواقع أنه يضع اصابعنا على نوع آخر من «الدورة» فى الصراع مع العدو.

خذ مثلا معركة يونيو، لقد بدأت بالتحرش الاسرائيلى بالأردن والتهديد العلنى بغزو سوريا بعد أن اتهمنا بتنظيم وتأمين الغارات الفدائية التى اقضت مضجعها. فلما كانت المعركة

وحدثت النكسة، لم يعد من طريق أمام الحرب فى الاراضى المحتلة إلا معاودة العمل الفدائى من جديد، وعادت إسرائيل بالفعل تهدد بالتحرك من جديد أيضا، بل لقد وصل التهديد اخيراً إلى حد الإنذار بإحتلال « إحدى العواصم العربية» !

ورغم تصاعد المقاومة العربية الفدائية الباسلة الى درجة رائعة حقا فى وجه الإرهاب الإسرائيلى المسعور، فقد يأتى الوقت الذى لاتكفى فيه للمواجهة بندية، ويعود الأمر محتاجا إلى أكثر من الحرب الشعبية، أى الى حرب الجيوش النظامية، وهكذا تمضى الدورة : هذا طريق مسدود، فنلجأ إلى الطريق الآخر، ولكنا نجده مسودا، فيعود إلى الأول.. مداولة مرهقة، ولانقول كالمستجير من الرمضاء بالنار....

أين يكمن الحل الصحيح إذن؟ فى صلابة النظرة والقدرة وحدها يكمن. فمع صيغة منتهى القوة، ينتفى اى تناقض اوتعارض ظاهرى بين الطريقين. إن للحرب النظامية ثلاث

جبهات تطويقية واضحة، ولو توفرت لها القوة المقتدرة الواجبة لكانت هى بلاجدال مركز الثقل الحاسم فى الصراع. وفى هذه الحال يمكن للحرب الشعبية أن تؤلف جبهة رابعة كاملة بكل معنى الكلمة تمثل حربا تجويفية Bore War تخرب للعدو من الداخل تخريبا فعالا إلى اقصى حد. إنها غزو من الداخل يمكن، بالتنسيق الوثيق مع الغزو من الخارج، أن يضع العدو بين فكى كماشة وداخل إستراتيجية شقى الرحى. لاسيما انه اذا قدر للجيوش العربية أن تحطم قوات العدو النظامية وتدخل أرض العدو يوما ما، فسوف تجابه حرب العصابات شبرا شبرا على طول امتداد المستعمرات الاسرائيلية. غير أن هذا لايعنى قط أن الحرب الشعبية بديل للحرب النظامية، وإنما هى مكمل ثمين لها.

وهكذا يعود الموقف إلى الحرب النظامية كأساس المواجهة مع العدو، ومعها تعود إحتمالات التدخل الأجنبى المسلح، ويعود

شبح أمريكا ليلقى بظله على المعركة، ومعه ـ مرة اخرى ـ تعود المحاولات الالتفافية للبحث عن حل يتفاداه. أوقل هو بالأصح أمل، لأن أصحابه يتطلعون إلى يوم تتم فيه عملية ذوبان اليهود بيولوجيا واجتماعيا ودينيا فى المجتمع الامريكي، أو بالعكس إلى يوم تتأزم فيه العلاقات بين أمريكا شعبا ودولة وبين يهود امريكا اوصهيونيتها، كنتيجة لتزايد غطرسة وتحكمّ هؤلاء وتعاظم غرور القوة لديهم، فيحدث تصادم تاريخى داخلى على غرار ماحدث فى ألمانيا النازية بين الحربين. عندها ـ هكذا يؤملون ـ قد تتجدد ضد السامية، وتتبادل الكراهية والحقد.. الخ. ومن ثم تنفصم العلاقة غير الشرعية بين أمريكا وأسرائيل، وينفتح الباب أمام الحل العربى لقضية تحرير فلسطين.

ذلك مجمل الحلم ـ وحلم هو بالتاكيد ـ كما يتصوره أصحابه. وبصرف النظر عن المغالطات الموضوعية الساذجة فى التشبية والمقارنة بين حالتى أمريكا وألمانيا، وبغض النظر عن الاهداف

التخديرية او الهروبية التى قد تكمن وراء الفكرة كلها فلامحل لمثلها يقينا فى أى تفكير علمى عملى أمين، ولقد وصفت العلاقة بين أمريكا وأسرائيل أخيرا بأنها وصلت إلى «نقطة اللاعودة» ، ويتعين علينا أن نواجه الواقع وجها لوجه.

وقضية القبول بالمخاطرة «بالتناطح» والمواجهة مع امريكا، قضية أعقد وأخطر من أن يقطع فيها برأى، وقد حيرت الكثيرين بالفعل. وهى فى كل الأحوال مستعبدة فى المدى القصير، وهى على أية حال غير واردة ولامفروضة علينا فى معركة إزالة آثار العدوان، حيث إختلف الامر الآن تماما إلى حق الدفاع الشرعى عن النفس. أما فى المدى الطويل، فيبدو أنها قد تفرض نفسها على العرب، وإن كان أحدٌ بالقطع لايريدها أويسعى اليها. ولسنا نود أن نعرض هنا لهذه القضية الخطيرة فى كثير اوقليل، ولكن ثمة ملاحظات عامة يمكن أن نطرحها بلاتعليق.

نحن إبتداءً لانسعى إلى عداوة أحد، وأخر أحد يمكن فرضا أن

نطلب عداوته هو ذلك العملاق. لكن الخيار ليس لنا، وإنما العداء مفروض علينا. وليس مابيننا وبين أمريكا أُحادى بل هو ثنائى، أعنى ليس اسرائيل وحدها ولكن ايضا اشتراكيتنا واستقلالنا وتطورنا. وما إسرائيل إلا فرصة تاريخية مناسبة جدا لتحقيق هذا الهدف، وإن كانت كذلك ولذلك قد صارت هى نفسها هدفا فى ذاته. ولو كان مابيننا وبين أمريكا هو إسرائيل وحدها، فهل يجوز لنا أن نتصور - جدلا وعلى سبيل المثال - أنه كان من الممكن أن تكون مصر الآن بمثابة تركيا أخرى، حيث حاولت أمريكا إن تغريها وتجتذبها إلى أحلافها قبل الثورة وبعدها؟ إن امريكا تطارد دولا اخرى فى العالم الثالث دون أن يكون لها اسرائيلها...

ومعنى هذا أن أمريكا منحازة ضدنا مرتين، ونحن حين نطالبها - كقوة عظمى - بالحياد بيننا وبين إسرائيل، فنحن نتجاهل أهدافها مرتين، فحياد امريكا يعنى ضياع اسرائيل،

وضياع إسرائيل يعنى ضياع أهداف أمريكا ضد نظم المنطقة التقدمية وعدم انحيازها... الخ.. كلا، ان عداء أمريكا لنا أصيل ومفروض علينا، ولا يزيلة محاولة التفاهم المتعقل، ولاالتلويح بقطع المصالح الاقتصادية لأنها كدولة مسرفة الثراء لاتخشى سفه التبذير والتبديد، واين أرباحها من بترول العرب مما ينفق على حرب فيتنام مثلا؟ هذا عدا أنها تشك فى قدرة العرب الفعلية على استعمال سلاح البترول، كما أوضحت تجربة يونيو.

ثمة بعد هذا ملاحظة اخرى هامة. لقد ضخمنا كما قلنا من قبل من قوة إسرائيل مريتن: مرة خلال قوتها الذاتية، ومرة خلال «تلبيسها» بأمريكا. وبنفس المنطق، فقد ضخمنا كثيرا من قوة وخطر أمريكا. ولسنا نقلل بهذا من جبروت القوة الاميركية الماموث الرهيبة قطعا، ونحن ابعد مانكون عن أن نقصد أدنى وهم بظل من تكافؤ معها، ولكن الملاحظ ـ بلاحرج أو إحراج ـ أن أحدا فى العالم، ربما ، ليس له قضية مع امريكا ويخشاها إلى حد

الشلل مثلما نفعل نحن تقريبا. فثمة فى فيتنام حرب رهيبة، وكوريا الشمالية قبلت بالمخاطرة بالمواجهة حين إنتهكت حقوقها الدولية، كما أن الحرب فى فيتنام - وبناء على طلبها هى من حلفائها - لم تتحول إلى صدام مسلح نووى أوغير نووى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، وهو الخوف الآخر الذى يصيبنا بمزيد من الشلل، ولاشك أن لتجربة «بويبلو» ، ولتجربة فيتنام إذا إنتهت بالنصر، مغزى كبيرا جدا للنضال العربى، فالاستعمار قد يكون له نوبات باطشة رعناء، ولكنه أساسا جبان حين يجابه تصديا ضاريا، ولابد لمن يناجزه أن يكون قادرا على القطيعة معه، أمركيا أوغير أمريكى.

ثم نعود إلى المدى القصير لنتساءل: إذا كان الخطر الامريكى هو الذى يسد علينا كل طريق فى النهاية، وكان هو الذى يلقى بنا فى التردد والخوف، الذى يلقى بنا بدوره فريسة سهلة لإسرائيل، أفليس هناك مخرج ما من هذه الحلقة المفرغة؟ بغض

الظن ان ثمة احتمالا بمخرج، قد يمكن أن ينتزع من صميم النكسة الراهنة. إن المفهوم أن التدخل الامريكى العسكرى لن يجد مايبرر به نفسه إلا حين تكون اسرائيل على جانب الدفاع داخل أرضها - أرضنا - المحتلة، اى حين تنتقل المعركة الى ماعبر «حدود» الهدنة.

ونحن، بعد، مقبلون فى القريب على إحتمالات معركة مسلحة جديدة مع العدو. فلو أمكن بإستراتيجية ذكية مقتدرة أن نطيل عمدا وبإحكام معركة النفس الطويل شهورا، على أن نحصرها فى النصف الشرقى من سيناء، مع الضمان المطلق بعدم الارتداد أو التراجع عن ذلك الحد، ومع الحرص المخطط فى نفس الوقت على ألا نندفع بسرعة إلى خط الحدود، بل نستدرج قوى العدو موجة بعد موجة الى ذلك النطاق، نقول لو أمكن هذا فلعله يكون تدميرا لإسرائيل بغير تهمة «تدمير اسرائيل»، وذلك باستنزاف كل قواها المحاربة على أرض سيناء، وبعدها

يتفتح الطريق إما إلى فرض الشروط العربية، واما الى التصرف الميدانى من موضع القوة والإنتصار. ولكن الاستعداد لمثل هذا يتطلب شروطا وحسابات تعنى الحد الاقصى من الاستعداد والقدرة والجرأة.

فى التكتيك

معروف من قبل النكسة كم نجحت الدعاية الصهيونية الكاسحة فى أن تؤلب علينا الراى العام العالمى إلى حد الحقد والعداء السافر للعرب قبل وأثناء معركة يونيو مباشرة، أن العدو الاسرائيلي يموه على العالم المخدوع بحديث السلام وحملاته وعروضه، وهو يضمر الحرب ويعنى القتال.

ومن المسلم به أن إسرائيل تلعب دورا مزدوجا فى كل شئ تقريبا: فأمام العالم الخارجى تأخذ دور المسالم الضعيف المهدد، وحين تنفرد بالعرب، فهى تلوح بالقوة الوقحة وبصلافة وغرور

من يتعامل بلا ادنى شك من موضع الأقوى والأرقى. هى أمام العالم الخارجى «أبناء عمومة» للعرب (كذا!)، وأمام العرب الغريم الحاقد الذى له ثأر الحياة أو الموت. هى أمام العالم الخارجى ضحية العرب، حمل مسالم إزاء وحش كاسر، أو حمامة وديعة تريد أن تعيش فى سلام أمام صقور جارحة، وهى أمام العرب تكشف عن أنيابها وتلوح بقبضتها مهددة بأنها قاتلتهم أو أن يستسلموا لها.. ومن الواضح أن هذه السياسة المزدوجة المخاتلة قد وصلت إلى قمتها بعد هزيمة يونيو، وتزداد الآن يوما بعد يوم.

وقد كان لهذا رد فعل عنيف على العرب وموقفهم من قضية الدعاية وقصورهم شبه المطلق فيها. والملاحظ أن أسهم خط الدعاية والاعلام والفكر - كتعويض عن خط القتال - إرتفعت بشدة بعد الهزيمة، واشتدت الدعوة الحماسية إلى الإهتمام بالحرب الفكرية وتغطية العالم بالدعاية والحوار والمنظارة لكسب الراى العام العالمى، على نغمة علمية هادئة بعيدة عن العنف

والتهديد... الخ. والملاحظ فعلا أن هناك قدرا ما من التنبيه أوشبه التحول فى بعض قطاعات الرأى العام العالمى بدأ يتسلل بالتدريج منذ النكسة. ولكن السؤال يظل: أين بالضبط موقع الدعاية من نضالنا التحريرى؟

ونبدأ فنقول أن أحدا لايشك فى تقصيرنا وأخطائنا الدعائية، وأن أحدا لايشكك فى قيمة معركة الرأى ومدى خطورتها واهميتها فى النضال من أجل النصر. فإنما نجحت اسرائيل فى أن تظهر إلى عالم الوجود، وأن تعيش بعد ذلك وتبقى، بفضل شبكة علاقاتها ونشاطاتها ودعاياتها العالمية المدروسة العميقة المقتدرة. وما كان لإسرائيل أن تنجح وتفرض نفسها لولا تلك الشبكة الاخطبوطية الصهيونية الكثيفة التى تصيدت بها الرأى العام العالمى عطفا ومساعدة وتأييدا وإنحيازا. ومن المغرى عند هذا الحد ان يتساءل بعض العرب، بعد إذ تعثر طريق القوة أوتعثروا عليه، عما إذا كان الأمل يكمن فى معركة الدعاية والرأى...

وليس يشك أحد فى أن الدعاية والفكر سلاح أساسى وخطر فى معركة المصير، لا يمكن مهما بالغنا التقليل من اهميته أو المغالاة فيه، كذلك ليس من شك أننا لم نحسن إستعما ل هذا السلاح، إن لم نكن حقا قد اسانا استعماله فى القليل الذى استعملناه له. ولسنا على إستعداد لأن ندافع عن هذا القصور وتلك الاخطاء، لكنا نود أن نحدد الابعاد الحقيقة والامكانيات الفاعلة لهذا السلاح.

فهناك أولا نوع - مفهوم فى معنى - من التعارض بين أغراض الدعاية ومجالاتها، وبالأخص بين الدعاية الداخلية والخارجية، فنحن حين نخاطب العالم نحتاج الى أن نتحدث بالسلام وبلغة الحق حتى لانستفز الرأى العام، إذا لم نستطع أن نكسبه ونستميله.

ولكننا فى نفس الوقت محتاجون فى خطابنا للرأى العام العربى إلى رفع روحه المعنوية ومحاربة الحرب النفسية الضارية

ومحاولات تطويع وأقلمة العقلية العربية للاستسلام البطئ.. وكذلك محاربة حملات التشكيك فى صلابة القيادات الثورية.. الخ. وكل هذا كثيرا ما يفرض علينا حديث القوة والحرب... الخ.

ولعل الحل يكمن فى صلابة الوعى العربى وتنوره:

ضرورى أن ينشأ نوع من التفاهم الصامت الغائر كأنه «التلباثى» مابين القيادة الأمنية والقاعدة المؤمنة، بما يعفى الأولى من الحاجة إلى العلن والكشف والتهديد، ويغنى الثانية عن الحاجة إلى المقويات والجرعات المعنوية من حين إلى حين دون ان تفقد إيمانها المطلق وإصرارها الرهيب.

ثانيا، يلاحظ دوريا فورة من الانفعال والتحمس لسلاح العمل الدعائى والإعلامى الجاد العلمى.

واذا كان هناك بعض تطور ملحوظ فى بعض قطاعات لاباس بها من الرأى العام العالمى هنا وهناك منذ النكسة، يصفه البعض تفاولا بانه ريح التغير وبعده إلى إنقضاض وإجهاز، ولنذكر، مثلا

لهذه العواطف المتضاربة، مابدا فى بعض الدول الصديقة جدا فى اوروبا من أسف لهزيمة العرب أعقبه توّا نوع من الإنبهار والإعجاب بالنصر الاسرائيلى المذهل! وفضلا عن هذا، فلا شريحة متعاطفة واحدة من الرأى العالمى فيما نعلم تصل الى حد القبول بذهاب اسرائيل، دع عنك تدميرها، ويوم يعود العرب الى المعركة وتبدو إسرائيل فى خطر أى خطر، فقد يرتد ساعتها كثير من الرأى العام العالمى هستيريا منحازا كما كان من قبل...

ولسنا نجادل أونمارى فى أن جزءا من التفهم والتعاطف الوليد مع العرب ضد قطاعات الارهابية النازية الجديدة هو تفهّم وتعاطف مخلص وصادق. ولكن الرأى العام العالمى، بقدر ماهو حول قلب، عاطفى أكثر منه عقليا، لامبال أكثر منه متحمسا، منحاز أكثر منه منصفا. فأغلبه لايبالى ولايكاد يهتم كثيرا، وأغلب الباقى منحاز مغرض عمدا ومسبقا، وأغلب مايتبقى عاجز قصارى مايمكله إزاء كل جريمة أوعدوان، غضبة أصيلة ،ولكنها تضيع بعد قليل ويبقى بعدها الامر الواقع كالحا متبجّحا.

لقد ضمت إسرائيل القدس، وأعلنت ضم الأراضى المحتلة إداريا، فماذا فعل الرأى العام العالمى؟ وهكذا سيحدث حين يتحول الضم الإدارى إلى كلى.. لا، ولن تزلزل الأرض زلزالها تماما حين تحقق إسرائيل، فرضا ، أطماعها التى بدأ زعماؤها يتكلمون عنها فى إسرائيل الكبرى، سواء من الأردن الى القنال. أو من النيل الى الفرات؟!..

إن الرأى العام العالمى والدعاية والاعلام.. الخ مجرد مناخ، او قل لتقلبه طقسا، وهو مهم جدا فى تلوين الأمر الواقع وتمويهه، فى تبريره أواخفائه، بل حتى فى الاعداد لتغييره، ولكنه فى ذاته لايغير أمرا واقعا. ولقد أنفقت الصهيونية عقودا فى تهيئة المناخ والجو العالمى لقضيتها الكاذبة، ولكن بالحرب وحدها فرضت الامر الواقع ممثلا فى دولة اسرائيل.

لنبذل كل طاقتنا فى سبيل كسب هذه المعركة، ولكن لنذكر أولا وأخيرا أنها معركة تكميلية وتأتى فى المحل الثانى، وقائية

أكثر منها علاجية كما قد نقول، وإن القضية المصيرية الكبرى إنما تحتاج إلى محارب أولا ثم إلى محام ثانيا.

وإذا شئنا أن نعتمد على الرأى العام وحده أو أساسا، فقد نجد الاستعمار انقرض من كل مكان تبقى له فى العالم، ونحن لم نزل نجادل ونناظر دعاية وإعلاما، بينما إسرائيل باقية تتحدى وحدها مصير الاستعمار. طريق الحق الوحيد هو طريق القوة ولكن علينا ان نناضل بكل طاقة وإخلاص لنكسب الرأى العام العالمى، فقط ليكون على إستعداد لتقبل الامر الواقع الجديد يوم نفرضه، لاليفرض لنا نحن الأمر الواقع الذى نريده.

هكذا نعود مرة أخرى الى الأساسيات الخالدة فى القضية: ليست الدعاية والرأى العام بديلا عن القوة والحرب، ولكنها مكمل ثمين فكيف، نوفق بينهما؟ لتكن أهدافنا ووسائلنا راسخة فى أذهاننا أولا: إستراتيجيتنا العظمى ذهاب إسرائيل، وإستراتيجيتنا هى الحل العسكرى. ولكن لنحتفظ بذلك لأنفسنا

فى تخطيطنا ونضالنا وإيماننا، ثم نحدث العالم حديث السلام واللاعنف بالدعاية الهادئة والاعلام: لتكن الدعاية السلمية – يعنى– هو تكتيكنا.

نفاق ، ازدواجية ؟ كلا، بل درس العدو نفسه، ووسيلته التقليدية، وعلينا أن نحاربه بسلاحه. بل هى لعبة السياسة عامة فى الحقيقة، فالسياسة هى فن مواجهة الحقائق الصلبة العنيفة حتى النخاع بلامغالطة، والديبلوماسية بعدها هى فن طلاء الحقيقة الصلبة بواجهة ناعمة إنسيابية. ومدرسة الصراحة السياسية التى أنشأنا صرحها لابد أن تعتبر عالم المؤامرات والمخابرات والحروب السرية الذى نعيشه.

لنملأ الدنيا حديثا عن الحق والعدل، بل ولنقدم بلاخوف برامج مدروسة للحل السلمى للقضية، تضمن لنا حقوقنا كاملة إذا قبلت، وتضمن للعدو أن يرفضها بأطماعه. كل أولئك ـ كما يفعل العدو ـ كتكتيك ندرك حقيقة قيمته كغطاء لاكبديل عن إستراتيجيتنا العظمى وغير العظمى.

كشف حساب ختامى

وبعد، فما مجال وآفاق «النظرة الجديدة» إلى القضية الفلسطينية التى ظهرت الدعوة إليها منذ النكسة خاصة؟ بغير أن نقصد أنه لم يكن فى الامكان أبدع مما كان، فإن دائرة التجديد والتغيير محدودة، تكاد تقتصر على التكتيك وأسلوب العرض والتقديم، أى الدعاية والإعلام أساساً. أما الجوهر، الأهداف أساساً العظمى والوسائل التنفيذية الفعالة، فلا جديد فيها ـ سوى الفعل. وليس هذا جمودا، ولكنه شرط البقاء.

عدا هذا، وعلى الجملة، فإن باب الإجتهاد مغلق أوشبه مغلق، اما المفتوح على مصراعيه فهو باب الجهاد. غير هذا تراجع لامراجعة. ولن تعود فلسطين بالقلم او بالكلم، ولكنها بحد السيف وحده ستعود: «ماأخذ بالقوة، لايسترد بغير القوة». والذين ينتقدون هذا الرأى ـ هناك منا من يفعل! ـ ويصمونه بأنه دعوة دموية إلى القوة والعنف، وان الحل العسكرى هو منطق

الثار البدائى، ينسون أن العدو هو الذى بدأه، وأن القتال فرض وكتب علينا. وفى الوقت الذى يتيه العدو ويتأله بعسكريته ودمويته ، يتهمنا فى العالم ويتهمنا معه العالم بأننا «شعب غير محارب». إن الحروب فى الخارج، كالثورات فى الداخل، عامل إختزال للتطور المنحرف، وعامل إمتصاص لتراكم الزمن حين يمرض. وما أبعد المدى حقا بين السلام والإستسلام.

الفصل الرابع

بين معركة الدعاية ومعركة الميدان

بعيدا عن التفاؤل الساذج، وبغير إغراق فى المبالغة، يمكن للمراقب السياسى الذى يرصد الموقف العالمى أن يقرر بأطمئنان حذر أن المناخ النفسى الذى تتنفس فيه قضية العرب الكبرى وتتحرك، قد بدأت تحكمه أو تتسرب إليه ضغوط جديدة بعض الشئ وتهب عليه رياح التغيير نوعا. «عصر الجليد» الذى تجمدت فيه القضية طويلا، خداعا وتضليلا، لم يزل على الأفق يربض ويثورى بالتأكيد، إن لم يكن حقا على مرمى البصر، وهم لم يعط مكانه بعد حتى «لعصر مطير» أو «لعصر جفاف» مشرق معتدل عادل، ولكن – لنكمل الاستعارة المناخية ـ لقد بدأ عصر «ذوبان الجليد» إلى حد ما على ما يبدو. ما زلنا إذن، بتعبير آخر، فى «فصل الإنقلاب» بالنسبة إلى الرأى العام العالمى، ولكنا اليوم أقرب ـ على بعدها ـ إلى بواكير وبشائر «فصل الإعتدال» مما كنا فى أى وقت.

ذلك أن النكسة كشفت القناع الزائف الذى اصطنعته الصهيونية وإسرائيل فى العالم، وتعرت حقيقتها العدوانية الغاضبة الإبادية لبعض ممن خدعتهم من قبل بدعاياتها المكذوبة، وبات بعض آخر يشك فى أنها حقيقة تلك الدولة الصغيرة المسالمة التى زعمت والتى تريد فقط أن تحيا ولا يريد لها العرب إلا أن تموت. ورغم رد الفعل العكسى المعادى للعرب الذى سبق المعركة كالهستيريا ثم صاحبها ولحقها مباشرة، فقد بدأ المد ينحسر ببطء وهدوء، وإن يكن فى صعوبة وتردد، وأخذت قطاعات من الرأى العام العالمى أو بالأحرى شرائح من قطاعات هنا وشظايا مبعثرة هناك تعيد النظر وتذهب إلى حد الإدانة العلنية للعدوان وتطالب بإنسحاب المعتدى.

ديجول فرنسا، مثلا، بدأها بأن أعلن فى شجاعته المشرفة وإستقلاليته الشريفة، أن إسرائيل دولة توسعية، وألمح عرضا إلى عنصريتها، وشرع المقاومة العربية مثلما كان هو نفسه قد شرع

المقاومة الفرنسية ضد النازى أيام لم تكن اسرائيل قد ولدت ولادتها الشؤم بعد. ومن أفريقيا تعالت الأصوات، فرديا وجماعيا، تندد وتدين. وسجلت كثير من المؤتمرات فى العالم الثالث وحوض البحر المتوسط نفس النغمة. وفى إيطاليا تجمعت وتحركت بعض المظاهرات التقدمية ترفع الشعارات ضد العدوان الإسرائيلى.

وأخيرا، ولن يكون اخرا، ها نحن نرى وزير خارجية لإسرائيل، لأول مرة منذ ٢٠ عاما، يتسلل من الأبواب الخلفية أو الخفية، متلصص أو هاربا، طوال رحلة فى بلاد الشمال إبتداء من أوسلو إلى استكهلم ولا تصك إلى هلسنكى إلى كوبنهاجن، حتى لا تناله غضبات جماهير الشباب التقدمية الثائرة ولا تصك أذنيه أو تصفع عينيه شعارات «اسرائيل العدوانية التى تتحدث عن السلم وتستعد للحرب» أو «الصهيونية هى النازية» أو «إيبان السفاح» أو أو ... الخ؟

وبدون أن نضع الأشياء أو نصورها فى غير أحجامها الطبيعية، وبغير أن نتورط فى التعميمات الكاسحة الجزافية أو السطحية، فإن من الواضح موضوعيا أن العدو الاسرائيلى الصهيونى يتحرك اليوم فى وسط نفسى وفكرى غير الذى ألف تماما، ويستشعر فى بعض الأركان والدوائر على الأقل برودة العزلة الزاحفة، بل ويصطدم ولو نادرا بعداوات لافحة لم يتوقعها، هو الذى خدّر الرأى العام ونومه مغناطيسيا على مدى سنين طويلة، وهو الذى يدرك أكثر من أى أحد مدى اعتماده على مساندة الرأى العام ودوره فى خلقه وبقائه.

من هنا، لا من هناك، ذلك التوتر والانقباض الذى يحاول أن يخفيه والذى تنم عنه مع ذلك عصبيته المفلوتة من حين الى حين. وحسبنا مثلا أن نرى بن جوريون، عجوز الكهانة والسحر الأسود فى اسرائيل، يخرج من مقبرته السياسية فى سده بوكر ليحذر القبيل ـ القطيع من أن إسرائيل لم تكن بحاجة الى الأصدقاء أكثر مما هى اليوم.

معركة الدعاية:

فى مثل هذا الطقس الوليد، بتحولاته البازغة وبوادره الواعدة، يتعين على الفكر العربى أن يشدد النكير فى مطاردة الدعاية الصهيونية وأن يلعب دوره مضاعفا فى محاصرتها وضربها وتعريتها أمام المواطن العربى والرأى العالمى على السواء. فمعركة الفكر والرأى والكلمة المقاومة تمهد الطريق وتهيئ الجو أمام المعركة الكبرى الموعودة والمحتومة بالسلاح فى الميدان.

ولقد قلنا عمدا المواطن العربى والرأى العالمى، لأننا نعتقد أن وظيفة الفكر فى هذه المرحلة وظيفة مزدوجة: داخليا، أن تستبقى روح النضال وعقلية المعركة ووقدة الحماس وشحنته فى أقصى درجات التأرجح والتوتر والترقب والتصميم، كل أولئك بغير انفعال أو إنفلات أو إرهاق ذاتى مع ذلك. وخارجيا، أن تحافظ على درجة حرارة القضية ساخنة حية فى المحافل الدولية ودوائر السياسة والديبلوماسية العالمية، لا يعتورها فتور أو هبوط أو

إهمال، بل علينا أن نقرضها قرضاً على الضمير والعقل السياسى للعالم، وعلى رأس إهتماماته وهمومه وقائمة مشاكله بحيث لا تسمح له بالراحة إلا حين يفرض هو على نفسه عدالتها وحقوقها فرضا.

بل علينا أن ننمى «عقدة ذنب» عند الغرب عما إقترفه فى حق عرب فلسطين أضعاف عقدة الذنب الابتزازية التى فرضتها عليه الصهيونية، بحسبانه الذى أرغم الغرب على أن يدفع لليهود ثمن خطيئته هو أولا، ثم انحيازه لهم للابقاء على هذه الجريمة ثانيا. ولا ينبغى أن تمنح الغرب أكثر من قيمته أو نظن أنه إذا غضبت عليك بنو أوروبا حسبت الناس كلهم غضابا، فهم أصل الكارثة مباشرة وغير مباشرة. ودعايتنا بينهم يجدر أن تكون هجومية ـ فى رفق وديبلوماسية مع ذلك ـ أكثر قليلا مما هى الآن.

وحين تَمثُل هذه السطور بين يدى القارئ، سيكون قد مضى عشرون عاما كاملة على النكبة ونحو العام على النكسة، كأنما

إجتمعا على ميعاد، وكأن قد تم ولو مؤقتا «تربيع الدائرة» كما يقال. وطوال هذه الفترة نما عند العرب، أو نمى العرب لأنفسهم، شعورا حقيقا بالنقص واليأس ازاء الدعاية الصهيونية بديناميتها النشطة وإندفاعتها وتعبئتها الأخطبوطية الكوكبية، حتى لقد تسلل إلى أعماقنا إعتقاد ـ إنعكس على كثير من أقالمنا ـ بعلمية وعملية وواقعية تلك الدعاية الضارية.

ونحن نود هنا ـ نقول هذا بهدوء ـ أن نتحدى هذا الرأى. فلئن كان المقصود بذلك تفوق العدو فى تكنيكه وتكتيكه، فى وسائله وأساليبه ومؤثراته ومدى انتشاره وتغلغله فى المراكز الحساسة فى كل الأجهزة العالمية، أو فى النجاح الفعلى الذى سجله والنقط والجولات التى كسبها، فذاك ليس موضع تحد أو نقاش قط. وإذا فهم أن هذا دفاع عن قصورنا وعجزنا فى الماضى والسابق عن مناجزة دعاية العدو ومطاولتها، فذاك ليس القصد هو الآخر.

وإنما نقول أن دعاية العدو ناجحة فى الشكل والأسلوب فقط، ولكنها ـ نقول هذا بهدوء مرة أخرى ـ عاطفية، شخصية، غير علمية، غير موضوعية، من حيث الجوهر والموضوع، لأنها إنما تقوم على تزييف الحقيقة ولو عنق التاريخ وطمس معالمه، أى تقوم على الكذب والتزوير والتضليل أساسا. وهذا أمر طبيعى للغاية، لأننا ما دمنا نملك الحق فلا تملك الحقيقة الا أن تكون معنا وحدنا.

والواقع أن دعاية العدو تقدم شكلا ذكيا يناسب رجلا ذكيا متفتحا هو الأوربى العادى، ولكنها موضوعا تعتمد كلية على أنه جاهل بالحقيقة وتعمد الى تجهيله باستمرار والتمويه عليه، ولهذا فأنها فى جوهرها انما «صنعت للأطفال» ! ويمكن بعامة أن نقرر أنه إذا كانت الدعاية الصهيونية تتفوق وتكتسح فى الشكل مدلسة ملفقة فى الموضوع، فإن الدعاية على العكس تتفوق كلية فى الموضوع ولكنها من أسف قاصرة متخلفة فى الشكل.

وحتى من حيث الشكل، يخطئ من يظن أن الكتابات العربية وحدها هى التى تنفعل غالبا وتتهور فى السباب أو تتحدث بلغة العواطف والخطابة الطنانة.. الخ، وهو ما تهاجمنا به دعايات العدو المضادة لتشوه صورتنا وصوتنا فى العالم جملة وتفصيلا. فان من أتيح له أن يطلع على بعض كتابات العدو سيروعه ولا شك ـ عدد ما تطفح به من أكاذيب فى الموضوع بالطبع ـ بذاءة فى الشكل حينا وسباب مقذع أحيانا، وخطابية هوجاء وإستعلاء واحتقار وتحقير للعرب، ثم تهديدات لا تقل رعونة عن أشد ما أخذ على العرب. وقد اعترف كاتب صهيونى ـ ى. حركبى ـبهذا، ودعاه «ضد سامية مقلوبة» وأخذه على زملائه وندد به ـ أيا كانت أهدافه ـ تنديدا شديدا.

أما من حيث الموضوع، فيمكن أن نضعها قاعدة، أولا، أن كل ما نأخذه نحن على العدو ونعده عيوبا أو اثاما واجراما، يعده هو ـ ببساطة ولا نقول بتبجح أو قحة ـ نقطة امتيازه وافتخاره

بالدقة، وثانيا، أن كل ما يسوقه من حجج أو مناقشات وما يوجهه من إتهامات أو إفتراءات للعرب، يمكن أن يرد بحذافيره إلى صاحبه دون أن تختل الحقيقة العلمية شعرة.

وهذا الذى يبدو تناقضا على السطح، يرتد فى الحقيقة الى سبب بديهى ومفهوم، فهم انما ينظرون الى القضية من منظور مناقض تماما للعرب، ويرون فى التاريخ وواقعه رؤية تنسحب على أدق وأصغر تفاصيله، تبدو متسقة متكاملة مع نفسها وفى فلسفتها، ولكنها فى مجموعها مختلة منحرفة إلى درجة لا يكاد يتصورها العقل العربى أو المحايد. ونحن نريد فى هذا الجزء من المقال أن نعرض لوجهة النظر المقلوبة على رأسها تلك، لنعيدها على أقدامها بالمناقشة الموضوعية والجدل العلمى، ولكى نثبت أن دعاية العدو تنطوى على متناقضات تتحدى العقل والمنطق، وأنها تقوم على ازدواجية غير أمينة فى المنطق، فيتبنون منطقا خاصا لقضيتهم ومنطقا آخر تماما للعرب.

وسوف نبدأ أولا بعرض موضوعى لدعايات العدو فى نقاط ثلاث محددة بعينها، هى عملية الاغتصاب، ثم جريمة طرد اللاجئين، ثم علاقة إسرائيل بالاستعمار. وهذا العرض الذى نقتبس فيه العدو بحرية بل وبنص ألفاظه أحيانا، والذى لن نتوقف خلاله كثيرا لنذكّر بأن هذه أراؤه، هذا العرض نرجو ألا يشق مؤقتا على نفس القارئ العربى رغم ما يحمل من سموم وأباطيل تستفز العقل ويغلى لها الدم، فمن واجبنا أن نعرف أسلحة العدو حتى نجرده منها. وهذا بالفعل ما ننتقل اليه بعد ذلك بالتحليل والمناقشة الصارمة من حيث الشكل ثم الموضوع.

اسرائيل والاغتصاب

يصور الصهيونيون دائما المرحلة ١٨ ـ ١٩٤٨ على أنها صراع من جانب اليهود ضد الاستعمار البريطانى، وهو بهذا صراع قومى، تحريرى، ضد ـ استعمارى. فبعد إفلاس السياسة

البريطانية فى فلسطين، قامت دولة اسرائيل على أساس حق «الشعب» اليهودى فى تقرير مصيره وإعلان إستقلاله القومى فى جزء من فلسطين. ولقد كان اليهود يريدون دولة مستقلة، ولكنهم ـ هكذا يصرون ـ لم يقصدوا أبادة العرب. وقد كان كل من العرب واليهود مستعمرين فى فلسطين تحت الانتداب البريطانى، ولم يكن اليهود مواطنين فى دولة أجنبية، بل مواطنين فلسطينيين تحت الإنتداب. وإسرائيل حين نشأت ـ كما ينظر الكاتب الصهيونى روبير مزراحى ـ إنما نشأت عبر إنتداب بريطانى لا عبر دولة عربية.

وفى تصوير العدو أن هذا قد تم خلال صراع بطولى وحرب مسلحة ضد الإستعمار الاجنبى البريطانى، والانتفاضة اليهودية هذه ضد الاستعمار هى اذن أصل تحرير فلسطين كلها، وهى صاحبة الفضل فى إتاحة فرصة الاستقلال للشعب العربى الفلسطينى نفسه أيضا (كذا). بل أن الحركة الوطنية اليهودية

كانت عاملا مساعدا للتفتح العربى، أمنت لهم التطور الاجتماعى والثقافى والاقتصادى، ودفعت بالمنطقة الى الأمام، والثورة اليهودية، لا العربية، هى التى صفت الاقطاع فى فلسطين.

ومن هنا ـ كما يمضى العدو ـ فإن من العبث وصف اليهود فى إسرائيل بأنهم «محتل أجنبى»، فـفلسطين هى وطن الشعب اليهودى تاريخيا، بمثل ما أنها قد أصبحت خلال العصور وطن الشعب العربى، أما الحصة التى تؤول (وآلت) اليه من هذا الوطن المشترك فهى بالدقة إسرائيل. وإسرائيل بهذا ليست «الجزء المحتل من فلسطين» بل الجزء المحرر، بل دولة قومية لشعب يعيش على أرض وطنه. ولا يمكن أن توجه إليها تهمة إستخدام حق الغزو والفتح أو العدوان، «الذى لا شك حق إجرامى يتنافى مع أبسط قوانين العدالة»، لأن اسرائيل بريئة منه، إذ أن العرب هم الذين رفضوا التحرير والإستقلال وبدأوا العدوان.

كيف ولماذا؟ يجيب العدو: العرب، الذين لم تكن الحركة

القومية العربية والانبعاث القومى قد ظهرا بعد فى بدايات الاستيطان الصهيونى فى فلسطين، نما النزوع والوجدان القومى عندهم بعد ذلك. وكان من سوء الحظ هنالك أن تعاصرت فتصادمت ـ كما يفلسف شيمون بيريز مثلا ـ الحركتان: إنبعاثه اليهود. ولو قد قامت اسرائيل قبل الحرب الأولى أو حتى الثانية، لتغير الموقف الآن ولما حدث الصدام (كذا).

وبعد ذلك كان المفروض أن يسعى كل من العرب واليهود فى فلسطين إلى الاستقلال السياسى. ولكن العرب انجرفوا بقوميتهم ضد اليهود وتحول موقفهم وصراعهم الى ضد سامية سافرة، وذلك بدلا من أن يتحدوا مع اليهود ضد الأنجليز المستعمرين. وبذلك إنفصلت الحركة القومية العربية المشروعة عن الحركة الصهيونية «الأخت» بل وانضمت الى أعدائها الطبيعيين من الفاشية فى أوروبا كما يقول دوف بارنير. والذى حرّف إتجاه القومية العربية هذا هو على الترتيب، الاقطاعيون

العرب الفلسطينيون فى الثلاثينات، ثم المحوريون فى الأربعينات، ثم العسكريون في الخمسينات.

ومن هنا فإن العرب هم الذين رفضوا دولة خاصة بهم، ولم يمارسوا، لسوء الحظ، حقهم فى تقرير مصيرهم الذى أعطته الأمم المتحدة بالتقسيم، ولم يبنوا دولتهم على الأرض التى خصصت لهم. وإسرائيل ليست مسئولة عن عجز وفشل العرب فى الإفادة من قرار التقسيم.

وقبل حرب فلسطين، هل أخذت الأرض عنوة من العرب؟ كلا، بل بيعت، كما يرد مزراحى، الذى يضيف أن الادعاء بأن أفضل الأراضى هى التى اشتراها اليهود إدعاء خاطئ، وإلا فمن الذى جفف المستنقعات وزرع التلال الجرداء، من سوى اليهود بأيديهم إستصلاحا وزراعة ؟ وينتهى نفس الكاتب الى أن الملاك العرب إذن هم الذين باعوا أراضيهم والعرب عامة «باعوا وطنهم». ثم فى حرب فلسطين ١٩٤٨، كان العرب هم الذين بدأوا بالعنف،

وهم يعملون على «تزوير التاريخ لتحميل اليهود بالمسئولية»، لاسيما فى قصة أو قضية اللاجئين.

والآن، وبعد هذا كله، فحين يطالب العرب بزوال اسرائيل وبحرب التحرير، فليست حرب تحرير هى، بل «حرب ثأر». وهى تنبع من «حقد غير خاضع للمنطق». «وشوفينية غبية»وعنصرية ورجعية تؤلف مركب «اللاسامية العربية» التى تمتزج بالاسلام وبالتعصب الدينى المقيت (كذا). والصراع الذى يفرضه العرب هو صراع دينى، وحرب بين اليهودية والاسلام، من نمط الصراع الهندى ـ الباكستانى حول كشمير وليس من نوع صراع الهند ـ جوا مثلا الذى هو صراع ضد جيب إستعمارى.

والآن، وبعد هذا كله، فإن تصدى إسرائيل لهذا الصراع هو حرب دفاعية وقائية، وجيشها هو جيش «الدفاع» الاسرائيلى، وموقفها منذ ١٩٤٨ الى ١٩٦٧ هو «حرب إستقلال» عن

الإستعمار البريطانى، و «حرب تحرير» من «دنس» الاحتلال العربى، وتوسع يونيو ١٩٦٧ إنما كان فى «أراضى محررة» لا «أراضى محتلة» كما حدد أشكول، وضم القدس العربية لم يكن سوى «توحيد» للمدينة المقدسة (كذا).

إسرائيل واللاجئون

فأما خروج اللاجئين فقد بدأ ـ هكذا يقرر الصهيونيون ـ بتوصية قادتهم الرجعيين، إما خوفا من إنتصار اليهود أو طمعا فى العودة «لالقائهم فى البحر». وفى الحالة الأولى، فالحرب إنما بدأها العرب، وفى الحالة الثانية، فليس اليهود بمسئولين. بل يضيف أحد الكتاب الاسرائليين ـ إفرايم تارى ـ أنه اذا كان قادة العرب هم الذين أعطوا إشارة البدء بالخروج والرحيل، وكان بعض اليهود «فى الأقل» شجعوه، فإن البعض الآخر «حاول أن يمنع العرب من الرحيل»..

تشريد العرب إذن لم يكن نتيجة عدوان اسرائيلى، بل نتيجة عدوان عربى ١٩٤٨ ضد إسرائيل. واذن فتجريم اليهود بتحميلهم مسئولية فرار العرب هو تحميل الضحية مسئولية العدوان، وإذن فالمسئولية على العرب وحدهم. ومن الناحية العلمية، فلا شك أن اللاجئين مأساة حقيقية، وعار، ولكنه عار على العرب لا على إسرائيل، وعنف غير مشروع فرض على العرب من قبل العرب لا اليهود، وهم المسئولون عن الآلام التى لحقتهم وحالتهم من صنع أيديهم الى حد بعيد. وليس على إسرائيل أن تهتم باللاجئين أكثر مما يفعل العرب (مزراحى). بل ان العرب ليتخذون من اللاجئين «عاهة» (كذا) فى الميدان الدولى.

والواقع أن السياسة الرسمية الإسرائيلية إزاء اللاجئين إتبعت بالفعل خطا متطورا إنتهى الى تبنى تلك النظرية تماما. ففى الخمسينيات عرضت إسرائيل إعادة نسبة هزيلة من اللاجئين بشرط التنازل عن قطاع غزة. ثم عادت تربط ذلك بالاعتراف

والصلح، وأصبح الشعار العلن «لا عودة إلا بعد الصلح»، وأن ليس ثمة مشكلة لاجئين، المشكلة الوحيدة فقط هى السلم: إعقد سلما، تحل مشكلة اللاجئين !

ولكن لما كانت العرب تصر حينئذ على ألا مقاوضات إلا بعد العودة، فقد أصبح الشعار الرسمى منذ حرب السويس هو «لا لاجئ واحدا» ، إذ أن تجربة الدولة ذات القوميتين تجربة فاشلة كما تثبت بلجيكا وقبرص .. الخ. والمطالبة بعودة اللاجئين هى «صهيونية مقلوبة» (مزراحى) ، وهذا أمر مستحيل (شيمون بيرين) ، وهى ليست مقصودة «للنوايا الحسنة، بل لإلحاق الضرر بإسرائيل ، ووضعها وسكانها فى موضع الخطر» ، لأن تزايد العرب الخطر يفجر إسرائيل من الداخل، وهم فى الحقيقة لا يريدون إلا «تفجير إسرائيل من الداخل تحت وطأة العدد» . «واسرائيل لا يمكن أن تقبل عودة اللاجئين أو حتى جزء منهم، دون أن تعرّض نفسها للخطر، ولا يقبل به أى مسئول فى إسرائيل» (افرايم تارى) .

ثم ماذا؟ ثم ان العرب ـ هكذا يعلن العدو ـ إذ يطالبون باعادة اللاجئين على أساس قرارت الامم المتحدة ١٩٤٨ ، فهل ينسون أنهم إقترعوا ضدها بينما صوتت إسرائيل معها ؟ وعلى أية حال «ففى كل حرب تحرير يحدث عنف وضحايا ولاجئون.. فلا لوم علينا أخلاقيا. ولو كان العرب إنتصروا لألقوا بنا فى البحر». ومشكلة اللاجئين على العموم، فضلا عن ذلك، مشكلة عالمية، والهجرات الجماعية القسرية عرفت أخيرا بالملايين: ١٥ مليونا بين الهند والباكستان، ٩ ملايين ألمانى، تركيا واليونان.. الخ. فلماذا تُدان اسرائيل وحدها؟.

ما حدث إذن هو مجرد «تبادل سكان» بين لاجئين عرب من إسرائيل ولاجئين يهود من الدول العربية: ٦٠٠ ألف عربى تركوا إسرائيل، واستبدلوا بعدد يكاد يماثلهم من اللاجئين اليهود الذين طردوا من البلاد العربية. وعلى كل، وأيا ما كان، فالعرب الفلسطينيون مستوعبون فعلا داخل البلاد العربية. ثم

هل العرب بحاجة الى أراضى؟ (بيريز). إن اللاجئين الفلسطينيين لا يمثلون سوى ١ ٪ من العرب، وهناك أراض شاسعة فى سوريا والعراق تحتاج الى الأيدى العاملة (تارى).

إسرائيل والاستعمار

كيف تنظر إسرائيل الى نفسها وطبيعتها كدولة ؟ هنا، مرة أخرى، لن يتصور القارئ العربى مدى التحريف وقلب الحقائق، ولكنا نترك التعليق والتفنيد ـ كما إتفقنا ـ إلى حين، وندع الدعاية الصهيونية تكشف نفسها بنفسها، وبألفاظها ما أمكن.

يقول الصهيونيون «إن الامبريالية البريطانية نالت الانتداب على فلسطين بذريعة واهية هى اقامة الوطن القومى اليهودى، أى أنها اتخذت من اليهود حجة لتستولى على فلسطين، وبعدها خلقت التعارض وعمقته بين العرب واليهود لكى تسود» ويضيفون «إن الانجليز كانوا متحيزين للعرب طوال الوقت ضد

اليهود»، كما يتمثل خاصة فى تحديد الهجرة ومنعها أحيانا، وكما يتمثل فى منع بيع الأراضى فى حالات. هناك اصطدم اليهود بالانجليز، فكان صراع قومى تحريرى ضد - إستعمارى، إنتهى بأنهم حرروا فلسطين من الامبريالية البريطانية.

أكثر من هذا، لقد حاربتهم بريطانيا بعد ذلك فى الأمم المتحدة، وشجعت العرب على حرب ١٩٤٨. فإسرائيل إذن ولدت من صراع بطولى ضد سيطرة الاستعمار، «هذا بينما لم يخض العرب طوال تلك الفترة أى معركة ضد الانجليز» (كذا). فضلا عن هذا فحتى الولايات المتحدة «عارضت مشروع التقسيم وحاربته»، «وحاربت توسيع حدودها ومنعت عنها السلاح أثناء الهدنة». ولهذا فليست اسرائيل إستعمارا بحال، «ومن تزييف التاريخ أن يقال أن الامبريالية هى التى أنشأت دولة اسرائيل، الحقيقة عكس ذلك تماما، والقول بأنها من صنع الاستعمار تزوير للتاريخ وقح ومعيب» و «اعتبار الصهيونية نوعا من الاستعمار تزوير أكيد، وأن الصهيونية حركة استعمارية تجديف أو هرطقة

ليس إلا» . «ويهـود فلسـطين طردوا الاسـتعـمـار البـريـطانى من فلسطين، فـهل هـذه خـدمـة للاسـتعـمـار وتـعـاون مـعـه أم حـرب عليـه؟» (دوف بارنيـر) . و «اذن فمن المحـال الطعن فى وجـود دولة اسرائيل، وفى حقها فى الوجود» .

أما اتهام العـرب بأن اسرائيل صنيعة استعمارية بنتها وتبنتها الامـبـريـالية ، فـانما هـو «غـبـاء وشـوفـيـنية» . لماذا؟ لأن عـمـلاء الاسـتعـمـار ـ هـكـذا يمنطق العـدو ـ مـعـناه أن يحكمـوا طبـقـات إجتماعية مـستغلة ، وهـذه الطبقات تتصارع ضد مسـتغليها، بينما ليس فى اسرائيل طبقة مستغِلة ومستغَلة. فى البلد المستعمر، الوطنيـون يعملـون ولا يملكون، المسـتعـمر وحـده هـو الذى يملك ولا يعـمل، ولكـن اليـهـود فـى اسـرائيل يملكـون ويعـمـلـون .. الاستعمار ينتج بروليتارية زراعـية ، وليس بروليتارية صـناعية ، فأين هـذا من اسـرائيل؟ وإذا كانت اسـرائيل دولة إسـتعمارية ، فـأين هـم المسـتعـمـرون «بالفـتح» ؟ أين فـائض الربـح والاسـتـغـلال وزراعـة

المحصول الواحد، الهامشية الاقتصادية والانتاج الأولى ومحاربة التصنيع والاعتماد على المتروبول فى استيراد المصنوعات .. الخ؟

ثم يمضى منطق العدو فيقول إنه قد يمكن إنكار الصهيونية كايديولوجية قومية يهودية - وهناك من يفعل بإطراد داخل إسرائيل - ولكن لا يمكن إنكار حق شعب فى إنشاء دولته الوطنية بحجة إيديولوجية. فوجود الصهيونية لا يعطل شرعية وجود اسرائيل. لا، وليست اسرائيل ثمرة العنصرية أو تجسيدا لها. فكيف يستقيم هذا وهى نقطة تجمع لليهود الهاربين من الإضطهاد والقتل والنازية؟ وإذن فهى ليست من آثام العنصرية بل تكفير عنها وتعويض، إنها من ضحايا العنصرية، وهى لهم ملجأ.

هل إسرائيل، بعد هذا ، قاعدة للامبريالية؟ يرد العدو بأن إسرائيل أكثر الدول إستقلالا وتقدما، وليست عضوا فى حلف عسكرى، وليس فيها قواعد لأحد، وإقتصادها لا يخضع

للمصالح الخارجية ولا لإحتكار أجنبى. وهى اذا كانت تتلقى مساعدات وقروضا من الغرب وأمريكا، فإذن وجب أن يقال أن عشرات من الدول فى كل العالم هى قواعد أمريكية وامبريالية. كذلك فليس هناك تغلغل إسرائيلى فى افريقيا، فهى لا تملك رؤوس الأموال لذلك، ووزنها الاقتصادى فى أفريقيا يكاد يكون معدوما، وكل ما تُقدم هى الخبرة والتكنولوجيا. وإلى هذا، فإن اسرائيل تنفذ بدقة قرارات الدول الافريقية ضد التمييز العنصرى فى جنوب القارة (كذا).

ثم حتى اذا فرضنا جدلا أن اسرائيل ضالعة مع الامبريالية، ليكن! لكن هذا لا يطعن فى حقها فى الوجود، «ونحن نرفض إتهام دولة وشعب كامل بالإصطناعية لأنه قاعدة استعمارية» وإلا لكانت كل دول غرب أوربا إصطناعية لانها جميعا قواعد لامريكا.. وعدا هذا، فقد إنتهجت اسرائيل سياسة الحياد بين المعسكرات حتى الحرب الكورية .. ولكن، وأخيرا، فإن عداء العرب لاسرائيل هو الذى يدفع بها الى أحضان الغرب (كذا).

تناقضات ومنطق مزدوج:

ذلك العرض واف، فيما نظن، لوجهات نظر دعاية العدو، أما عن الامانة العلمية فقد تعمدنا أن نقتبس حرفيا أو بالمعنى فى أغلب الأحوال، كما آثرنا ان نتجنب علامات التعجب والاستنكار، لا إشفاقا على العلمية فقط ولكن على رجل المطبعة أيضا! وقد آن لنا أن نضع هذه المرافعة تحت المجهر والمبضع معا، بلا هوادة ولكن بلا مهاترة.

ونبدأ بالشكل، فنذكر - عابرين، فالقارئ لاشك قد اكتشف هذا لنفسه - أن لهجة الدعاية الصهيونية ليست فوق المستوى كما يتصور الكثيرون «ونحن منهم» وأنها أحفل أحيانا بالسباب والافذاع من بعض كتابات العرب المفترى عليها غالبا وإن كنا لا نبرئها «ولا أبرئ نفسى» دائما. ولكن المأخذ الاساسى على الشكل فى الدعاية الصهيونية هو ازدواجية المنطق، العارية أحيانا، التى تورطهم فى سقطات وتناقضات فجة وفاضحة تنسف كل

علمية أو عقلانية مزعومة. وكمجرد عينات فقط من هذه السقطات التى تتردى فيها الدعاية الصهيونية وتفضح وجهيها، خذ مثلا موقفهم من الأمم المتحدة. يقول الصهيونيون دائما دفاعا عن «شرعية» وجودهم، إن الامم المتحدة إعترفت وتعترف بهم.

وبغض النظر هنا عن «شرعية» هذا الإعتراف، الباطل، الإبتزازى، الظالم فى ذاته اصلا، فانظر كيف يرى أبا إيبان الأمم المتحدة بعد أن أدانت إسرائيل العادية أخيراً فى معركة الكرامة بالأردن.

لقد أعلن بكل سفور وتحد أن الأمم المتحدة «ليست هيئة قضائية، بل هيئة سياسية»، يعنى أنه ببساطة يشكك فى نزاهة وينكر صلاحية الهيئة التى يحتجون بإعترافها ويكاد يسحب إعترافه بها ! ألم تكن الأمم المتحدة هيئة سياسية لاقضائية حين إرتكبت اكبر خطيئة سياسية وخطأ قانونى فى التاريخ عام ١٩٧٤ ؟

مثال ثانٍ عن إزدواجية المنطق الصهيوني. يتقدم كثير من الصهيونيين متبرعا بالنصيحة للعرب، لعلهم أن يكفّوا عن المقاومة، قائلا هذا عصر العمل والتقدم، عصر التنمية والتطور لاعصر الأمجاد التاريخية ولعواطف الوطنية أوالمفهوم «الرجعى» للشرف والكرامة القومية. حسناً، ولكن لماذا ينسى الصهيونيون ولايريدون أن يفهموا أيضا أن هذا عصر العمل والتقدم، فينصرفون الى التنمية والتطور فى حياتهم التى ورثوها وألفوها قرونا فى أوروبا، ويكفون عن الحديث عن العواطف اليهودية والبكائيات العبرية ودموع المبكى والأمجاد التوراتية ؟

ومرة أخرى يستعمل الصهيونيون منطقاً خاصاً لهم ومنطقا آخر للعرب، حين يقول العرب - وهذا أضعف الإيمان - ما الذى يضمن لنا ألاتتوسع إسرائيل وأخطارها، وهاهى - إن كنا بحاجة إلى دليل - دورات التوسع والغزو والعدوان تترى وتتلاحق بالفعل من ١٩٤٨ الى ١٩٥٦ الى ١٩٦٧، بينما يعلن اكبر

مسؤول رسمى فى إسرائيل جهارا عن هدف «إسرائيل الكبرى» من النيل إلى الفرات.. فيرد الشيوعيون الإسرائيليون، وهم شكلياً الأقل مزايدة، ليس للعرب أن يخافوا من تجدد الروح العسكرية والعدوانية الاسرائيلية، لان «كل وقصارى ماانتمناه هو السلام والتفاهم» «إقرأ: الاستسلام والخضوع»، «بل يمكن عقد معاهدة دفاع مشترك حينئذ» (كذا!)

والآن، حين نقول ويقال للصهيونيين أنه لاخطر من الإضطهاد فى أوروبا، وقد إنتهت أيام ضد السامية منذ أمد والى الأبد، وحل «القضية اليهودية» انما هو فى الإندماج والذوبان والعودة إلى أوروبا الأم التى هى «أرض الميعاد» الحقيقى للإسرائيليين، حين نقول هذا يصرخون على الفور: ما الضمان؟ :«من يضمن لى، هكذا مثلا يتساءل دوف بارنير، ألاتحدث مجازر جديدة والأتتجدد الإضطهادات؟ إن إسرائيل مظلة وضمانة» ولماذا ننتظر حلا أوروبيا قد لايتحقق فى ظل الديموقراطية الليبرالية، وقد يطول انتظاره فى ظل الإشتراكية؟.

وهذا مثال آخر لنفس الشرخ المنطقى الذى يعتور الدعاية الصهيونية حتى التفسخ، فعن هدف العرب كحق شرعى بحت فى إستعادة وطنهم السليب وإزالة الوجود الغاصب، تتصايح الصهيونية ومهيجوها بأن «من ينصرف عن المطالبة بالحق الشرعى لشعب مظلوم إلى إنتقاص من الحق الشرعى لشعب آخر، إنما يأخذ موقفاً شوفينياً، عنصرياً، رجعياً، وهمجياً»، «وحق تقرير المصير (يقصد للعرب) إذا أضر بالغير (يقصد إسرائيل) فهو شوفينية وعنصرية كذلك حتى إذا إستعمل ألفاظاً تقدمية ضد - إمبريالية».

والسؤال الآن: أليس هذا تماما ماحدث عام ١٩٤٨؟ ألم تكن الصهيونية منصرفة عن المطالبة لليهودية العالمية المظلومة بحقها الشرعى فى الإندماج والمساواة والتحرر والمواطنة الكاملة حيث هى، فى بيئاتها وأوطانها الطبيعية فى أوروبا وأمريكا، إلى الإنتقاص من الحق الشرعى لشعب آخر هو عرب فلسطين، بل

إلى الإنتقاض والإنقضاض عليه تماما وتدميره وتشريده ؟ أليس ذلك قمة العنصرية ، الشوفينية، الهمجية ، الرجعية؟ وإلا فماذا يكون...؟

وأخيراً، إعتبر موقف اسرائيل والصهيونية من اللاجئين. تروج دعاية العدو فى العالم أن العرب قد أصبحوا يستخدمون اللاجئين «كعاهة» سياسية، يستدرون بها الدموع ويتسولون الشفقة والتعاطف أو التأييد السياسى، ويستبقون بها الصراع ويشحذونه.. الخ. وليس صحيحاً ذلك بالقطع، والعرب أصحاب حق ولن تعوزهم القوة يوما ما، ولكن التناقض والإزدواجية فى النظرة الصهيونية «هل نقول العوراء؟» إنما تتبلور حين نلتفت إلى كل قضيتهم المزيفة فى العالم أجمع.

لقد إستثمرت الصهيونية إضطهاد اليهود واستغلته أبشع وأخس استغلال فى سبيل التسول والابتزاز والتشهير والتهديد، وإتخذت من ضحايا النازية وآلام من نجوا منها أكبر «عاهة»

حقيقة فى التاريخ جميعاً. وهذه العاهة هى الورقة الرابحة التى يلعبون بها فى كل مجال إبتداء من البكائيات والاستجداء بالمليارات والطائرات والجبايات والتبرعات إلى الابتزاز والتهديد باللاسامية والمطاردة والقتل. إن هذه العاهة ـ المفتعلة جزئياء المضخمة دعائيا ـ هى بحق «المبكى» الجديد الذى تحول الى «بنك» لاقرار له.

منطق تبرير ، وأكاذيب

تلك إذن مجموعة من تناقضات الدعاية الصهيونية الصارخة، التى تقيس بمقياسين وتكيل بكيلين فتبدو بوجهين، مما ينفى عنها أى صفة علمية موهومة، ويصمها بالازدواجية وعدم الأمانة من حيث الشكل. فإذا ماتقدمنا إلى انحرافات الرؤية الصهيونية لحقائق الموقف من حيث الموضوع، فسنجد أن سلسلة التحريف والتشويه تبدأ في الواقع من فجر التاريخ العبرى، غير أننا سو

نقصر انفسنا هنا أساسا على بدايات إسرائيل فى فلسطين المحتلة. وسنرى أن الصهيونية تصور الأحداث منذ ١٩٤٨ تصويرا مقلوبا الى درجة مروعة جديرة بأن تصدم العقل، ولكنها لاتصمد له.

فأولا وأصلا ليست فلسطين «وطنا تاريخيا» لليهود، ضيعوه ولكن لم ينسوه كما يزعمون، لان وجودهم فيها انقطع كلية منذ ٢٠٠٠ سنة، وقبل ذلك لم يدم إلافترة قصيرة للغاية أغلبها إنقضى فى الواقع منذ نحو ٤٠٠٠ سنة، وقبل ذلك جميعاً لم تكن فلسطين وطن اليهود الأصلى بل كانوا دخلاء عليه غزاة. فلا هو إذن وطن أصلى ولاهو وطن تاريخى، لاهو وطن أب أو أم ولاهو وطن بالتبنى، هو فقط وبالتحديد إحتلال عابر، كاحتلال إنجلترا لأجزاء من غرب فرنسا بضعة قرون فى العصور الوسطى ثم طردها منها. فالقول اليوم بعلاقة بين اليهود وفلسطين هو ادعاء تاريخى خاطئ ولااساس له من العلم.

ولكن لايقل خطورة عن هذا، القول بأن هناك علاقة بين يهود اليوم واليهود الذين خرجوا من فلسطين منذ ٢٠٠٠ سنة. فالثابت عمليا أن يهود الخروج ذابوا فى الشتات تماما دمويا ودينيا، بالتزاوج والتحول، ويهود اليوم هم نسل متحولين الى اليهودية وليسوا من سلالة بنى اسرائيل التوراة، ليسوا ساميين بل أوربيون أو أمريكيون من سلالات ألبية ونوردية وسلافية... الخ. وحين يدّعون أرض فلسطين اليوم، فهى مطالبة غرباء أجانب تماما بأرض لم تطأها قط أقدام أجدادهم بالدم، تماما كما لوإدعاها اليابانيون مثلا أو الاسكيمو!

فاذا ماعدنا الى ١٩١٨، فليس صحيحا أن بريطانيا نالت الإنتداب على فلسطين بحجة إقامة الوطن القومى اليهودى، وإنما إنتزعته - كالعراق مثلا - كجزء من مطامعها الامبريالية فى المشرق العربى التى هى بدورها جزء من أطماعها الامبريالية فى السيادة العالمية. وقد رتبت بريطانيا لابتلاع فلسطين فى

سايكس بيكو السرية ١٩١٥ ، بينما لم ترتب لوعد بلفور إلا فى ١٩١٧ ، وهكذا وحده يكشف تلك المغالطة التاريخية الفجة. أما الصحيح فهو أن الإستعمار البريطانى أقام الوطن القومى اليهودى فقط بقوة وجوده وتسلطه أما لماذا فكصفقة إمبريالية بين قوة إستعمارية «بريطانيا» وعميل إستعمارى «الصهيونية» ثمنا لخدمات وتبعية سابقة. ولو لم تكن بريطانيا تحكم أو تتحكم فى فلسطين لما أعطت وطنا قوميا أو غير قومى لليهود فيها. ولو قد أرادت بريطانيا أن تنال الانتداب وتستولى على فلسطين دون أى مشروع لوطن أوحجة بوطن قومى يهودى لنالته ولاستولت عليها. أما الزعم بحجة اوذريعة يهودية، فغرور عريض لايصدر إلا عن عقلية معقدة متضخمة الذات مجنونة بالأهمية الذاتية. Self - important

وإذن ، فالوطن القومى اليهودى إنما هو الذى قام بذريعة الإنتداب البريطانى الواهية، لاالعكس كما تزعم الصهيونية.

ونقول بذريعة واهية ـ نفس التعبير الصهيونى المستخدم ـ لأن الانتداب لايعطى حقا أى حق فى التصرف فى الوطن اطلاقاً، والأمر لذلك لايخرج عن أن «من لايملك أعطى من لايستحق»، إن مغتصبا أكبر أعطى من الباطن لمغتصب أصغر تابع له وعميل، والإثنان لصوص دوليون.

بعد هذا، فليس صحيحا كذلك أن إنتداب الاستعمارى البريطانى هو الذى خلق التعارض وعمّقه بين العرب واليهود ليسود. عمّقه، إستغله، نعم، فتلك أصلا استراتيجيته العظمى فى تخريب المنطقة بجلب عناصر أجنبية دخيلة تماما، أما أنه خلقه، ففقط بمعنى أنه جلب الدخيل، أما الصراع والتضاد والتصادم فقد كان أمراً محتوما فى ذاته منذ وصل اليهودى الدخيل بفعل أوبغير فعل الإستعمار البريطانى، لأن وجود هذا نفى لوجود ذاك، ويستحيل تواجد الاثنين معا سواء فى وجود طرف ثالث او بلاوسيط .

أما أن الاستعمار البريطانى كان متحيزا للعرب، فأكذوبة صارخة رخيصة تستهر بالتاريخ مثلما هى سخف مسف فى إستهتاره بالعقل. وإبتداء ، فان بريطانيا أخذت جانب اليهود منذ اللحظة التى أعطتهم فيها حقا فى فلسطين، وكان من المستحيل بعدها أن تنحاز إلى العرب مهما فعلت. فبريطانيا هى التى فتحت باب الهجرة اليهودية على مصراعيه، وصراع ومقاومة العرب الضارية لها، هى وحدها التى أرغمتها من حين إلى حين على مواربته قليلا. وبريطانيا، التى عينت يهوديا صهيونيا كأول مندوب سام - هى التى فرضت بالقوة والقهر كل التشريعات التى نقلت ملكية الأراضى من العرب الى اليهود.

ويعدد الكاتب الفرنسى اليهودى غير الصهيونى ماكسيم رودينسون الأدلة القاطعة على تفنن سلطات الانتداب فى التحايل الفقهى والتخريج القانونى (= اللاقانونى) لتوسيع دائرة الهجرة وبيع الاراضى طوال نحو ٣٠ عاما، كما يورد البراهين الدامغة

على إستعمالها التعسفي المتحيز للقوة الباطشة الغاشمة من قتل وسجن وتعذيب للعرب وحدهم دون اليهود خلال ذلك كله، وخلال مقاومتهم لذلك كله [1]. وبريطانيا هى التى خلقت لليهود دولة حقيقية داخل الدولة (الوكالة اليهودية)، بل فوق الدولة، ووفرت لها كل مقومات القوة علنا وخفية.

ولم تصطدم بريطانيا مع اليهود إلا حين فرض هؤلاء الصدام عليها، لالشئ إلا من أطماعهم الجشعة وشراهتهم - بعد أن اشتد ساعدهم بتواطؤ بريطانيا بالدقة - تجاوزت خطط بريطانيا ومصالحها نفسها. فقد كانت تريد إقتسام فلسطين مع اليهود، ولكن هؤلاء كان قد نفذ صبرهم الحاقد وكشفوا عن حقيقة نواياهم الافتراسية المبيتة، وأرادوا الانفراد وحدهم بفلسطين، وأن يتحولوا من دولة داخل الدولة، إلى دولة بدل الدولة. اى ان

(١) ماكسيم رودينسون، «إسرائيل، حقيقة استعمارية»، ترجمة الاستاذة أميمة ابوالنصر. مجلة الكاتب، أغسطس - نوفمبر ١٩٦٧ .

اللصين لم يتصادما إلا حين إختلفا على تقسيم الغنيمة، وإنتهت بذلك شركة التواطؤ بين المستعمر الكبير والمستعمر الصغير، وهى الشركة التى كان كل من الطرفين يتخذ من الآخر وسيلة إلى غاية واحدة هى إغتصاب فلسطين.

من هنا فإن حرب العصابات التى شنها اليهود على الانجليز كانت حرباً إستعمارية بين قوتين إستعماريتين على أرض مستعمرة واحدة، ليرث اليهود المستعمر والمستعمر معا، الإنجليز والعرب كليهما.. حقا ذلك صراع ضد إستعمارى، كما تفاخر الصهيونية، ولكنه ليس قومياً تحررياً، وانما هو نفسه صراع إستعمارى فى ذاته وإن يكن ضد - إستعمارى، من نوع صراع النازية والفاشية ضد الإمبريالية البريطانية والفرنسية فى الحرب الثانية حول إعادة اقتسام مائدة الاستعمار العالمى ليس الا. بل بالأحرى والدقة كان تمثيلية صراع مفتعل بين إستعمار وإستعمار، لأن مقاومة الانجليز لليهود كانت تمويهاً وتغطية

شكلية لخطة مبيتة لتسليم فلسطين لهم كاملة بعد أن أفلست سياستها فى الإحتفاظ لنفسها بجزء منها وعجزت دون ذلك.

وإسرائيل بهذا لم تقم خلال صراع بطولى ضد الاستعمار، وإنما عبر تواطؤ بخس ورخيص معه. ومن التزييف الردئ الزعم بأن بريطانيا ـ أو أمريكا فى هذا الصدد ـ وقفت بعد ذلك ضد إسرائيل فى الأمم المتحدة، فهاتان هما اللتان فرضتا التقسيم فرضا بالضغط والمناورة على الأمم المتحدة، وهما اللتان فرضتا خدعة الهدنة وسلحت عصابات إسرائيل خلالها لتضمنا إنتصارها على العرب. وخيانة قيادة بريطانيا لبعض الجيوش العربية هى التى عملت عمدا على تسليم النقب وإيلات وأجزاء اخرى من فلسطين لليهود بلا رصاصة واحدة. وبريطانيا لم تشجع العرب على الحرب ضد اليهود فى ١٩٤٨ ، بقدر ماغررت بهم الى مصيدة أعدتها للإيقاع بهم. وإذا كانت بريطانيا قد عارضت خطط توسع اليهود بعد ذلك، فإنما لتحتفظ بموقعها هى فى الأردن التى كانت خاضعة لها حينذاك.

فى ضـوء هذا كله، يتكشف المزيد من أكـاذيب الصـهـيـونيـة وأضـاليلها وأباطيلهـا. فمن التلفيق المذهل أن يقال أن كـلا من العرب واليهود كانوا مـستعـمرين تحت بريطانيا. وانما الصحيح أن العرب كانوا مستعمرين تحت بريطانيا وتحت اليهود، فى ظل «إستعمار ثنائى» يعنى، إستعمار من أعلى واستعمار من أسفل، إستعمار من الظاهر وإستعمار من الباطن، فلم يكن اليهود إذن مـواطنين فلسطينيين تحت الانتداب كـمـا يزعم مـزراحى، بل مهاجرين دخلاء غرباء مفروضين تحت سيف الإنتداب.

والدعوة الصهيونية بعد هذا إلى إتحاد العرب مع اليهود ضد الإنجليز ليست دعوة فاجرة فى قمة الصفاقة والختل فحسب، بل وفى الإستخفاف بالعقل أساسا، لأن هذا كلام له خبئ معناه ليست لنا عقول، إذ أنها دعوة سفيهة لاتخجل إلى الإنتحار، بل وإلى الكفاح من أجل مجرد وإلى الكفاح من أجل مجرد أستبدال الأستعمار بأستعمار من نوع آخر، بل أستبدال استعمار سكنى

بأستعمار إستراتيچى.... إستبدال الاستعمار باستعمار من نوع آخر، بل إستبدال إستعمار سكنى بإستعمار إستراتيجى، أى إستبدال إحلال بشرى أبدى يسرق الوطن إلى الأبد بإحتلال عسكرى عابر مؤقت يسرق الإستقلال إلى حين، أى محاربة العبودية السياسية مؤقتا مقابل إنتحار الجنس نهائيا.

وحين تحرك العرب، فليس صحيحا أنهم تركوا الانجليز وحاربوا ضد اليهود، بل حاربوا فى الجبهتين. فسجل فلسطين الانتداب، سجل لاينقطع من الثورات الدامية على سلطة الإستعمار، ولم تكد تخلو منها سنة، وبعضها سجل أطول إضراب عام عرفة التاريخ الحديث ربما (١٩٣٦)، وسقط آلاف الشهداء والضحايا برصاص الإنتداب. أما ضد اليهود، فلم يكن صراعا ضد القومية «الأخت» (!)، ولا كان «ضد سامية» فى اى معنى. أولاً لأن اليهود ليسوا قومية بأى مفهوم، ولن يكونوا ، بل مجرد طائفة دينية. فكان الصدام فى فلسطين هو بين القومية العربية وبين الطائفية اليهودية، وليس بين قوميتين أصلاً، فضلا

عن قوميتين «أختين» كما يذهب التعبير الصهيوني الفاجر! وثانيا لأن كلمة ضد السامية خدعة أخرى، فهى إسم على غير مسمى، لأن اليهود اليوم ليسوا ساميين بحال كما رأينا. فاذا كان المقصود «ضد يهودية»، فذاك غير مقصود لانه مفروض على العرب بحكم أن العدو هكذا جاء، والصراع من وجهة العرب ليس تعصبا دينياً ولاحربا صليبية أومسالة إسلامية ضد يهودية. أما الصواب الوحيد فأن يقال «ضد استعمار» ببساطة.

ومن السخرية المخزية حقا أن يتساءل داعية صهيونية قائلا، لقد عاش العرب واليهود فى التاريخ فى صداقة وإخصاب متبادل وتعاون، فلماذا لايستمر هذا اليوم مع إسرائيل؟ ونحن نقول نعم، لقد عاش اليهودى فى الماضى بين العرب ضيفاً، وضيفاً مكرماً، ولكنه اليوم ينزل على بيتهم لصاً، غاصباً، قاطع طريق، والضيف يكرم ولكن هل للص إلا المطاردة والعقاب؟

بل إن التهمة الصهيونية الموجهة إلى العرب أكثر فى مغالطتها سخرية مما يظن الكثيرون. فالصراع الذى حدث بين العرب

واليهود كان فى حقيقته «ضد سامية صهيونية» لأن العرب هم وحدهم الساميون، وعدوان الصهيونية عليهم كان هو الشكل الوحيد السليم لإصطلاح ضد السامية! وفي هذا الصراع لم ينضم العرب إلى الفاشية أعداء «السامية» (بمعناها الخاطئ المزعوم)، وإنما إنضم الصهيونيون إلى كل الاعداء الطبيعيين والتاريخيين للعرب إبتداء من العثمانية قديماً إلى بريطانيا إلى الولايات المتحدة حديثا.

وخلال هذا الصراع لم يبع العرب أراضيهم ووطنهم. فحتى النكبة ١٩٤٨ لم يزد مجموع ملكيات اليهود عن ٥,٦ ٪ من أراضى فلسطين الزراعية، أقلة إشترى بالابتزاز والطرق الملتوية، وأغلبه عملية نزع ملكية عامة بالإحتيالات القانونية. واما حين قامت الحرب فى ١٩٤٨ فليس أكثر صحة ان العرب هى التى بدأت العنف، وإنما العنف والحرب بدأها اليهود عام ١٩١٨، وغير هذا - اذا اقتبسنا لغة الصهيونية المهذبة - هو «التزوير الوقح والمعيب للتاريخ»..

وإذن فحين أعلن اليهود دولتهم فى فلسطين، فإنها إذا كانت

لم تنشأ «عبر» دولة عربية بل عبر إنتداب بريطاني كما يصر مزراحي، فقد نشأت «على حساب» دولة عربية. والحرب التى قامت لم تكن حرب «تحرير واستقلال»، بل حرب إستعمار واغتصاب. وتلك «الانتفاضة» الصهيونية ليست هى أصل تحرير فلسطين كلها، بل كانت إنتفاضة على كيان فلسطين كلها، ولاهى صاحبة الفضل فى إتاحة فرصة الاستقلال للعرب بل فرصة الضياع والتشريد. و«الثورة» «الصواب: الغزوة» اليهودية لم تصفّ الإقطاع العربى، بل صفّت الوجود العربى أصلا. والعرب لم يرفضوا ان يسلموا دولة خاصة بهم لأجانب مغتصبين، ولم يرفضوا التحرير والاستقلال بل رفضوا العبودية والاذلال. لا، ولم تكن الحركة الوطنية اليهودية المزعومة عامل تفتح ومعجل تطور للمنطقة، بل جاءت أكبر عامل إضطراب وعدم إستقرار فى كيان العرب وتطورهم الحديث جميعا، كما يلمس كل ذى عينين اليوم.

أما الاساس الوحيد الذى قامت عليه إسرائيل فهو بلا لجاج

قوة الغزو والفتح والعدوان والاغتصاب، وهى ليست شعبا ولاقومية ولادولة حقيقة، بل طائفة خلاسية إنثروبولوجيا، وسياسيا عنصرية عادية فى أرض محتلة لامحررة. والصهيونية- تلك التى توصف بالدينية حينا والسياسة حينا وحيرت المصنفين أغلب الأحيان- يمكن تعريفها ببساطة وصدق على طريقة برودون: «ما الصهيونية؟ الصهيونية هى السرقة»! فالصهيونية حركة استعمارية وليست حركة قومية، ليست آخر القوميات التى افرزتها أوروبا فى اواخر القرن الماضى، وإنما آخر الموجات الإستعمارية التى صدرتها إلى ماوراء البحار.

وإسرائيل؟ إستعمار من الدرجة الثانية صنعه إستعمار الدرجة الاولى. فلولا الإستعمار وحمايته ومايصبه من قروض لإتسترد ومساعدات إقتصادية سفيهة بلاحساب، ومايورده من أسلحة رهيبة بلاحساب بل بكل حساب ووعى وتخطيط، لولا هذا لما قامت إسرائيل، ولوقامت لما إستمرت وبقيت. وإسرائيل ليست

الا مؤسسة للإحتكارات والإستثمارات الغربية والأمريكية بدرجة دولة: نذكر على سبيل المثال فقط مؤتمر المليونيرات بعد حرب يونيو والالف مليون دولار الذى وظفه فيها. وليس إلا تضليلا أن تقول أن معظم دول العالم تتلقى القروض والمساعدات من أمريكا والغرب، فدولة مامن هذه لاتعيش على تلك المساعدات، أما إسرائيل فستنهار بغيرها، وهى بالفعل تتلقى أكبر حصة من المساعدات الامريكية إذا قيست بكل دول العالم الثالث مثلا.

وإستراتيجيا، إسرائيل قاعدة عسكرية وترسانة مسلحة للغرب، حاملة طائرات أمريكية ثابتة، والأسطول السادس الامريكى وجد لحمايتها كأنه إسرائيل العائمة. وإذا احتجت ـ قل بالاصح تبجحت ـ دعايتها بأن لأمريكا قواعد فى عشرات الدول بغرب أوروبا وغيرها، فهل هذه مستعمرات، فالرد أن هذا يستبقى إسرائيل قاعدة أجنبية ولاينفى فى نفس الوقت أنها مستعمرة كاملة فى ذاتها، والإثنان هذا وذاك يجعلان منها

مستعمرة بالأصالة والوكالة، مستعمرة سكنية وإستراتيجية معا، مستعمرة مضروبة فى نفسها مرتين.

وإحتجاج إسرائيل بأنها حتى ولو صح أنها ضالعة مع الإمبريالية، فهذا لايطعن فى حقها فى الوجود اويصمها بالاصطناعية كدولة، هذا الاحتجاج مغالطة عريضة تحاول أن تبعد النظر عن حقيقتها باقرأن نفسها بدول ضالعة مع الاستعمار ولكنها دول حقيقة أصيلة فى ذاتها وحقها فى الوجود لايناقش، أما إسرائيل فضالعة وعميلة وصنيعة وربيبة وخادمة للإستعمار ولكنها قبل ذلك كله وأهم منه دولة مفتعلة مصطنعة مفروضة بالاغتصاب والقهر. إنها خدعة صبيانية تتلقف وتتلهف على تهمة حقيقة ولكنها خفيفة لكى تشغلنا بها عن التهمة الأصيلة والجريمة النكراء الأم والأصل والجذر!

وليس هذا كله بإدعاء أجوف أو «غباء وشوفينية» من العرب، بل حقائق اكدتها ١٩٥٦، وعادت فأثبتتها ١٩٦٧، وفيما بين

الاثنتين لم تنقطع تهديدات الغرب وإنذاراته بأن إسرائيل وجدت لتبقى، وأنه لن يترك العرب يدمرونها لا الآن ولامستقبلا. هذا بينما لم يفتأ قادة إسرائيل يلوحون للعرب بأن لها أصدقاء أقوياء «رابين» ، وأنها فى ساعات الخطر تتطلع بإطمئنان إلى الولايات المتحدة «اشكول» ... الخ. اسرائيل اذن «حقيقة استعمارية» صرفة ما فى ذلك شك، كما اشار رودينسون فى مقاله الذى يقرأ من عنوانه.

أما التساؤل المندهش الذى تفتعله الدعاية الصهيونية عن ملامح المستعمرات التقليدية من طبقة مستِغلة ومستغلَة وعن إنتاج أولى وبرولتارية زراعية وتجارة خاضعة للمتروبول... الخ، وأين اسرائيل من هذا كله، هذا التساؤل يصطنع الذكاء ولكنه ساذج حقاً أو مخاتل جدا، إذ يتلاعب بخداع البصر وخداع الألفاظ معا. فهذه الخصائص الإستعمارية هى خصائص الإستعمار الاستغلالى الذى يقيم بناءً إقتصادياً إستعمارى التركيب على

أساس غير إستيطانى. أما إسرائيل فقطعة من أدنى طبقات الاستعمار السكنى، إستعمار الطرد والأبادة والتفريغ السكانى، وتمثل بهذا بناء فوقيا إستغلالى التركيب على أساس إستيطانى يحذف السكان الأصليين من الصورة والإطار جميعا.

وإنتفاء مظاهر الإستغلال التقليدية على السطح لاينفى الجرم عن إسرائيل، بل يلقى عليها بجريمة أشد هولا وبشاعة ويحول الإتهام من سرقة بالإكراه إلى سرقة بالقتل مع سبق الإصرار. وأنت لاتسطيع أن تقتل شخصا ثم تستغله بالسخرة، أكثر مما تستطيع أن تدعى البراءة لأنك حقا لاتستغله! وأنت لاتستطيع أن تزعم أن أمريكا لم تنشأ على أساس إستعمارى أصلا بدعوى أنها الآن لاتستغل بروليتارية من الهنود الحمر مثلا ـ ببساطة لأن هذه القاعدة السكانية الاصلية قد أبيدت حتى الإنقراض على يد الإستعمار السكنى. ومع ذلك، فما هم المليونان من اللاجئين العرب المطرودين فى الصحراء والمعلقين على حدود إسرائيل، إن

لم يكونوا بروليتارية مقتلعة منفية، بل دون البروليتارية المسحوقة، لأنها سرقت منها أدنى مستويات الحياة والوطن معا.

ومع ذلك أيضا، فإن إسرائيل جزء لايتجزء من دائرة تجارة الغرب والنظام الرأسمالى، تعيش على أوثق العلاقات معه، وترتبط بسوقه الأوربية المشتركة، وتعمل له وكيلا إستعماريا متسللا متلصصا فى العالم الثالث وتمارس فيه دور القناع الآمن ومخلب القط للإستعمار الجديد. وهذا ماكشفته كثير من الدول الأفريقية وأعلنته بلاتحفظ. وإذا كانت إسرائيل حقا فقيرة لاتملك رأس المال الكافى للعمل فى افريقيا وغيرها، فمن أين لها هذا الدور الأخطبوطى المتغلغل المنتشر؟

وأخيرا هل صحيح ماتدعيه الصهيونية من أن إسرائيل «نصب تذكارى حى لخمسة ملايين ميت من ضحايا العنصرية»؟ قد تكون اليهودية الأوربية من ضحايا العنصرية النازية، وأنها لكذلك بالفعل، ولكن إسرائيل إنما هى بعث ونشور

وتناسخ أرواح لجلادها الميت، ومخيمات اللاجئين العرب هى الجبانة الحية التى ظنت أنها حفرتها لتدفن فيها جسم الجريمة، فصارت الشبح الذى يطارد القاتل أبدا.

لقد جمعت إسرائيل كل الحقد والمقت وكل الإضطهاد والدموية والعنصرية التى صبتها عليها الهتلرية، فنقلتها لتصرفها وتصبها على العرب دون أدنى مبرر أوعلاقة منطقية إلا إدعاءً خاطئا «بأرض ميعاد» وهمى. لقد جاء ضحية العنصرية ليصفى حسابه التاريخى، إبتداء من تاجر البندقية حتى رهائن أوشفيتز، من برئ على أرض العرب لم يعرف حتى «عنصرية الحرب» ضد عدوه الوافد الحاقد، ولو فعل ـ كما يذكرنا رودينسون ـ لما كان عليه لوم أو تثريب.

من هنا خلق العدو نازية صهيونية جديدة لاتختلف عن النازية الهتلرية إلا فى دعوى «الشعب المختار» هنا ««وألمانيا فوق الجميع» هناك. ومذابح دير ياسين وقبية وكفر قاسم والسموع، وأخيرا

غـزة والـكرامـة والقـدس، كلهـا هـى المكافئ المـوضـوعى لفظائع أوشفيتـز وداخاو وبلـزن وسائر معسكرات الإعتـقال. بل أصبحت فلسطين المحـتلة كلهـا معسكـر إعتـقـال ضـخم للأقليـة العـربيـة المتبقية، والآن لنصف الشعب الفلسطينى.

ومكابرة الصهيونية فى هذا بعصبية وتشنج إنما هى لإدراكها أنها حقيقة مقررة مدانة، يعرفها ويعترف «أولايعترف» بها العالم إبتداء من توينبى، الذى أعلن أن الجريمة التى إرتكبتها إسرائيل فى حق العرب أكبر وأسوا من الجريمة التى إرتكبتها النازية فى حق اليهود، إلى صحافة الغرب بعد حرب يونيو، التى أصبحت نغمة النازية الصهيونية فيها خبرا أوخبزا يوميا. وإسرائيل اليوم تمثل الإبن الأصغر، الأنشط، والواعد بالامل للعنصرية العالمية التى تستشعر «وحدة» متراصة فى المحافل الدولية، والتى تمارس الحرب على الحرب ضد التفرقة العنصرية وأعلنت إبتهاجها بإنتصار عدوانية العنصرية الإسرائيلية أخيراً... الخ.

وتبقى فى النهاية قصة اللاجئين، أو المأساة الملهاة. ولأنه يدرك

مدى خطورتها وإحتمالات تفجيرها، فإن العدو هنا يكثف أكاذيبه إلى المدى الذى لايطيقه إلا من أوتى طاقة نادرة من التدليس المحترف وعفونة الضمير. وإبتداء ، فإن من التزييف التاريخى المعيب أن يقال إن اليهود أرادوا دولة فى فلسطين دون إبادة العرب ـ بشهادة شاهد من أهلها: فقد سجل وايزمان فى مذكراته أنه إتفق مع بريطانيا على أن تسلم له فلسطين قبل التقسيم «خالية من العرب»!

وفى خطط العصابات الإرهابية الصهيونية فى ١٩٤٨ ، كان البند الأول هو إستراتيجية التفريغ السكانى، والثانى هو إستراتيجية الرعب وبث الذعر. وقد إعترف عمود أوعميد الإرهابيين «مناحم بيجين» بأن سلسلة مدروسة من المذابح على غرار دير ياسين يمكن أن تحدث «خروجا» عربيا كاملا مندفعا كالقطيع. وهكذا بالفعل كان. وبدلا من حجة نية العودة «لإلقاء اليهود فى البحر» التى تروجها الصهيونية، ألقى اليهود العرب

بالفعل فى الصحراء للضياع والفناء البطئ. أما أن بعض اليهود حاول منع العرب من الرحيل، فإسفاف وإبتذال لاتسعه أوتسعفه الكلمات.

أما كل عروض أو تلويحات إسرائيل بعد النكبة بالمساومة على إعادة بعض اللاجئين، فلم تكن فى يوم الامحض مناورة. وحتى صفقة الصلح ـ العودة (المرفوضة عربيا) لم يكن يقصد بها اعادة أى عدد معقول، وإنما أعداد تافهة رمزية فى إطار خطط مطاطة بالغة الغموض تتحدث عن التعاون المشترك مع الدول العربية فى مشاريع ضخمة لتوطين واستيعاب اللاجئين. وهذا ما كانت تنص عليه الكتابات الصهيونية فى ذلك الوقت، وكما يتضح مثلا من برنامج الحزب الشيوعى الإسرائيلى لحل الصراع.

ويمكن أن نقرر بإطمئنان علمى كامل أن شعار «لالاجئ واحد» ولد قبل أن تولد الدولة الصهيونية، وأن شعار «لاعودة إلا بعد الصلح» واجهة للإستهلاك الدعائى صحتها «لاعودة حتى بعد

الصلح» . ولازالت إسرائيل تذكر جيدا تصريح الرئيس عبد الناصر من أنه إذا عاد اللاجئون زالت إسرائيل من الوجود. ومنطق التبرير الإسرائيلى هو وحده يفضح نواياة بعيدة المدى. فكل حديث عن إتساع الأرض لدى العرب، اللاجئون يملأون الدنيا، اللاجئون موطّنون فعلا، أليست الدول العربية تزعم أنهم أشقاء ؟... الخ، كل هذا إنما هو تمهيد وتوطئة، لايخطئهما إلاساذج بل حتى ساذج، للرفض الأبدى المبيّت.

وتؤكد أحداث يونيو وما بعدها هذا تماماً. فقضية القضايا اليوم بالنسبة لإسرائيل هى ماذا تفعل بالعرب فى الأرض المحتلة الجديدة. ومؤشرات الإبادة، فضلا عن الطرد (نحو ٤٠٠ ألف)، متوفرة بما فيه الكفاية، وكتب فيها الكثير، وخطة تفريغ قطاع غزة تماما وتهويده كلية حديث معاد. ومازال أمل إسرائيل كما كان دائما. أن الزمن كفيل بإمتصاص القضية وتذويب أصحابها: الكبار يقضون، والصغار ينسون ... والمستقبل القريب وحده

سيوضح أن عودة اللاجئين مستحيلة مادامت إسرائيل قائمة وإذا كانت إسرائيل بعد هذا كله تسمى حرب التحرير التى يدعو إليها العرب حرب الثأر، فالصحيح أن حرب ١٩٤٨ التى شنها العدو لم تكن حرب الإستقلال وإنما بحق حرب الحقد

لاحوار ... إلا الحرب

وبعد، فلقد طالت رحلتنا عبر فكر العدو وضده، فهل من حصيلة نهائية يمكن أن تفيدنا كدليل عمل فى مرحلتنا الراهنة؟ واضح جداً، فى تصورنا ، أن مابيننا وبين العدو يتناقض تناقض الحياة والموت لاأقل، وأن كلينا أقطاب متنافرة وأقدار متصادمة إلى الحد الذى ينفى أدنى إلتقاء منطقى أوعقلى. أن من يطلع على دعايات العدو وفكره يوقن تماما أننا بازاء عقليتين متعارضتين حتى النخاع وإلى آخر خلية فى اللحاء، الأمر الذى يشكك فى سلامة أحداهما أصلا. كل مانعده فيهم عيوبا وآثاما، يعدونه

فخرا ووساما ـ والعكس. وكل موقف سياسى نتخده، يتخذون نقيضه المطلق، وهكذا. ورغم خطر التكرار، وكمجرد قائمة مجدولة برءوس موضوعات، يمكن بغير ترتيب أن نورد هذه السلسة من الاقطاب المتنافرة.

نقول	يقولون
إسرائيل ثمرة العنصرية	بل مجتمع ضحايا العنصرية
إسرائيل ضد سامية صهيونية	العرب لاسامية ضد اليهود
لابد من العودة إلى فلسطين	هذه صهيونية مقلوبة
إسرائيل إستعمار وإغتصاب	بل تحرير وطنى بطولى
لابد من حرب التحرير	هذه حرب ثائر وشوفينية عرقية
توطين اللاجئين خيانة	بل دليل على خرافة القومية العربية
مشكلة اللاجئين من صنع إسرائيل	بل من صنع أنفسهم

أساس الوجود الإسرائيلي ضد منطقي	عداء العرب لنا حقد غير منطقي
تقدم العالم فكريا يحل المشكلة اليهودية	حين يتقدم العرب ماديا تحل مشكلة إسرائيل
الصراع هو بين قومية وإستعمار	بل ديني كالهند ـ الباكستان
الصهيونية طائفية سياسية	بل قومية حقيقية وشعب تاريخي
الصهيونية قومية ملفقة مصطنعة	فقط مشتتة جغرافيا
الصهيونية صنيعة الاستعمار وخادمته	بل استغلته وحاربته
سموا قراهم «مستعمرات» بلا مواربة	بل خلايا اشتراكية
الانجليز سلموا فلسطين لليهود	الانجليز عادوا اليهود واليهود حاربوهم

ومن عجب بعد هذا أن الصهيونيين ـ كمناورة دعائية ماكرة ـ يملأون الدنيا ضجيجا بالدعوة الملحة إلي «الحوار» المتعقل المتفتح الجدلي، مع أنهم يغلقون باب الحوار ويلغون منطق العقل مسبقا. لسبب بسيط ذلك. إقرا ماشئت من كتابات الصهيونية، لن تخطئ قط أن لديهم دائما منطقين أوحلين : واحد يطرحونه ويحاورون به، والآخر يخفونه وراء أظهرهم كالإحتياطي الحقيقي والرصيد الأخير. الأول هو المناقشة المنطقية والمناظرة الجدلية، وبقدر ما تلح عليه وتناور به، بقدر ماينكشف خواؤه وتزييفه وكذبه. فإذا أفحموه بالمنطق، شرعوا الحل الثاني الحقيقي والخبئ: لامنطق، لقد قامت إسرائيل، وسواء ذلك بالقوة والغزو أو بالخطأ والظلم، فلقد تم الإختيار وقضى الأمر، ومن حقها أن تعيش، وهى قادرة على أن تفرض وجودها، والبقاء للأقوى!

وهذا بالفعل ما تنص عليه صراحة كل المجادلات الصهيونية، فكل شئ قابل للمناقشة مع العرب وكل شئ قابل للحلول الوسطى إلا وجود إسرائيل وحقها فى الوجود. وهكذا يكشفون

عن موقفهم الحقيقى والوحيد فى وجه منطق «الحق الضائع»، إلا وهو منطق «الأمر الواقع»، وبينما يصر العرب على الحق الشرعى، يشرّع العدو حق القوة، إذا إستعملنا تعبيرا هو نقيض النقيض بعينه.

ازاء مثل هذا المنطق اللولبى الزئبقى المتبجح،و الذى يبدأ بشرط مسبق يصادر على المطلوب، والذى يراوغ من حجة إلى حجة كلما حاصرته إلى أن يتخندق نهائيا فى منطق القوة وحق الفتح بلاحياء ولاخجل، إزاء مثله لاحوار بالتاكيد، وهو معه عقم وهراء، بل وخداع مهلك للنفس. وليس هناك شبر واحد يمكن أن نلتقى فيه مع العدو بالحوار، ولكن هناك الآن أكثر من ٨٤ الف كيلو متر مربع يمكن ويجب أن نلتقى عليها معه بالحراب.

ومثل ذلك المنطق لاينبع أو يصدر فى الحقيقة إلا عن فرضية جذرية كامنة غائرة فى أعماق الأنسان الصهيونى، وهو أنه لأمر ما أعلى مرتبة وأجدر بالحياة من الإنسان العربى، ولابأس من أن

يضحى بالأدنى إذا تعارض وجودهما فى الحياة. إنها جرثومة العنصرية والإستعلاء الحيوانى مرة اخرى وفى نهاية المطاف. وواقع الامر أن الصهيونى مريض نفسيا وعاطفيا، أنه «حالة عقلية» من إختصاص علم النفس الجماعى الباثولوجى، وكل امراضهم التى أورثها إياهم الرعب والإضطهاد والتحقير فى أوربا قرونا وأجيالا تحولت إلى عقدة بل إلى «مانيا Mania » حقيقية إسمها فلسطين (أو إسرائيل)، وكان لابد أن يصبُّوا كل عقدهم وحقدهم على ضحية ما، فكانت العرب.

ومع مثل هذا المريض العقلى، أنت لاتستطيع أن تتفاهم أوتتعقل، لاسيما أنه مريض خطر يمارس العنف ويلعب بالنار. العزل أولا، ثم الصدمة ثانيا، ذلك الحل الوحيد. والعزل هنا هو الحرب، والحرب الميدانية بالتحديد، التى تصفى الدولة المسخ وتعيد المختلين أوالمحتلين إلى أرض الميعاد الحقيقية وهى أوربا حيث ينتمون جنسا ودما، حضارة وتاريخا، أو إلى الملجأ العمومى

للأقليات المضطهدة فى كل العالم القديم وهو العالم الجديد. وهناك، بالتأهيل العاطفى بعد الصدمة، يعودون إلى حظيرة الإنسانية والمواطن السوى فى وطنه الأصلى.

والحديث بعد هذا عن «صقور وحمائم» كما يفعل الكاتب الصهيونى حركبى في بحث مطول مضلل، وكما يتوهم الكثيرون خارج إسرائيل، أنما هو حديث إفك أوغفلة. فليس فى إسرائيل سلاميون وحربيون (بينما أن كل أعداء إسرائيل من العرب، كما تذهب المقابلة أحيانا، حربيون فقط، سفاحون متعطشون للدماء وبربرية الثأر... الخ) ذلك ان المعسكرين المزعومين يلتقيان فى النهاية على أرض مشتركة وكلمة سواء لالبس فيها ولالجاج وهى قدسية الوجود الاسرائيلى وأبدّيته وضمان أمنه بالقوة... الخ. والذى يقرأ مقال حركبى مثلا، يدرك على الفور حقيقة التمثيلية المظهرية. فالكاتب يهاجم من يسميهم بالحربيين أوالصقور في إسرائيل هجوما كاسحا ويخطئهم

ويسفه آراءهم حتى ليوشك طيب النية أن يحسب بالتدريج أنه موقفا عربياً أكثر من العرب، فإذا به ينتهى معهم إلى كلمة سواء فى آخر المطاف، وهى أن إسرائيل «تابو» سياسى، كيان لايمس، «ولابد أن نفهم العرب ونتعاطف معهم، ولكن الاعتراف بأن للعرب حقا أوبعض حق فى أن يعتبروا أنفسهم مغبونين تاريخيا أمراً لايجوز بأى حال، ولاينبغى أن يكون عندنا مركب ذنب، ولايجوز أن يقودنا إلى أية تنازلات».

الحقيقة إذن أن الفارق بين الصقور والحمائم فارق فى الدرجة لافى النوع، هذا اكثر حقدا وهذا اكثر خبثا، ولكن الموقف الجذرى واحد، وهو «التعايش أو الحرب» كما يوجزه مزراحى فى عنوان مقاله، أو «كن أخى أو أقتلك» كما عبر كبير الارهابيين بيجين منذ سنين أبلغ وأصدق تعبير وإن كان أفدحه وحشية وحيوانية! والواقع أن الفروق الحقيقية بين أحزاب إسرائيل، مثلا وكما يعترف الكاتب الصهيونى أورى افنيرى صراحة «فروق تافهة،

مجرد إتجاهات متباينة لحزب صهيوني واحد في الحقيقة كالاتجاهات المتعددة في أي حزب كبير كالديموقراطيين في أمريكا مثلا...»

لهذا كله يمكن بلا تناقض أن نزعم أن كل من في إسرائيل بما في ذلك ديان وبيجين ورصفائهما سلاميون - فقط بمعنى «السلام الإسرائيلي» ، يعني «الإستسلام العربي» دون أن يتعارض هذا مع مرادفه الفعلي وترجمته الحقيقة من أن كل من في إسرائيل حربيون بما في ذلك حتى الشيوعيون. ولو قد كان في إسرائيل سلاميون حقا، ففي أستطاعتهم أن يثبتوا ذلك ببساطة بدل المهاترة بان يغادروها على الفور وإلى الأبد، وهذا وحده المحك الحقيقي، وغير تمحك حقيقي، ولكنه أيضا المستحيل المطلق!

وكل إسرائيل تلعب لعبة السلام الكاذب عن وعي وعمد، لأن الكل - كما يقول حركبي - يدرك أن السلم أكثر فائدة لإسرائيل

منه للعرب، وأن الموقف العسكرى أكثر فائدة للعرب منه لإسرائيل، وذلك عدا إعتبارات الدعاية الخارجية. ويضيف نفس الكاتب أنه إذا كانت قوة الردع الإسرائيلى وحدها هى التى تفرض السلام إلى أن يدرك العرب عقم وعجز المقاومة فيستسلموا، إلا أن الخطر أنهم قد ينتصرون مرة فتنتهى إسرائيل، بينما إذا إنتصرت إسرائيل فلن تستفيد من النصر إلا مؤقتا لأنها عاجزة عن إحتلال الدول العربية دائما وتجريدها من السلاح نهائيا. ولذا فلعبة السلام رائجة جداً في إسرائيل، وإن أعلنت دائما أنها يمكن أن تعيش بغيرها، وواضح أن هذا التشخيص القيق وضع موضع الإختبار فى حرب يونيو، وتحقق شئ منه بالفعل. وهذا مايضع أيدينا على مفتاح الموقف الراهن ونتائج يونيو.

بعد يونيو

لقد خاض العمل السياسى لتصفية العدوان مراحل عدة من المد والجزر، والأمل واليأس، وتكاثرت المحاولات والوساطات الدائرية والإلتفافية داخل الأمم المتحدة وخارجها، ولكن أساسيات الموقف هى هى كما كانت فى يونيو: الحل السياسى ممكن على الفور، فقط بشروط المنتصر: سلم وإستلم، أستسلم ننسحب. والشروط غير معروفة، مطاطة تتأرجح بين أطماع العدو ومخططاته وبين مخاوفه وهواجسه مابين حرج موقفه المتدهور إزاء الرأى العام العالمي ومابين إحتمالات الحرب الرابعة غير المضمونة بداهة.. الخ.

وهناك أنصار الحد الأدنى - الحمائم، على علات التعبير - الذين يفضلون عدم التشدد المطلق مع العرب والإكتفاء بشروط معقولة من وجهة نظرهم» لقاء تحاشى معركة جديدة. ولعل هذا إتجاه سائد نسبيا الآن عند الإسرائيلى العادى، فقد اوضح

إستفتاء أخيرا أن الأغلبية تفضل الإنسحاب مقابل الشروط الواجبة (التى لاتعنى فى الحقيقة الإنسحاب المطلق ولاتنفى ضما جزئيا هنا وتحييدا عسكريا هناك، فضلا عن الإعتراف بالطبع، والمرور... الخ) . أما أنصار الحد الأقصى فيعبر عن موقهم ديان الذى صرح أخيرا أنه يتمنى الايصل الأمر - بشروطهم طبعا - إلى إتفاق مع العرب حيث لاتدفع إسرائيل ثمنا فادحا للأنسحاب وتضييع فرصة التوسع الاساسى ... الخ! (ليثق ديان أن كل عربى واع لابد يشاركه هذا التمنى حتى لايدفع العرب ثمنا فادحا للإنسحاب وتضييع فرصة النصر الاساسى!)

ولعل الخلاصة واضحة. عدو حياة، وجد فرصة عمر، فى غفلة من زمن، وحقق إنتصارا لم يكن يدور بخلده مهما أسرف فى الخيال، وهو الآن مستعد لأن يذهب إلى المعركة من جديد، قاتلا أومقتولا ، حيا أوميتا، ولايفرّط فيها، وإلا فإنه لامفر للعرب على أحسن حال من دفع الثمن للتسوية السملية. وهذا أيضا نفس موقف امريكا من البداية إلى النهاية - بشروط أقل قسوة

نوعا بالطبع. ومن خداع الذات أن نتوقع منها غير هذا، فلايمكن أن يكون لامريكا أصدقاء أنداد، ثمة لها توابع وذيول فحسب. ومازالت وستظل سياسة أمريكا هى الجمع ما أمكن بين الزوجة الضرورية على بغضها «العرب»، وبين العشيقة الأثيرة المدللة «إسرائيل». ولكن معنى تلك الصيغ جميعا واحد : الإستسلام للأمر الواقع.

وحتى إذا فرضنا المستحيل، جدلا، بإمكان الأنسحاب بشروط قد يعدها البعض مقبولة عربيا، فيحسن أن ندرك مبكرا أن هذا قمين بأن يكفى ظلالا خطيرة وبعيدة المدى على القضية كلها إلى الأبد، ولكنه أجدر حتما بأن يحدث تعديلات وتغييرات عميقة إنزالقية ونكوصية فى كل العالم العربى. وليس هذا تلويحا بالثبور وعظائم الأمور، ولاعن شهوة عارمة فى الحرب نقوله. وإنما نقول : لايفل الأمر الواقع إلا أمر واقع، مضاد له فى الأتجاه وأكثر من مساو له فى القوة، ولن يسترد التراب إلا بالدم

فالحياة – بغير نيتشية ـ القوة والقوة الحياة، وإذا كان منا من يتوهم اعادة العجلة إلى ماكانت قبل ٥ يونيو بلاثمن إما من الحياة وإما من الكرامة فهو، في غياب القوة الذى نعيشه، إنما يطلب شيئا مقابل لاشئ كما يقول الانجليز...

لقد مرت هذه الأمة بمرحتلين منذ النكسة : مرحلة تمزق وحيرة وإتجاهات طاردة مركزية بعد كلمة «لا» ردا على النكسة فى ٩ ـ ١٠، ثم مرحلة وحدة وطنية وإتجاه جاذب مركزى بعد كلمة «نعم» ردا على ٣٠ مارس التى جمعت الامة على كلمة سواء اسمها التحرير. والكلمة الاخيرة نعم هى المكافئ الموضوعى للاولى لا، والاثنتان وجهان لشئ واحد، وقريبا تدور معركة الانتخابات، وهى اساسا انتخابات المعركة، فكل شئ اليوم إنما يصب فى المعركة العظمى، وكل شئ عداها وسيلة لاغاية وفرع لأصل، ولاقداسة الآن لشئ إلا للوطن: ترابه وتراثه، كيانه ومصيره. وحروب العصر حروب شعوب لاجيوش فقط، ولها

جبهتان جبهة داخلية وجبهة الميدان، والتفاعل والتلاحم المطلق بينهما ضرورة شرطية.

ولقد هزم العرب هزيمة عسكرية محققة فى يونيو، ولكنهم لم يخسروا الحرب. بل لعل المعركة - على فداحة الكارثة - أثبتت حقيقة أخطر. لقد ألفنا أن نقول أن كارثة الإنفصال على مأساتها أثبتت أن الإنفصال مستحيل، وأن الوحدة هى وحدها الممكنة «عبد الناصر» . وبدون أن نخادع أنفسنا ونخفف من صدمتنا، فلعل المعركة هى الاخرى أثبتت أن أنتصار إسرائيل مستحيل، وإنتصار العرب هو الممكن فى التحليل الأخير، وهذا يتفق تماما مع نبوءة وتخوفات حركبى التى أشرنا إليها منذ قليل.

ولكن إثبات هذا فعلا وتحقيقة نهائيا إنما يكمن فى العمل، المتفانى، المستميت، البارد الثائر، المصمم والمخطط، مع الصبر البالغ الإنضباط كسبا لأطول وقت ممكن بما لايبدأ المعركة قبل أوانها، أو أن النصر الساحق المؤكد، لحظة واحدة. ولكل دقيقة

الآن قيمتها إعدادا وتدريبا وتخطيطا ويقظة، ولابد أن نؤمن أن المعركة قد تنهى أوتبدأ كل شئ فى حياة العرب إيماننا بأنها محتومة كالقدر.

والعدو يدرك هذا ويخطط له، ويضاعف ميزانية الحرب أضعافا مريبة، ويكدس السلاح الأفتك، ويتكتم على السلاح السرى فيما يبدو(!)، ولن يتورع عن أى شئ وعن المفاجأة بأى شئ، سواء بالحرب الخاطفة مرة ثانية أو بالهجوم خارج الأراضى المحتلة الراهنة أو أن يضع العواصم هدف الزحف... الخ. لا، وليس من المستبعد تماما أن يفرض الصقور إنقلابا صامتا على الطريقة الإسرائيلية المعهودة، يأتى بحكومة حرب تحقن وتشحن بالعدوانية وتشن العدوان، إذا أنسوا ضعفا من الحمائم فى إعتصار هزيمة العرب حتى النخاع، أو إذا وجدوهم متفرجين ينتظرون لاشئ وقوة مصر العسكرية تتنامى إلى حد الخطر... الخ.....

وعلينا نحن من جانبنا أن نتوقع كل شئ ونعد ونستعد له،

وأن نوقن أن النصر حتمية البقاء الآن وشرط الوجود، وإنه أيضا لمن اراده، ولابد أن ننتصر، بل وأن نفكر دون أحلام أواوهام، منذ الآن فيما نفعل بالنصر، فالمناخ الدولى موات نوعا أو على الأقل غير منحاز كلية كما كان، والنصر نفسه خير دعاية ومكيف وضابط للراى العام العالمى، ويمكن هناك لمن يضرب الأفعى أن يتبع رأسها الذنبا...

كذلك فلعل المعركة قد أثبتت أيضا أن أخطر «مكاسبها» هو ظهور الوجود الفلسطينى وبروز دور فلسطين، لاإسما ينزوى بإطراد بل فعلا يؤثر ويفجر. فمن المرجح أن تنامى المقاومة الفدائية الفلسطينية، خاصة «فتح» هو أهم تطور فى تاريخ القضية منذ النكسة، بل لعل الأيام أن تثبت أنه كذلك منذ النكبة نفسها، ولو أن هذا سابق لأوانه تماما. والمهم أن تتعاظم المقاومة المسلحة وتتوحد، وأن تبقى العدو على أقصى مستوى من التوتر والفزع، وأن تتحول الطلائع الثورية الباذلة إلى جيش فدائى

إنتحارى كامل سيتحقق دوره الفاصل حقا أثناء المعركة الكبرى والمواجهة النظامية، فإن ٣٠أو٤٠ ألفا مثلا من الفدائيين يعملون داخل خطوط العدو وجبهته جديرة ساعتها بان تفجره من الداخل تفجيرا.

إن العدو الآن يمر بمرحلة حرجة، لانقول يتورط فى إنتصاره، ولا إنه قضم لقمة أكبر مما يبتلع أو ابتلع أكثر مما يهضم، أو أنه يتمزق بين ما يأخذ ومايدع، وإنما هى ـ على الأقل من وجهة نظره هو ـ آلام النمو. لقد قال شيمون بيريز قبل النكسة تبريرا لإنشاد الدولة اليهودية أن اليهود أرادوا «محو التاريخ أكثر من محو الجغرافية، والمطلوب الآن توازن أكثر بين التاريخ والجغرافيا» . واليوم تجتاح إسرائيل حمى البحث التاريخى وقبل التاريخى فى الآركيولوجيا تعميقا لجذور إسرائيل فى كل أرض فلسطين، وتعيد صياغة أسماء جغرافيتها عبريا وذلك لتهوّد حتى الطبيعة والخريطة الطبيعية بعد أن هودت الخريطة

البشرية: إنها الآن تريد التاريخ والجغرافيا معاً، إلى أقصى حد، وإلى الأبد.

فهل نتركهم يفعلون؟ الكلمة الآن للعرب !

- من الصعب أن نجد بين المجتمعات البشرية المعاصرة مجتمعاً يقارب المجتمع «القطيعى» الذى حشدته الصهيونية فى إسرائيل وذلك فى مدى تمزقه وتهالكه وأعوجاجه.
- إن اليهود جملة وتفصيلاً ليسوا من بنى إسرائيل، ليس هناك «يهودى تائه» أو متجول، وإنما هناك ببساطة يهودى متحول.
- الصهيونية مجتمع دخيل تماماً على فلسطين، وليس لهم فيها جذور أو أصول سواء بالتاريخ أو الجنس، سواء باللسان أو الدين.

الفصل الخامس

هيكل المجتمع الإسرائيلى

تحاول الدعاية الصهيونية أن تصور للعالم بالوهم والخديعة أنها تبنى فى إسرائيل مجتمعاً جديداً وتقوم بتجربة رائدة فى الهندسة الاجتماعية، وأنها تخلق مجتمعاً ليس نموذجياً فحسب وإنما «مستقبلياً» فى الدرجة الأولى. وهى ترسم لهذا المجتمع المزعوم صورة براقة تجمع أبعادها من مثل الحضارة الأوربية وأنماط طريقة الحياة الغربية مرة، ومن الإيديولوچية الإشتراكية والمبادئ التقدمية مرة أخرى. وهى تضغط فى دعايتها هذه التى تقذف بها فى إلحاح ممل على أن «الروح الريادية» المتوثبة المنبعثة من حلم صهيون هى وحدها التى تنسج هذا النسيج الحضارى والمركّب الاجتماعى الجديد. ذلك كله لكى تبدو أمام العالم جزيرة من التقدم والمدنية وسط «محيط عربى من التخلف والرجعية». وتجد هذه الدعاية الزائفة المكذوبة من يصدقها من بين المغرضين أو البسطاء فى الخارج.

ولكن إلى أى حد تصمد هذه الدعاية أمام الحقيقة العلمية؟ إن النظرة الموضوعية المحققة تكفى لتعرى هذه الصورة وتكشف عن جسم اجتماعى مريض وبنية شوهاء، بل عن مسخ بالوراثة يلقى بظلال الشك كثيفة على شرعية أبوته أو ولادته. وليس هذا غريباً ـ أليس كذلك؟ ـ عل مخلوق بدأ إبناً غير شرعى لبريطانيا ونما لقيطاً لأمريكا وشب ربيباً لفرنسا. ولا يملك عالم الاجتماع أو الأنثروبولوچيا إلا أن يدمغ كيان إسرائيل البشرى بالشذوذ والإنحراف بمثل ما يصمها عالم السياسة بأنها دولة الشذوذ والاصطناعية.

بل إن من الصعب أن نجد بين المجتمعات البشرية المعاصرة مجتمعاً يقارب المجتمع «القطبعى» الذى حشدته الصهيونية فى إسرائيل وذلك فى مدى تمزقه وتهالكه وإعوجاجه.

والشئ المثير حقاً بعد هذا أن تجد إسرائيل فى دعايتها ذلك القدر النادر من القحة والتبجح وتلك القدرة على قلب الحقائق من النقيض إلى النقيض.

ولكنها موهبة هذه الدولة التى بدأت دولة عصابات وإنتهت دولة أكاذيب، تلك الموهبة التى علق عليها تهكماً بعض الأذكياء من كتاب الغرب أنفسهم، فقالوا إن إسرائيل جعلت من الكذب فناً جميلاً بل وفرعاً من علم التخطيط! والحقيقة أن كل ما مسته إسرائيل فقد مسه الكذب والتضليل حتى باتت كل قصتها وتاريخها أقرب إلى القصة الخيالية المختلفة وحتى اختلطت الحقائق على أذهان البعض منا نحن كذلك.

ونحن نود هنا أن نحلل كيان مجتمع إسرائيل ونحدد معالم «الطبوغرافيا الإجتماعية» فيه، لنرى كيف أنه ليس مثلا بقدر ما هو أمثولة، وكيف أنه ليس نتجاً لتجربة فى الهندسة الاجتماعية بقدر ما هو بحاجة إلى جراحة إستئصالية إجتماعية بل سياسة كبرى، ولكننا نبادر منذ البداية فنستدرك أن أمراض المجتمع الإسرائيلى وإن كانت حرجة ومزمنة فإننا لا نعتقد أنها وحدها مميتة. إنها بالقطع تضعف من مناعته ومقاومته إزاء القوة

العربية، لكن ليس معناها أنها وحدها تحمل جرثومة فناء إسرائيل. وعلينا أن نستغل نقاط الضعف هذه بذكاء وفهم دون أن تكون بديلا عن العمل التحريرى الإيجابى الحاسم. أما ما هى هذه الخصائص المرضية فيمكن أن نجملها فى ثلاث نناقشها تباعاً هى: مجتمع شيطانى دخيل، مجتمع خلاسى طائفى، مجتمع عنصرى طبقى.

مجتمع شيطانى دخيل

ولعلنا نبدأ من البداية الطبيعية - وإن بدت مألوفة لا جديد فيها - حين نقول إن المجتمع الإسرائيلى مجتمع دخيل، مجتمع شيطانى طفيلى لا علاقة له بالأرض التى إغتصبها لنفسه بالقهر والغدر. نقول هذا لأن البعض - ومنهم أصدقاء للعرب - يتساءلون أحياناً فى حيرة وشك عما يدور به التاريخ الدينى عن الموطن الأصلى لليهود: ألم يقع تاريخ بنى إسرائيل فى فلسطين؟

أخطر من هذا هم يتساءلون بقلق وغموض: هل هم حقاً «أقارب» للعرب القدامى ينحدرون من عرق مشترك؟ أليست العبرية لغة سامية قريبة للعربية. بل قد لا تزيد بعض كلمات منها أحياناً عن أن تكون قلباً أو تحريفاً لكلمات عربية؟

وفى رأينا أننا نرتكب خطأ كبيراً حين نترك مثل هذه الشكوك الحسنة النية بلا توضيح علمي يقطع الشك باليقين، لا سيما أن هذا الجانب الذى قد يبدو شائكاً هو أسوأ ما زيفته الدعاية الصهيونية فى العالم الخارجي وغررت به على الرجل العادى. بل إن هذا المزلق الخطير يتورط فيه علماء مختصُّون كما أننا نحن أيضاً نجتر بعض هذه المغالطات ونرددها بلا وعى ولا فهم دون أن نحاول أن نتكبد مشقة الدعاية العلمية المضادة أو كأنما نتحرج من مثل هذه الموضوعات الحساسة.

اليهود ليسوا من بنى إسرائيل

والحقيقة التاريخية التى نود أن نصر عليها بشدة هى أن «اليهود ليسوا من بنى إسرائيل» ، بمعنى أن الصهيونيين الذين يحتلون فلسطين اليوم ليسوا من نسل بنى إسرائيل التوراة أو سلالتهم، سواء مباشرة أو غير مباشرة. حقاً إن بنى إسرائيل التوراة بدءوا كموجة أو شعبة من الشعوب السامية التى ينتمى إليها العرب، ولغة كل لغة سامية. وحقاً إن أصلهم يرقى إلى يعقوب حفيد إبراهيم بمثل ما أن العرب تنحدر من صلب إسماعيل بن إبراهيم. وحقاً كذلك قامت لهم دولة فى جزء داخلى من فلسطين إستمرت قروناً أربعة إلا قليلاً هى القرون التى تسبق التاريخ المسيحى مباشرة.

ولكن ماذا إذن ؟ لسنا نريد بعد هذا أن نقول إن تاريخهم الذى كان - بشهادة كل الأديان - سجلاً بشعاً من سفك الدم والغدر والفساد كان عابراً قصير العمر هناك. ولم يزد عن أن يكون

مجرد جملة اعتراضية فى تاريخ فلسطين. ولسنا نريد أن نقول إن فلسطين كانت كنعانية (= عربية) قبل بنى إسرائيل لألف سنة على الأقل، وعادت عربية بعدهم لنحو ألفى سنة على وجه التقريب. فهذا كله وإن كان صحيحاً، فانه يهمل قضية حاسمة خطيرة وهى أن يهود العالم اليوم لا علاقة لهم البتة بتلك القبيلة الغابرة إلا علاقة إدعاء موهوم وإنتحال.

ذلك أن الأدلة التاريخية توضح أن الإسرائيليين الذين فروا من مجازر الرومان وخرجوا من فلسطين بعد سقوط أورشليم لم يكن عددهم ليزيد عن بضع عشرات من الآلاف أو مئات من الآلاف على الأكثر. وأهم من هذا ما حدث لهذه الشرائم والشظايا المتطايرة فى المهجر منذ أن بدأ الشتات (الياسبورا). فقد تشتّت أغلب هؤلاء فى بلاد البحر المتوسط إبتداء من تركيا حتى أسبانيا ومن العراق حتى المغرب. وفى هذا الوسط الجديد الذى ظلت أجزاء منه وثنية لقرون بعد ذلك، لم يبدأ تقوقعهم وعزلتهم

المعروفة إلا بعد أن كانوا قد اختلطوا وتزاوجوا بدرجة أو بأخرى مع السكان الأصليين. وفى هذا الاختلاط لم يفقدوا نقاوة دمائهم الجنسية فحسب، وإنما تحوّل كثير من الأهالى الوثنيين إلى اليهودية عند التزاوج معهم.

ومعنى هذا أنهم اليوم ليسوا نسلا خالصاً للمهاجرين الإسرائيليين أولا، وأنهم ثانياً إن لم يكن قد ذابوا بدرجة أو بأخرى فإن جزءاً منهم كبيراً ليسوا إلا قطاعاً من جسم الأهالى الوطنيين أنفسهم. هؤلاء هم اليهود «السفاراديم» الذين لا يمثلون اليوم إلا ٢٠ ٪ من مجموع يهود العالم.

الاشكناز أوروبيون تهوّدوا

وتبقى الأغلبية الساحقة - ٨٠ ٪ - وهى الشكناز (الاشكنازيم) الذين يشملون يهود أوربا والعالم الجديد. أصل هؤلاء الثابت علمياً وتاريخياً أن أعداداً ضئيلة للغاية من يهود الإنتشار تسللوا

إلى جنوب أوروبا ووسطها وشرقها حيث كان المناخ الدينى السائد لا يزال الوثنية. وهناك لم يتزايد اليهود أو تتوسع اليهودية بالتكاثر، وإنما أساساً وفى الدرجة الأولى بالتحول والتبشير. فالتزاوج القليل الذى كان يمكن أن يتم كان يعنى أن يتحول الأهالى من الوثنية إلى اليهودية وليس العكس بداهة. ولكن المهم أن التاريخ يسجل هنا موجات وعمليات ضخمة من التحول بالجملة إلى اليهودية وصلت أحياناً إلى حدود الملايين. ولعل مثلاً واحداً يكفى هنا: تحول الخزر فى القرن الثامن الميلادى.

من نسل هذه الملايين المتحولة يأتى يهود الاشكناز مباشرة. ومعنى هذا أن يهود أوروبا ليسوا إلا من أبناء تلك البلاد، وأنهم بالجنس والسلالة أوربيون لحماً ودماً ـ روس أو بولنديون، نمسويون أو ألمان، تشيك أو رومانيون... الخ. معناه أنهم لا علاقة لهم إطلاقاً ببنى إسرائيل التوراة ـ إلا فى العقيدة المستعارة. أما

دون ذلك، أما من حيث الموطن والسلالة، من حيث الدم والعرق، فهم أوروبيون من قمة الرأس إلى أخمص القدم. والأدلة والوثائق التاريخية الثابتة تؤكد هذا الانتماء بينما تثبته الدراسات الأنثروبولوجية كل يوم بالمقاييس الجسمية لليهود والتى لا تختلف بتاتاً عن السكان الأصليين الذين يعيشون بينهم.

آريون لا ساميون

باختصار إذن اليهود جملة وتفصيلاً ليسوا من بنى إسرائيل. ليس هناك «يهودى تائه» أو متجول، وإنما هناك ببساطة يهودى متحول. ولهذا فإنهم حين يتجهون الآن إلى فلسطين فانهم لا يعودون وإنما يغتصبون: ليست هى عودة الغائب الذى يثوب ولكنها غزو الأجنبى الدخيل الذى يعتدى ويسلب. وليست فلسطين «أرض الميعاد» أو الأجداد فى أى معنى ولكنها مجرد أرض الرسالة والعقيدة فقط. أبعد من هذا، ليس اليهود

«ساميين» فى أى معنى رغم ما فى هذا من تناقض ساخر كما سنرى. فهم - الشكناز منهم على الأقل - آريون أو هندو أوربيون لا يختلفون فى ذلك عن الشعوب التى ينتمون إليها جنسياً. وهم حين يلتقطون العبرية من متحف اللغات الميتة لينفثوا فى عظامها النخرة الحياة بالقسر والابتسار فإنما ينتحلون لساناً غريباً مثلما ادعوا من قبل أصلاً مكذوباً.

والموقف كله من الغرابة والشذوذ بل السفه بمثل ما لو هب الستمائة أو السبعمائة مليون من البوذيين الصينيين والهنود الصينيين اليوم فقرروا أن الهند - وهى الموطن الأصلى للبوذية وإن كانت تخلو منها الآن - ينبغى أن تكون «الوطن القومى» للبوذية وأن يهاجروا إليها ليقيموا دولتهم فيها! والتشبيه على غرابته صحيح فى كثير من جزئياته بما فى ذلك أن الصينيين والهنود الصينيين ليسوا من نسل سكان الهند أكثر مما أن يهود أوروبا وأمريكا من نسل إسرائيل. أما اليهود الذين هم اليوم من

نسل إسرائيل حقاً فهم البضعة عشر ألفاً التى كانت بفلسطين العربية حتى سنة ١٩٠٠ تقريباً، يضاف إليهم ولكن بدرجة كبيرة جداً من الشك والحذر بضع مئات من الألاف من يهود السفارديم فى البلاد العربية.

لهذا جميعاً فالصهيونية مجتمع دخيل تماماً على فلسطين، وليس لهم فيها جذور أو أصول - أو حق بالتالى - سواء بالتاريخ أو الجنس، سواء باللسان أو الدين، وهم يدعونها وينتزعونها ما هو إلا استعمار مادى سياسى بحت وبكل معنى الاستعمار الحديث تحت ستار ملفق من الدين.

الصليبيات الجديدة

ويجوز لنا عند هذا الحد، ودون أدنى مغالاة أن نعتبرها «الصليبيات الثانية». فكما كانت الحروب الصليبية إستعماراً مادياً إستغلالياً بحتاً تحت شعار الدين. فليس الاحتلال الصهيونى إلا

استعماراً مادياً جديداً ولكن تحت شعار دين آخر. وكما أن الذى مول الحروب الصليبية الوسيطة هم تجار البندقية وجنوه وبارونات الإقطاع، فان الذى يمول الحروب الصليبية الصهيونية اليوم هم بارونات المال وصيارفة اليهود فى الغرب. وكما تواترت الحروب الصليبية الوسيطة فى موجات متتابعة بلغت السبع أو التسع عداً. فكذلك تتابعت موجات الاستعمار والهجرة اليهودية منذ القرن الماضى حتى بلغت الآن ستاً أو سبعاً. بل وكما أن بعض الحكام والقوى الأوروبية كانت تشجع الحملات الصليبية تخلصاً من منافسيها وأعدائها، فكذلك لنا أن نشك فى أن كثيراً من الدول الأوروبية والغربية تؤيد الحملات والهجرات الصهيونية مادياً وسياسياً لتتخلص منهم - من بين أهداف أخر - كأقليات لها مشاكلها ونفوذها الداخلى. إن الصهيونية فى أكثر من معنى هى «الصليبيات الجديدة»!

مجتمع خلاسى طائفى

ليس على ظهر الأرض - ومساحتها ٥٧ مليون ميل مربع - ٧٩٠٠ ميل مربع تضم ولو قدراً ضئيلاً من التنافرات والأخلاط التى تضمها إسرائيل. بل ليس هناك قارة من القارات - حتى أمريكا - تقارب ما فى المسخ الإسرائيلى من تباين وتناقضات بشرية. وإذا استبدلنا البعد المكانى بالبعد الزمانى فاستعرضنا أضخم الإمبراطوريات فى التاريخ وأشدها تخليطاً - ابتداء من روما عبر شارلمان وإمبراطورية النمسا والمجر حتى الإمبراطورية التى لم تكن تغيب عنها الشمس بكل ما تضمه من شعوب متباينة وقوميات شتى - فلن تجد منها ما يقارب إسرائيل الميكروسكوبية - كدت أقول الميكروبية ! - تنافراً وخلاسية. أما لكى تجد هذا المثيل فلا بد أن توسع دائرتك لتشمل العالم كله. نعم كله، فلا يكاد يوجد على ظهر الأرض جنس رئيسى أو ثانوى، قومية أو شعب، لغة أو ثقافة، لا تتمثل فى إسرائيل.

متحف جنسى حى ودولة أقليات ميتة

جنسياً، لأن جميع الألوان بكل درجاتها وظلالها تتمثل فى سكان إسرائيل كقوس قزح بشرى شديد الغرابة. فالى جانب اليهود البيض الأوربيين من اشكناز وسفارديم يوجد اليهود السمر الشرقيون من اليمن والهند، وإلى جانب اليهود الصفر الأسيويين يوجد «اليهود السود» كالفلاشا الحبشية... الخ. متحف جنسى خلاسى لا مثيل له فى العالم... ولقد نحكم له بأنه متحف حى ولكن هذا فى ذاته وفى الحقيقة حكم عليه بالموت كدولة سياسية.

وأما قومياً فيكفى أن نذكر أن إسرائيل تلقت من يوم قيامها فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ حتى منتصف سنة ١٩٦١ بالتحديد مليون مهاجر بالضبط يرجعون فى أصولهم ومصادرهم إلى ٧٩ دولة ! فإذا عرفنا أن الدول المنضمة إلى هيئة الأمم المتحدة تعدت أخيراً فقط المائة بقليل، فلن نبعد عن الحقيقة كثيراً إذا افترضنا أن

إسرائيل فى مجموعها - نحو ٢,٢٥ مليون نسمة - تضم ممثلين لكل دولة فى العالم تقريباً. ولهذا وكما فى الولايات المتحدة فليس هناك إسرائيلى إلا وله صفة جنسية أخرى، فهو إما إسرائيلى رومانى، أو إسرائيلى - إيطالى أو تركى أو هندى... الخ. وهذه الثنائية المزيفة لا تعنى إلا انفصاماً فى الجنسية وانعداماً للقومية. وهى تفسر أيضاً ذلك التعدد المذهل فى الأحزاب السياسية والتكتلات والمنظمات الحزبية التى تقدم قائمة مرهقة لا نهاية لها من وحدات مفتتة تفتيتاً ذرياً. ومعنى هذا جميعاً أن إسرائيل فى جوهرها وعلى ضآلتها العامة «دولة أقليات» لا يعرف العالم لها مثيلا.

بابل الجديدة

وإسرائيل بعد هذا بابل محمومة لغوياً. فهناك لغات وألسن بقدر ما هناك قوميات وشعوب محشورة محشودة فيها.

ونستطيع لهذا أن نتصور مدى إنعدام الوحدة الفكرية وصعوبة التفاهم بين هذه الأخلاط الأعجام. ولا يجدى إسرائيل أن «تستحى» بقانون إدارى لغة حفرية محنطة أو أن تستحضر روح لغة ميتة وتنتسب إليها إدعاء وابتساراً. فمن بين أكثر من مليونين من السكان لا يزيد عدد من يتكلم العبرية حتى الآن عن ٨٠٠ ألف تقريباً. وتظل الصحف - على سبيل المثال - تصدر فى اثنتى عشرة لغة أو تزيد. ولهذا فان العبرية، بغض النظر عن أنها لغة مكتسبة لا موروثة ومفروضة لا منبثقة، لا تزيد عن أن تكون «لغة مشتركة» Lingua franca بين أجانب غرباء.

حقيقة إسرائيل

ما معنى هذا كله، والصهيونية تؤسس كل فلسفتها العدوانية ودعاويها الإجرامية على أن اليهودية ليست ديناً فحسب ولكنها قومية كذلك ودولة فوق هذا وذلك؟ معناه أن إسرائيل أغرب

مخلوق سياسى عرفه المجتمع العالمى فى كل تاريخه ما كان منه وما يكون. معناه أن إسرائيل ليست إلا مجتمعاً خلاسياً يتألف من شظايا بشرية وأخلاط وأمشاج جنسية متنافرة. معناه أن إسرائيل «بالوعة» اجتماعية حضارية جنسية. معناه - أخيراً - أن إسرائيل ليست قومية وإنما استقطاب لكل قوميات العالم، وليست شعباً بل مجموعة «عينات» لشعوب البشرية جميعاً: إن «الشعب المختار» ما هو بشعب وما هو بمختار! والنتيجة أن دولة إسرائيل - دولة الجيتو - دولة دينية بحتة لا تضم إلا مجتمعاً طائفياً محضاً.

ولقد علق كاتب غربى محايد على هذا ببلاغه وصدق فقال: إن إسرائيل إذا كانت متعة طالب الأنثروبولوچيا فانها أضحوكة طالب العلوم السياسية !

فهل ينجح الدين حقاً فى أن يلحم هذه الأشلاء الأضداد؟ إن التجربة القومية الحديثة فى العالم قد أثبتت بلا جدال أن الدين إذا

كان «أسمنت» القومية على الأكثر أو «طلاؤها» على الأرجح. فإنه ليس «خامتها» على الإطلاق. ولكن الصهيونية لكى تفتعل خامة ما لقومية فاقدة لا وجود لها قد حولت الدين إلى تعصب سفاح، والعقيدة إلى عقدة حقد أسود. فراحت على أساس هذا الدين المنحرف أو المحرف تجمع بالسرقة والاغتصاب مقومات القومية المزيفة من كل ركن من أركان العالم: أرضا مسروقة فى فلسطين، وشعباً مزعوماً مدعياً من كل مستنقعات البشرية ومضاحلها. ولغة منحولة من مقبرة التاريخ.

الطائفية فى إسرائيل

لخص أحد الكتاب الأمريكيين كل الهيكل البنائى للمجتمع الإسرائيلى فى أنه هرم مدرج أو بالدقة مخروط مثلث القاعدة أبعاده هى الدين والجنس والطبقة. فالتمييز والتفرقة بكل أشكالها هى جوهر هذا المجتمع المخلط المهلهل. ولعل الأساس

الطائفى أمر مفروغ منه باعتباره الأساس القاعدى فى تخليق أو إختلاق هذه الدولة «الصليبية الجديدة» ويكفينا لذلك أن نذكر هنا بعض مظاهر الاضطهاد الذى ينال الأقليات الدينية فيها والتى يبلغ عددها نحو ١٩٦ ألفاً من المسلمين (منهم ٢٤ ألفاً من الدروز) ونحو ٥٢ ألفاً من المسيحيين (أرقام ١٩٦٢).

يكفينا أن نذكر كيف أن إسرائيل تمتهن الإسلام والمسيحية على حد سواء فى داخل الأرض المقدسة. وتهدم المساجد والكنائس بلا تفرقة وتحت حجج واهية مفتعلة أو تحولها إلى كنيس يهودى. وتضطهد التعليم الدينى غير اليهودى وتحاربه. بل هى تفرض التعليم اليهودى على الأطفال غير اليهود بهدف مخطط هو محاولة تهويدهم بالتدريج. وهى فى نفس الوقت تصادر الحرية الدينية فى ممارسة العقيدة للمسلمين والمسيحيين. وتضطهد هذه الأقليات اضطهاداً مكشوفاً.

وهى فى الوقت الذى تحاول فيه أن تدق بالدس والفتنة إسفيناً

بين العرب المسلمين والعرب المسيحيين لا تنسى أن تفتت كل أقلية منهما إلى أكبر عدد ممكن من القطاعات الطائفية، فتضغط على التفرقة بين الكاثوليك والمارونيين مثلاً، كما تتعمد باصرار معاملة الدروز ككتلة بذاتها وليست كجزء لا يتجزأ من المسلمين. وسياسة إسرائيل فى هذا واضحة مكشوفة هى تمزيق الأقلية الدينية إلى شظايا سديمية مفتتة.

على أن إسرائيل إذا كانت طائفية متعصبة ضد الأقليات الدينية فيها، فهل هى تنجو من النعرة الطائفية بين الصهيونيين أنفسهم؟ لا شك أن مما له مغزاه الكبير أن هناك توترات مزمنة واحتكاكات خطيرة بين مختلف فئات اليهود كما بين اليهود القرائين وبين اليهود الربانيين، أو كما بين سائر الفرق والشيع الأخرى. وتنعكس هذه التيارات الطائفية على التشكيل الحزبى لإسرائيل، فكثير من أحزابها له ميول وخطوط طائفية محددة، بل وهناك أحزاب تقوم على أساس ومبدأ طائفى سافر «كالحزب

الدينى القومى» وأحزاب «المتدينين» مثلاً. ويصل التناقض والسخرية إلى منتهاها فى «وزارة الشئون الدينية» التى قل أن نجد لها مثيلاً فى دولة عصرية حديثة تدعى بالتمويه والرياء الديموقراطية والتقدمية أمام العالم المتمدين.

مجتمع عنصرى طبقى

أما أن إسرائيل دولة عنصرية فإن أبواق الصهيونية والاستعمار تحاول أن تقلب الحقيقة رأساً على عقب وتصورها ضحية للعنصرية لا مشتلاً لها. والحقيقة أننا لا نعرف جانباً فى دعاوى الصهيونية يجتمع فيه التضليل بالغفلة كما يجتمعان فى هذا الجانب، فحقاً كانت النازية «دولة جنسية» كما وصفها علماء السياسة. وحقاً كان اضطهاد اليهود هو الوجه الآخر للعنصرية الآرية، لكن أن نسمى هذا «بضد السامية» فهذا هو الخطأ الشائع الذى نجحت الصهيونية فى إدخاله وتمويهه على العالم، وتقبله هذا بلا تفكير، بل ونردده نحن بحسن نية.

ذلك أننا قد رأينا أن اليهود ليسوا من بنى إسرائيل وليسوا فى أغلبيتهم الساحقة ساميين بل آريين جسماً ولساناً. وتقبلنا لتسمية إضطهاد اليهود فى أوربا بضد السامية هو إعتراف خاطئ منا بأصول لهم فى الأرض المقدسة. فى هذا المعنى ليست ضد السامية إلا وهماً عريضاً أو أسطورة مكذوبة ولكنها مع ذلك صحيحة كل الصحة فى معنى آخر، معنى اليهود فيه فاعل لا مفعول به. فنحن نقرر أن ليس هناك ضد سامية إلا هذا الاضطهاد وهذه العنصرية التى تمارسها الصهيونية الأوربية الآرية الدخيلة ضد عرب فلسطين السامية السليبة ! وقد آن لنا ولأجهزة دعايتنا أن تدرك هذه المغالطة الكبرى وتكشفها للعالم الخارجى المخدوع.

إسرائيل تعيد تاريخ الاضطهاد

فالحقيقة أن إسرائيل قد نقلت كل ما تلقته من عنصرية إضطهاد فى أوربا إبتداء من موجات «البوجروم» Judenhetze Pogroms الروسية إلى «اليودينهتزه» النازية نقلتها إلى العرب بعد أن أضافت إليها من عندها أسود ما فى تلمودها من عنصرية وحقد، وجمعت إليه أسوأ ما توصلت إليه العنصرية بعد ذلك وهى عنصرية جنوب أفريقيا. ذلك كله كان المسودة التى عكستها إسرائيل فى النسخة النهائية على العرب.

فأولا، مذابح إسرائيل الغادرة وإرهابها الوحشى الدموى فى فلسطين أثناء الانتداب وفى حرب فلسطين وبعدها - يكفى أن نذكر أسماء دير ياسين وقبية وكفر قاسم - تزرى بكل حمامات دم هتلر وغرف غازه المبالغ فيها. فكما يقول توينبى: «إن الخطيئة التى إرتكبها اليهود ضد العرب أكبر من الخطيئة التى إرتكبها النازى ضد اليهود».

ثانياً، لقد عكست الصهيونية كل تاريخ اليهود فى التوراة على العرب فى القرن العشرين. فطرد المليون لاجئ وتشريدهم هو «الخروج» الجديد، أما إنتشارهم فى الدول العربية وهو «الشتات» الجديد ، وأما من بقى من عرب فى إسرائيل فيعيش فى «حظيرة» جديدة تقابل « الحظيرة اليهودية » Jewish Pale القديمة ، وكما « مرروا حياتهم فى الطوب والملاط » فى التوراة فكذلك يشقى العرب فى حظيرتهم الإسرائيلية بالبطالة والعدم والتنكيل . وفى مقابل « الأسر البابلى » نجد العرب اليوم فى ظل الحكم العسكرى فى أسر إسرائيلى حقيقى بكل معنى الكلمة!

الأقلية العربية فى إسرائيل

الحقيقة الواضحة إذن هى أن إسرائيل ليست إلا «استعماراً سكنياً» فى أبشع صوره لا يقوم على الاحتلال السياسى فقط، وإنما أساساً على الإحتلال الجنسى. فهو محاولة لإبادة الجنس

وقتل للإنسان العربى بمثل ما هو إبتزاز للوطن وتمزيق الوحدة الأساسية للعالم العربى وتخليط لعروبته وتاريخه.

وهذه الملامح تتأكد حين نحلل ما تفعله إسرائيل بالأقلية العربية. هى تبلغ حالياً ٢٤٨ ألفاً (قل ربع مليون) بنسبة ١١,١٪ تقريباً من مجموع إسرائيل البالغ ٢,٢٣٠,٠٠٠ (أرقام سنة ١٩٦٢). وكل الأدلة تشير إلى أن هناك خطة موضوعة مدبرة طويلة المدى لتصفيتهم وإنقراضهم. فهم فى نظر الدولة ليسوا حتى مواطنين من الدرجة الثانية، ولكنهم «طابور خامس وزائدة دودية إذا استكانت فهى لا جدوى منها وإذا تحركت فشر مستطير».

لهذا فقد حرصت إسرائيل على أن تحدد توزيعهم فى مناطق الحدود الهامشية أساساً حيث يوجد ٨٠٪ من كل العرب. أولاً لأنها «حد الموسى» وخط النار الأول. فيصبحون أول طعمة للنيران إذا حدث صدام مسلح مع الدول العربية. ولكن إسرائيل

تنسى أن هذا سلاح ذو حدين. وأن هذه الأقليات الحدية يمكن كذلك أن تكون رأس الحربة مع طليعة الزحف العربى حين الزحف.. أما السبب الثانى الذى من أجله تحصرهم إسرائيل على الهوامش فهو لحثهم على الفرار عبر الحدود إلى البلاد العربية بالضغط المتصل على حياتهم وبذلك يتم التخلص منهم تدريجياً.

ثالثاً، لأن مناطق الحدود هى أفقر أجزاء فلسطين تربة ومطراً وماء، وبذلك يعيشون تحت «خط الجوع الدائم» فى ظروف مجدبة مادياً وإقتصادياً بمثل ما هى مجدبة سياسياً.

ولكن مع التوزيع الهامشى لا تدعهم إسرائيل يتجمعون فى نطاق واحد أو كتلة متماسكة. بل لقد عمدت إلى تفتيتهم إلى قطاعات متباعدة ثلاثة فى أقصى الشمال والوسط والجنوب. وتقل هذه القطاعات حجماً كلما إتجهنا جنوباً. فالنواة الرئيسية فى الجليل على الحدود اللبنانية السورية حيث يتركز نحو ١٥٠ ألفاً أو أكثر من نصف الأقلية العربية. ومركز الثقل المطلق هو

الجليل الغربى بالذات حيث تزيد نسبة العرب بالفعل على نسبة اليهود، وحيث لا تزال الناصرة وشفا عمرو، مدناً عربية أساساً. أما جيب الوسط فهو «المثلث الصغير» فى أطراف السامرة إلى الجنوب الغربى من مدينة طولكرم والذى كانت قد سلمته الأردن للعدو بعد الهدنة. فهنا يتجمع نحو ٤٠ ألفاً من العرب. والجيب الثالث والأخير على أطراف النقب وأفراده من البدو الرحل الذين قد يبلغ عددهم نحو ٢٥ ـ ٣٠ ألفاً الآن. وواضح أن هذا النمط الممزق المتقطع يحقق أغراض إسرائيل فى «تعقيم» قوة العرب فيها وتفتيت فاعليتها.

على أن إسرائيل لا تترك العرب بعد هذا فى هذه «المعازل» فى سلام. بل لقد أخضعتها للحكم العسكرى الرهيب ولكل ألوان الإضطهاد والمطاردة والحصار. فمِنْ منع للتجول والانتقال بين القرى إلى تصاريح تعجيزية للحركة. إلى عملية نزع منظمة للملكية «تشرعها» بكل فنون الاحتيال «القانونى» إلى غارات

«صيد بشرى» حقيقى تعمل فيها التقتيل فى الفلاحين والبدو. إلى حملات نسف للقرى العربية وطرد لسكانها إلى البلاد العربية عبر الحدود... الخ. ونحن نظلم «معسكرات الاعتقال» إذا نسبنا إليها هذه المنازل كما لا نقترب من الحقيقة إلا قليلاً إذا تكلمنا عن «أبارتيد صهيونى» وتهدف إسرائيل - التى يفزعها معدل المواليد العربى المرتفع - تهدف بهذه البربرية التترية إلى رفع معدل الوفيات بين الأقلية العربية حتى تصفى بالضمور التدريجى.

أما العدد القليل من العرب الذى يعيش فى المدن الكبيرة والذى لا يزيد عن ٥٠ ألفاً فليس أسعد حظاً، فهو تحت رحمة الصهيونية مباشرة، ويخضع لكل ألوان الكبت والقسر، كما يفرض عليه «العزل الاجتماعى» فلا يسكن إلا فى أحياء منعزلة هى مدن العشش ومدن الصفيح. بمعنى آخر لقد أصبح العرب - للتناقض والسخرية - هم أصحاب «الجيتو» الجديد فى دولة الجيتو البوليسية !

العنصرية فى مجتمع صهيون

ولكن هذه التفرقة العنصرية المقننة ضد الأقلية العربية ليست إلا القاعدة السفلى فى نظام عنصرى كامل يشمل كل هذا المجتمع الشاذ. فالواقع أن إسرائيل تمثل نظام طبقات بالمعنى الهندى الكلاسيكى (نظام الكاست) الذى يحدد العرق والعنصر إلى جانب الغزو والقهر موقع كل فرد فيه. فالعرب هنا يقابلون «المنبوذين» مباشرة فى النظام الهندى، أى يقعون خارجه تماماً. أما اليهود فقد كان اليهود الغربيون أو الاشكناز الأوربيون هم الذين خلقوا الصهيونية وصنعوا إسرائيل، ومنهم كانت كل موجات الهجرة التى سبقت إنشاء الدولة سنة ١٩٤٨، وهم يعتبرون أنفسهم سادة إسرائيل وقمتها على أساس اللون والجنس وعلى أساس الأقدمية فى الهجرة.

أما منذ سنة ١٩٤٨ فقد حدث تحول كبير فى مصدر الهجرة الصهيونية فقلت مساهمة أوروبا الشرقية والوسطى، وارتفعت

بشدة كثافة الهجرة من السفارديم من الشرق الأوسط والأدنى وشمال أفريقيا ومن اليهود الشرقيين من اليمن وآسيا. فمثلاً فى سنة ١٩٤٨ كانت نسبة اليهود المهاجرين من آسيا وأفريقيا ٥ ٪ من جملة الوافدين، ولكنها ارتفعت فى سنة ١٩٥٤، ١٩٥٥ إلى ٨٠ ٪. وفى الوقت الحالى يكاد الاشكناز والسفارديم يتعادلون فى كفتى الميزان. وقد إعتبر الاشكناز هذا خطراً يهدد دولتهم حتى صرخ بن جوريون مرة: هل تريدون أن تتحول إسرائيل من دولة غربية إلى دولة شرقية؟ فالشكناز ينظرون إلى السفارديم والشرقيين نظرة إحتقار وإزدراء وإستعلاء، لأنهم إما من «الملونين» وإما من مستوى حضارى متخلف وضيع وأسلوب حياة «شرقى»، وإما لأنهم هم «المهاجرون الجدد» ـ وفى كل مجتمعات الهجرة يحتكر المهاجرون القدماء الصدارة والسيطرة، ويفرضون على الجدد المراكز المنحطة فى المجتمع.

من الصراع العنصرى إلى الصراع السياسى

ولهذا نجد الحكم والنفوذ، وكل الوظائف القيادية والمشرفة والثروات والملكيات... الخ. حكراً على العنصر الأوربى الشكنازى. بل إن التمييز يصل إلى نوع الحرفة والسكنى. فالاشكناز قد وضعوا أيديهم على الحرف الثانية «الصناعة» والثالثة «التجارة والخدمات» التى تدر أعلى الدخول، وتركوا الحرف الأولية «الزراعة» للسفارديم، والشرقيين. والاشكناز يتركزون فى المدن الكبرى أساساً حيث يعيشون فى بيئات حضارية كاملة، بينما يتبعثر السفارديم فى المستعمرات المتطوحة والمعابر (المعبروت) البدائية. وليس غريباً بعد ذلك أن يقوم بين العنصرين حواجز بيولوچية، فكل منهما يتزاوج تزاوجاً داخلياً صارماً. وحيث يجتمعون فى المدن يتم بينهم العزل السكنى، فلكل أحياؤه الخاصة.

ومعنى هذا أننا بإزاء مجتمع متكلس يقيم الحاجز الحضارى

كما يقيم الحاجز اللونى، وهو إذا كان يعرف المزج الميكانيكى الخامل فإنه أبعد ما يكون عن الخلط الكيماوى المتفاعل، ولا يعيش إلا فى ظل إنفصال شبكى وإنفصام فى شخصيته بعيداً كل البعد عن فكرة «البوتقة» الأمريكية مثلاً.

باختصار إذن، إذا كان العرب هم المنبوذون فى نظام الكاست الصهيونى، فإن السفارديم والشرقيين هم زبد (بفتح الزاى والباء) المجتمع والشكناز هم زبدة (بضم الزاى). ولهذا فليس غريباً أن تصل المأساة إلى حد الصراع العنصرى السافر الذى يزمن فى الحياة اليومية الجارية ثم يتأزم وينفجر فى تشنجات وتصادمات تاريخية مسجلة. ومرة أخرى تلخص الحياة الحزبية هذا التوتر المزمن: فنجد مثلاً أحزاباً وهيئات سياسية عنصرية الأساس كما يقرأ من أسمائها: مثل الناشيونال سيفاردى، والآتحاد الوطنى السفاردى، وهيئة شمال أفريقيا ليكود، والحزب المستقل وهو خاص بمهاجرى شمال أفريقيا أيضاً، ومنظمة

المهاجرين الجدد... الخ. أما الانتفاضات الخطرة فتتمثل فى حادثة وادى صليب التى وقعت فى حيفا فى عام ١٩٥٩ حيث تحول الصراع العنصرى إلى لون من الصرع السياسى أو يكاد.

خريطة المجتمع الإسرائيلى

من هنا نرى أن التركيب الاجتماعى الإسرائيلى قام فى واقع الأمر على أساس أن يشترك كل من اليهود الأوربيين والشرقيين فى إستعمار العرب، على أن يقوم اليهود الغربيون بعد ذلك بإستعمار اليهود الشرقيين، وهو فى هذا وذاك لا يخرج عن نمط الإستعمار الأوربى التقليدى فى المداريات. والحديث بعد هذا عن مجتمع أسرائيل «الاشتراكى» خدعة كبرى وأكذوبة رخيصة، لا لأن اليهودى - من سواه؟! - رأسمالى بالطبع فقط، ولكن لأنه مجتمع يجمع بالفعل والواقع بين رأسمالية إستغلالية عاتية للاشكناز وبرولتارية معدمة للشرقيين والسفارديم على أشلاء

شعب طريد، ويمكن أن نلخص العقد الاجتماعى فى إسرائيل فى أنه ليس إلا عقداً على أن تعمل برولتارية السفارديم واليهود الشرقيين لحساب رأسمالية الاشكناز على أرض العرب السليبة.

والذى يتأمل الخريطة الاجتماعية لإسرائيل فى ضوء هذه الحقائق يجد نمطاً جغرافياً غريباً وملحاً. فالطبقية الهرمية التى تحكم مجتمع إسرائيل على الأسس الطائفية والعنصرية والاقتصادية لا تأخذ شكلاً رأسياً فحسب وإنما أفقياً كذلك، كأنما تلقى بظلها على أرض الدولة. ففى المدن الكبرى على الساحل وفى أغنى نطاق فى إسرائيل يتركز الاشكناز الحكام. الملاك. أصحاب الصناعة والخدمات والتجارة. وفى الداخل الأقل غنى والذى تسوده الزراعة ومستعمرات الكيبوتز والموشافا وحلات المعبروت. يسود السفارديم والشرقيون عمالا وفلاحين. وفى أقصى الداخل على الحدود يتقوقع العرب طريدين معزولين فى أقصى وأقسى المناطق والظروف الحدّية حيث الجفاف والجدب وحيث يتأرجحون بين الزراعة الفقيرة والرعى الرحل...

بروفيل إجتماعى وإقتصادى وعنصرى آثم ظالم، وقطاع طبقى لن تخفيه أكاذيب الصهيونية عن العالم بعد اليوم، كما يعود بنا إلى فكرة التشبيه بنظام الكاست وتوزيعه الطبقى داخل صندوق الهند المغلق.

وبعـــــد

وبعد. فإن إسرائيل لا نقول بيت عنكبوت ولكن بناء ملئ بالثقوب يقوم على أرض أكثر إمتلاء بالحفر. والعلل الأصيلة فى مجتمعها هى نقط قوة لنا فى صراعنا ضدها ونقط ضعف محققة لها.

ولكن إسرائيل لن تهزم بالنقط، وإنما بالضربة القاضية ستهزم. ولهذا سيظل الرد على وجودها الآثم هو المدفع وحده فى التحليل الأخير. ولكن حتى وقتها من الضرورى أن نفضح حقيقة المجتمع الصهيونى أمام العالم المخدوع حتى يتخلى عن تحيزه أو لا مبالاته.

فلسفة الحضارة

الفصل السادس

ليس اليهود من بنى إسرائيل!

«إن العرب واليهود أبناء عم من الناحية العنصرية». بهذه الجملة الخطيرة وبهذا الجزم القاطع يخاطب فيصل ابن الحسين، الهاشمى الذى سيصبح ملكا على العراق فيما بعد، يخاطب القاضى الأمريكى اليهودى فيلكس فرانكفورتر فى ١٩١٩. وهو بعد أن يضيف إلى قولته التشابه فيما تحمله العرب واليهود من إضطهادات ومظالم وفيما تمكنوا من القيام به فى طريق تحقيق أهدافهم القومية، يرتب على تلك المقدمة نتيجة سياسية تتفق معها فيما يبدو له وهى «أننا سنرحب باليهود ترحيبا قلبيا فى عودتهم الى البلاد... وهناك مجال فى سوريا يتسع لنا جميعا». ويعود نفس المتحدث إلى نفس الفكرة ليؤكدها فى مؤتمر الصلح بباريس فى نفس العام فيعلن أن «هناك صلات وثيقة من القرابة والدم بين العرب واليهود، كما أنه ليس ثمة تعارض واضح فى الصفات المميزة للشعبين»..

وبعد نحو نصف قرن من هذه التصريحات التى تصدر على مستوى القيادة السياسية ولكنها تتكلم، أو تسمح لنفسها أن تتكلم، كما لو بلسان الأنتروبولوچيين، تعود نفس النغمة لترتفع على نفس المستوى وبنفس اللسان، حين أعلن السعودى فيصل أثناء زيارته للولايات المتحدة فى العام الأخير أنه لا يكن شيئا ضد اليهود (يقصد تمييزا لهم عن الصهيونيين) «لأننا أبناء عمومة فى الدم». وهذا حسين الاردن آخر الهاشميين يأتى من بعده ليعلن أخيرا جدا أن العرب واليهود عاشوا مراحل طويلة فى التاريخ جنبا الى جنب وفى صداقة كأقارب وجيران..

عميقة إذن هى الفكرة، فكرة قرابة الدم بين العرب واليهود، ومنتشرة متفشية هى إذن بين الكثيرين لا فى الخارج فحسب ولكن بين العرب أنفسهم، بل وعلى مستوى قياداتهم، بغض النظر عن كونها قيادات رجعية دعية فُرضت أو فرضت نفسها عليهم، ولا جدال أن لهذا الفكرة نتائجها وتخريجاتها السياسية

التى يمكن أن ترتب عليها، كما فعل فيصل بن الحسين فى الواقع حين رحب باليهود فى سوريا فى النص السابق!

فرغم أن من الثابت المقرر فى القانون الدولى أن ترك شعب لوطنه آلافا سحيقة من السنين لا يمكن إلا أن يحرمه كل حق فى المطالبة بالعودة إليه الآن، ورغم أن الفقهاء الدوليين يسخرون من مجرد فكرة إعادة تشكيل الخريطة السياسية للعالم على أساس غزوات وهجرات وتوزيعات الماضى الغابر، الأمر الذى يمكن أن يقلب صورة الدنيا رأسا على عقب بشكل ساخر بل سخيف لا يتصور، نقول رغم هذا كله فإن فكرة قرابة العرب واليهود فى الدم قد يمكن أن تلقى بعض ظلال على قضيتنا المصيرية الأولى فى فلسطين، وقد يمكن أن تفتح بابا للحلول الخاطئة أو الخائنة، سيئة النية أو ساذجة النية.

وليس هذا مجرد إستدلال أكاديمى أو إسقاط منطقى، وإنما هو بالفعل ما نجده فى أكثر من دائرة من الدوائر العربية وغير

العربية. فليس بعيدا مشروع الملك عبد الله، الذى اقترحه بنفسه على بريطانيا حلا لمشكلة فلسطين فى الاربعينات، من إنشاء «مملكة سامية» يكون هو على رأسها ويكون لليهود فيها حكمهم الذاتى! وفى السنوات الأخيرة ترددت فكرة «الاتحاد الفيدرالى السامى» بين بعض اليهود من صهيونيين وغير صهيونيين وضد الصهيونيين. ولعلنا أن نكتفى منها هنا بذكر مشروع ألفريد ليلينتال فى كتابة الاخيرThe Other Side of the Coin الذى يقترح فيه أن يعود الصهيونيون الاسرائيليون الذين من أصل أوروبى الى أوروبا، ويبقى الاسرائيليون الذين هم من أصل شرقى فى فلسطين، وذلك مع عودة عرب فلسطين اليها ليعيشوا معهم فى دولة واحدة جديدة، تدخل مع الوقت فى علاقات اقتصادية مع بقية الدول العربية، متطلعة إلى إتحاد إقتصادى مع الأردن وغزة ومتجهة فى النهاية إلى «اتحاد سامى» كبير!

ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه المشروعات أو نقدها، فكل حل لا يعيد الوضع إلى ما كان عليه قبل ١٩٤٨ بل قبل ١٩١٨ مرفوض بلا نقاش، وكل حل لا يزيل اسرائيل من الوجود لا محل له من البحث العلمى، ولكن سؤالنا المحورى هو الأساس الجنسى المزعوم فى تلك المشروعات: أحقا نحن أقارب اليهود وأبناء عمومتهم؟ على أى أساس علمى ذلك، وأى دليل تاريخى ينهض بذلك؟ واضح أن المجال هو مجال الأنثروبولوچى والأنثربولوچيا ـ علم الانسان ـ بما يحلل من تاريخ قديم وحديث وبما يدرس من لغة ووثائق دينية وبما يقتبس من أجسام وصفات تشريحية ووراثية ... الخ.

ونحن نلاحظ ـ أن أغلب كتاباتنا فى العربية عن العدو الاسرائيلى تأخذ من جملتها الصبغية السياسية المباشرة أو غير المباشرة التى تعامل العدو كمعطيات مفروغ منها أو ككم معلوم بدرجة أو بأخرى دون أن تحاول أن تنفذ الى حقيقة كيانهم وتركيبهم: فالكل يهود أو صهيونيون، والكل يعيشون فى كنف

الاستعمار وحمايته، والكل أتى بصورة غامضة من نسل يهود الشتات الذين أتوا بدورهم من سلالة يهود فلسطين التوراة... الخ. وفى هذا الاطار التجريدى الضيق، أو المتعجل غير المتأنى - الذى قد يكون عملياً ومفهوما فى ذاته - تبدو صورة العدو فى أذهاننا باهتة عائمة بالغة السطحية، ونبدو أحيانا - أكاد أقول - كما لو كنا نطارد شبحا! ونحسب أننا لهذا كله بحاجة إلى دراسة علمية محققة تقتنص هذا الشبح، تجسده، ثم تشرحه أصلا وتاريخا، جنسا وتركيبا، تطورا وتوزيعا... الخ.

ونحن هنا سنبدأ بالأصول القديمة فى التاريخ الجنسى والدينى، ثم نتتبع إنتشار اليهود فى العالم هجرات وتوزيعا، حتى إذا ما اكتملت لنا الصورة الراهنة حللنا التكوين - الأنثروبولوجى لليهود حتى نعرف من هم وما الدماء التى تجرى فى عروقهم، وإلى أى حد ينتمون إلى أصولهم الأولى ومن ثم إلى أى درجة قرابة ينتسبون إلى العرب أو ينتسب العرب إليهم.

وفى تقديرنا أن مثل هذه الدراسة أصبحت ضرورة شرطية لأى فهم عربى سليم أو عرض لقضيتنا الكبرى بعد أن اختلط الأمر بالدعايات الصهيونية المغرضة المضللة وتزييف التاريخ وإبتسار الحقيقة العلمية ذاتها. كذلك لا بد أن نبادر من البداية فنحذّر من أن كثيرا من الكتابات العلمية البحتة فى الموضوع ينبغى أن تتناول بحذر واحتراس شديدين لأنها تعتمد ـ فعلا أن لم تعترف علنا ـ على المصادر اليهودية والصهيونية أساسا، وهى من ثم قد تنقل عمدا أو عن غير عمد وجهات نظر محددة ومحسوبة سياسيا.

ونحن من جانبنا ـ على صعوبة المحاورة نفسيا وقوميا ـ لن نترك لتحيزنا السياسى الحق الواجب، أن يتدخل فى معالجة علمية موضوعية، لا لسبب إلا لأن الدرسة العلمية الخالصة تؤازر ـ كما يتفق ولحسن الحظ ـ القضية السياسية وتدعمها ولا تتعارض معها فى الجوهر والصميم. إن الحق والحقيقة ـ كما سنرى ـ فى جانبنا على حد سواء.

فى التاريخ القديم

أول ما نسمع عن اليهود فى التاريخ مع إبراهيم - أبى الأنبياء إبراهيم الخليل - الذى ظهر مع قومه فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد كجماعة من الرعاة الرحل على المشارف والتخوم الاستبسية لجنوب العراق الذى كان يؤلف دولة الكلدانيين فى أور. ومن قبل كان ابراهيم وقومه قد خرجوا من قلب الجزيرة العربية التى نشأوا فيها كجماعة من الجماعات السامية العديدة التى تأصلت فى ذلك «الخزان البشرى» الشهير الذى لم يتوقف عن أن يقذف - كأقليم طرد وكصحراء فقيرة ولكنها «ولود» - يقذف بالموجة تلو الموجة الى منطقة الهلال الخصيب المتاخمة والجذابة.

ففى حوالى ١٨٠٠ ق.م هاجر إبراهيم وقومه، فى دورة عكس عقارب الساعة، شمالا بغرب ثم جنوبا على طول حواف الهلال الخصيب حتى وصلوا الى حوران ثم الى فلسطين. وهناك سيولد

له إسحق، ولإسحق سيولد يعقوب، ومن أبناء يعقوب الاثنى عشر ستتأصل الأسباط أو القبائل الاثنا عشر الشهيرة فى التاريخ والتوراة. ولكن هجرة إبراهيم إلى فلسطين وإن كانت أولى هجرات القبائل اليهودية فإنها لم تكن الأخيرة، ذلك أنهم لم يأتوا مرة واحدة كجسم موحد، وإنما على عدة دفعات ومن عدة طرق وتحت عدة قيادات، والهجرة الثانية مثلا كانت فى القرن ١٤ ق.م.

ولا بد لنا هنا من وقفة سريعة عند تسمية ـ أو بالأخرى تسميات ـ اليهود، ثمة تسميات ثلاث مترادفات: إسرائيل والعبريون واليهود. والأولى نسبة مباشرة إلى إسرائيل الاسم البديل ليعقوب، أما العبريون فالمقول أنها مشتقة من هجرتهم من كلدان الى كنعان حيث «عبروا» النهر ـ نهر الفرات أو نهر الأردن، ولا ندرى أيهما المقصود تماما ـ فسموا بالعبرانيين، ويقابل هذه التسمية عند المصريين القدماء كلمة Halivru, وعند البابليين Khelivru، ولو أن هذه وتلك تعنى، فى رواية، البدو أو

اللصوص أو المرتزقة، كما وصفهم أعداؤهم فى كنعان إشارة إلى طبيعتهم كرعاة متخلفين حضاريا بالنسبة. أما التسمية باليهود فتدل أصلا على أبناء يهود Jadah Jehudahi أحد أبناء يعقوب، الذين أصبحوا يمثلون البقية الهامة من بنى اسرائيل بعد الأسر البابلى فصارت تطلق فيما بعد على الاسرائيليين جميعا. وإسم يهودا نفسه قريب من إسم إله الشعب هو Jahueh,Jehouah ، التى قد تكون بدورها تحريفا للنداء العربى يا هو (؟).

كيف وجد اليهود فلسطين؟ وجدوها أرض كنعان أساسا، نسبة الى سكانها الكنعانيين، والكنعانيون فى التوراة أبناء كنعان بن حام بن نوح، وهم أول من سكن فلسطين على أرجح الآراء، وفى الدراسات السامية القديمة أن الكنعانيين - هم الآخرين - قبيلة سامية من الساميين الشماليين، جاءت أصلا من الجزيرة العربية منذ ٢٥٠٠ ق.م - وفى رواية أخرى منذ ٣٥٠٠ ق.م - وكانوا قد استقروا بفلسطين منذ ألف - أو ألفى - سنة وأقاموا بها حضارة راقية.

وقد كان على العبرانيين ليستقروا بأرض كنعان أن يحاربوا الكنعانيين، ولكنهم لم يسيطروا إلا على التلال والأراضى الفقيرة الداخلية، وظلت السهول الغنية فى أيدى الكنعانيين الأصليين. وأغلب تاريخ اليهود فى تلك المرحلة تاريخ دموى لا أخلاقى يدور حول الحرب والغزو، الا أن الهزيمة كانت من نصيبهم غالبا، وعلى أيدى الفلسطينيين أقوى أعدائهم بصفة خاصة، حتى إذا كان منتصف القرن ١٧ ق.م، أى بعد ١٥٠ سنة فقط من هجرة إبراهيم، هاجر يعقوب وأولاده الى مصر بسبب القحط المشهور وفيها استقروا بأرض جاشان Land of Goahen. (وادى الطميلات والشرقية) نحوا من ٣٥٠ سنة الى أن خرج بهم سيدنا موسى (من الجيل السابع بعد ابراهيم) حوالى ١٣٠٠ ق.م وذلك هربا من إضطهاد فرعون (رمسيس الثانى) الذى إستبعدهم «ومرر حياتهم فى الطوب والملاط» إنتقاما منهم لتعاونهم فى خيانة واضحة مع الهكسوس غزاة مصر.

وفى التوراة أن قوة هذا «الخروج» كانت ٦٠٠ ألف نسمة، وكانت العودة الى أرض كنعان الهدف، غير أن خوف اليهود من الكنعانيين «العمالقة» أدى بهم الى المعصية فعقاب التيه فى سيناء ٤٠ سنة، ويرى البعض أن الحكمة من التيه، الذى إمتد بذلك الى مدى جيل كامل تاريخيا فى بيئة صحراوية قاسية جغرافيا، هو إخضاع اليهود لعملية صارمة من «الانتخاب الطبيعى» تصفى وتستبعد منهم العناصر الضعيفة الحائرة وتنتخب العناصر القوية الصلبة، وبذلك تبدل من جيل هش منسحق الى جيل مجدد فوار يصلح للرسالة. وهكذا كان، إلى أن قادهم يشوع الى نهر الأردن حيث إنتزعوا بعضاً من أرض كنعان فى الداخل، ولكن دون العاصمة يبوس (القدس) وساحل الفلسطينيين.

وفى فجر الألف الأولى قبل الميلاد بالضبط (بالتحديد عام ١٠٠٠ ق.م) وحّد داود الأسباط أو قبائل إسرائيل، الأثنى عشر، وهزم اليبوسيين والفلسطينيين وأسس ووسع مملكة إسرائيل

حتى إمتدت «أرض اسرائيل Erets Israel من دان الشمال الى بير سبع فى الجنوب، واتخذ من يبوس عاصمة لها بعد أن تحول اسمها الى أورشليم أى مدينة السلام Ierouschoulaim .

غير أن الدولة - التى لم تصل قط أو بالكاد إلى الساحل - لم تلبث أن إنشطرت بعد خليفته سليمان صاحب الهيكل الى مملكتين: مملكة يهوذا جنوبا فى هضبة يهودية، وتضم قبيلتى يهودا وبنيامين، ومملكة اسرائيل شمالا فى السامرة، وتضم القبائل العشر الباقية. ومن المهم والطريف أن نلاحظ أن حدود هاتين الدولتين تتفق إلى حد أو آخر لامع رقعة اسرائيل المزعومة حاليا وإنما مع رقعة الضفة الغربية من دولة الاردن.

المهم أن الدولتين، اللتين أصبحتا متعاديتين متحاربتين، وقعتا فى سياسة المضاربة بين مصر والعراق أو الخضوع لهما، فتعرضت المملكة الجنوبية لطَرْقَات مصر مرتين: الاولى على يد شيشنق والثانية على نخاو، إلى أن جاء دور المملكة الشمالية حين

قضى عليها نهائيا سرجون الأشورى فى القرن ٨ق.م (عام٧٢١)، ثم قضى نبوختنصر البابلى على الجنوبية فى القرن ٦ق.م حيث دمر أورشليم والهيكل (٥٨٦ق.م) . وبذلك زالت إلى الأبد دولة اليهود فى فلسطين بعد حياة طولها أربعة قرون فقط يغلب عليها الطابع الدموى العنيف. بينما أن كل إقامة اليهود المتصلة فى فلسطين لم تزد عن ستة قرون من ١٢٠٠ق.م حتى ٥٨٦ق.م.

الشتات البابلى

واذا كانت الفترات السابقة معا هى المرحلة التكوينية ـ سفر التكوين ـ فإن من بعدها يبدأ سفر الخروج والشتات Diaspora الذى يمكن أن نميز فيه ثلاث دورات أو أربعا. فقد، فقد بدأ سرجون ينقل كثير من إسرائيليى السامرة من أبناء القبائل العشر إلى بابل وأسكن مكانهم بعض أسراه من البلاد المفتوحة

الأخرى. ولكنه نبوختضر بالذات الذى نقل أغلبية اليهود ـ آخرون يقولون ربع سكان يهودية ـ أسرى الى بابل، والمقدر أن عدد اليهود قبل ذلك بلغ زهاء ثلاثة أرباع المليون. ذلك كان «الأسر البابلى» الشهير الذى يمكن أن يعد الشتات الاول.

واذا كان الفرس. بعد أن هزموا بابل واحتلوها وممتلكاتها فى فلسطين، قد سمحوا لليهود بالعودة إلى أورشليم بعد نحو نصف قرن من الأسر البابلى، فإن قلة ضئيلة هى التى عادت، وتقدر بنحو ٥٠ ألفا. وحتى هذه لم تجد ترحيبا لأن أرض أجداداهم كان يحتلها الآن أسرى سرجون الذين وطنوا بها، ولذلك أسكنوا فى منطقة يهودية جنوبية حيث لم يطرب لعودتهم حتى اليهود المقيمون أنفسهم.

أما الاغلبية المطلقة منهم، فقد بقيت فى العراق حيث كونت مستعمرات هامة نمت حتى بلغت فى عهد المسيح مليونا بل واكثر من المليون فى القرون التالية إبان العصور العربية

الاسلامية. وقد إمتد إنتشار اليهود فى العراق شمالا إلى كردستان والقوقاز. غير أن يهود العراق - مع كل سكانه - تعرضوا للإبادة مع الطوفان المغولى حيث هوى عددهم الى بضعة آلاف فقط.

على أن يهود العراق كانوا نواة الشتات شرقا. فمنهم إنشطر يهود فارس الذين غادروا العراق لاول مرة فى عهد كسرى. ولكن هجرتهم الكبرى كانت فى القرن الثانى عشر الميلادى - وبالمثل كان يهود هيرات فى أفغانستان ويهود بخارى وسمرقند فى التركستان شظية من نواة فارس.

ومن هذه المراكز الأولية والثانوية يمكن أن نتتبع إنتشار اليهود حتى نهايته ومستعمراته القصوى فى الشرق الأقصى بالهند والصين.

هذا، وإذا كان شتات الامر البابلى قد إتجه أساسا نحو الشرق، فمن المحتمل أن بعض الهجرة إتجه غربا إلى شمال افريقيا

(المغـرب) حـيث يدعى اليـهـود ممن يسكنون الجبـال اليـوم ويتكلمون البربرية أن أجداداهم تركوا فلسطين إليها، قبل الاسر البابلى نفسه، وحيث يسمون أنفسهم البلشـتيم Plishtim، والكلمـة تحـريف واضح لفلسطين. بل هناك من يرى ان من المحتمل أن اليهود دخلوا شمال أفريقيا مع الفينيقيين، والمؤكد على أية حال أن اليهودية كانت منتشرة ـ بالتحول ـ بدرجة مافى حين مابين عدة قبائل بربرية حتى ماقبل قدوم الاسلام.

الشتات الهللينى

أما الشتات الثانى من شتات اليهود فيتعاصر مع المرحلة الهللينية التى تبدأ بفتوح الإسكندر وتستمر مع السلوقيين والبطالسة ثم البيزنطيين، والاتجاه العام فى هذا الشتات هو نحو الغرب هذه المرة. فإذا كان بعض اليهود فى فلسطين قد قاوموا الصبغة الهللينية بعنف وقاموا فى القرن الثانى قبل الميلاد بالثورة

المكابية المتعصبة، فإن الكثيرين منهم إنتشروا إنتشارا واسعا بعيد المدى فى كل العالم الهللنستى والبيزنطى.

ففى مصر قدر أن ثلث سكان الإسكندرية البطلمية كان من اليهود، كذلك قد وجد اليهود فى سوريا وأسيا الصغرى من قبل بدرجة أو باخرى. وعدا هذا وذاك، كان ثمة مركزان رئيسيان لتركّز اليهود: البلقان، وسواحل البحر الاسود الشمالية، وكل يسبق العصر المسيحى بوقت طويل. وربما أرسل يهود البلقان منذ ذلك الحين عناصر منهم إلى جنوب الروسيا خاصة كييف حيث كانت المنطقة خاضعة بشدة للمؤثرات البيزنطية ، أما مركز ساحل البحر الاسود فكان قطبه القرم حيث ذهب كثير من اليهود مع الإغريق بعد الإسكندر.

وللتتار هنا دور هام فى التاريخ اليهودى. فقد قامت منهم دولة فى القرن السابع الميلادى هى دولة الخزر التترية التى تحولت بالجملة تماما فى رواية أوتحول حكامها وطبقاتها العليا فى رواية

أخرى الى اليهودية فى القرن الثامن، وبهذا أصبح فى المنطقة يهود أصليون مهاجرون ويهود متحولون من السكان المحليين.

وقد كان للخزر مركزين، واحد على سواحل بحر قزوين (بحر الخزر عند العرب المعاصرين) عند مصب الفولجا، والثانى فى القرم. وقد ألغى المركز القزوينى فى القرن العاشر الميلادى. ولكن المركز القومى ظل حتى القرن الحادى عشر إلى أن تحطم على يد دولة كييف السلافية الجديدة التى تمثل طلائع الدولة الروسية الحديثة. وعندها انتشر كثير من الخزر من يهود ومتهودين فى أجزاء كثيرة من جنوب الروسيا، بالاضافة إلى ماعسى قد يكون دخلها من قبل من يهود البلقان المهاجرين، وفى القرن الثانى عشر (عام ١١١٠ بالتحديد)، منعت الروسيا نهائيا دخول إلى يهود جدد بها وحددت للموجود منهم مناطق معينة لايقيمون خارجها، وهى التى ستؤلف النطاق الذى سيعرف تاريخيا «بحظيرة اليهود Jewish Pale ».

الشتات الرومانى والوسيط

يبقى لنا الآن الشتات الثالث والآخير فى تاريخ اليهود القديم. إنه الشتات الرومانى الذى أخذهم بعيدا إلى العالم الرومانى أى إلى الغرب الاقصى بالنسبة إلى الموطن الأصلى فلسطين، وذلك فى حركة مع عقارب الساعة ستستمر عبر العصور الوسطى حتى العصور الحديثة. وقد بدأ هذا الشتات فى الواقع مع الثورة المكابية، لكنه إكتمل مع الفتح الرومانى لفلسطين الذى يكاد يتعاصر بدقة مع بداية العصر المسيحى.

فلقد تواترت ثورات اليهود- الذين لم يعودوا يزيدون على أقلية من سكان فلسطين- على الحكم الرومانى الذى رد بتخريب أورشليم والهيكل وبابادة اليهود فى مذبحة سنة ٧٠ ميلادية الفاصلة (تيتوس) التى صفت أغلبهم محلياً وفر منها أقلهم إلى مصر وسوريا. غير أن بقايا اليهود عادوا إلى الثورة فى ١٣٥ ميلادية حيث قوبلوا بمذبحة نهائية (هادريان) ختمت إلى الأبد

على مصير اليهود فى فلسطين كدولة وكقومية. فعدا تدمير أورشليم والهيكل مرة أخرى، صفيت بقايا اليهود بالأبادة والهجرة.

فعن الأولى يقرر البعض أن عدد من أبيد من اليهود فى هذه بالثورة لا يقل عن ٦٠٠ ألف. فإذا صح هذا الرقم فذاك إنقراض جنسى حقيقى لم يكد يترك منهم شيئاً. وحتى هذا الذى تبقى تكفلت الهجرة القهرية بتصفيته. فقد حرّم الرومان على اليهود دخول القدس نهائياً، وطردوهم من فلسطين إلى كل أجزاء الإمبراطورية، وكان هذا هو التاريخ الذى إنتهت فيه وإلى الأبد علاقة اليهود بفلسطين سياسياً وسكانياً. أنه الخروج الأخير.

وحتى ندرك مدى ضآلة ما تبقى من اليهود بعد هذه المذابح والمطاردات، يكفى أن نذكر أن عدد يهود الخروج الأخير هذا يقدر بنحو ٤٠ ألفاً فقط! وهو رقم لا بد أن نتذكره دائماً لما سيكرن له من دلالات جنسية وتاريخية وسياسية عميقة المغزى، أما ما تبقى

بعد هذا وذاك من يهود بفلسطين فشراذم ضئيلة إزدادات تناقصاً فيما بعد بتحول بعض أفرادها إلى المسيحية، ولعل أهم تلك البقايا السامريين الذين تحولوا إلى قوقعة قزمية مغلقة فى نابلش Schechem القديمة) حتى أنها لا تزيد اليوم عن مائة أو مائتين! وفى بداية القرن التاسع عشر لم يكن يزيد عدد اليهود فى فلسطين كلها عن ١٠ آلاف نسمة...

على أن يهود الشتات الرومانى لم يأتوا من طريدى فلسطين وحدها، وإنما من كل مستعمراتهم السابقة القائمة فى العالم الهلنستى، فتبعوا الرومان إلى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وألمانيا حتى الراين، وكان طريق الرون- الراين- فرانكفورت، وهو طريق التجارة وشريانها التقليدى، خطاً محورياً فى دخولهم العالم الرومانى، ومنذ القرن الثالث الميلادى على الأقل كانوا قد وصلوا إلى الراين.

ويقدر البعض عدد اليهود فى الأمبراطوية الرومانية فى القرن

الخامس الميلادى بما يتراوح بين ٧،٤ ملايين أى نحو ٧٪ من مجموع السكان. وهذا الرقم- أيا كان نصيبه من الدقة أو الصحة- ينبغى أن نذكره جيداً وأن نقرنه فى الذاكره بعدد بقايا يهود فلسطين عند الخروج الأخيروالبالغ ٤٠ ألفاً، لأن معناه أن اليهود فى الشتات ضاعفوا عددهم بين ١٠٠، ١٨٠ مرة فى أقل من ٥٠٠ سنة(!) وهو معدل فلكى لا يمكن إلا أن يلقى ضوءاً حاسماً على طريقة نموهم، إن تزايداً طبيعياً أو تزايداً بالتبشير والتحول.

بيد أن العصور الوسطى لم تلبث أن أتت بحروبها الصليبية التى أشتعلت نار الأضطهاد الدينى ضد اليهود فى جميع أنحاء أوربا مثلما أثارتها ضد العرب خارجها وعلى أطرافها ومشارفها، فهنالك بدأت عمليات الطرد بالجملة والأبادة التى ستؤدى فى النهاية إلى تغيير جذرى فى توزيع اليهود فى أوربا. وقد قدر ليهود ألمانيا وأسبانيا أن يكون لهم الدور الأكبر فى قصة اليهود

فى العصور الحديثة. فهؤلاء هم الذين تعرضوا لأشد أخطار الابادة والتشرد ومنهم ومن نسلهم سيستمد التقسيم الثنائى الرئيسى الذى يفرق بين يهود شمال أوربا من ناحية ويهود غرب أوربا وحرض البحر المتوسط من ناحية أخرى، أعنى ثنائية الأشكناز والسفاردى Sephardim Ashkenazim .

والأشكنازيم والسفارديم كلمتان قديمتان فى التوراة أستعارتهما التقاليد اليهودية فى العصور الوسطى لتميز بين يهود ألمانيا ويهود أسبانيا على الترتيب، أعتقاداً منهم بأن يهود ألمانيا يتحدرون من نسل قبيلة يهوداً، ويهود أسبانيا من نسل قبيلة بنيامين، والسفارديم يدعون أن يعدون أنفسهم «أرستقراطية» اليهود على الاساس الدينى. غير أنه قدر لاشكناز أن يؤلفوا الأغلبية الساحقة عددياً– ٨٠٪ إلى ٩٠٪ فيما يقدر– والطبقة المسيطرة المتفوقة حضارياً إلى حد يحتقرون معه السفارديم إحتقاراً لا يحفلون بإخفائه.

فإذا عدنا إلى الشتات وبدأنا بالأشكناز، وجدنا أن أول أضطهاد يتعرض له يعود الراين بألمانيا يبدأ مع الحملة الصليبية الأول فى القرن الحادى عشر (١٠٩٦)، ولو أنهم كانوا قد بدأوا يتسربون إلى العالم السلافى فى بوهيميها وبولنده قبل ذلك بقرنين أو أكثر، هنالك بدأت الهجرة الهارية التى تسارعت خطاها مع الحملات التالية والتى إتجهت أساساً نحو الشرف. ونحو الشرق إتجهت لأن ملوك بولنده، الذين كانوا يعملون على زيادة سكان مدنهم، رحبوا بكل هجرة، فإغتنم اليهود الفرصة، وكان خروج بالجملة وصل إلى حد أثار فى النهاية مخاوف بولنده. غير أن إنتقال جسم الأشكناز كان قد تم نهائياً.

وفى بولنده وجنوب الروسيا إلتقى اليهود الألمان مع بقايا اليهود البيزنطيين ويهود الخرز الذين كانوا بدورهم قد بدأوا يطاردون نحو الشمال والغرب على يد الأضطهادات السياسية الشهيرة المعروفة فى الروسيا بالبوجروم Pogroms والتى أتسع

نطاقها ليشمل يهود بولنده بعد تقسيم هذه الدولة وإنتقال الشطر الأكبر منها إلى الروسيا.

والمهم أن ذلك اللقاء تحول- ولم يكن له بد من أن يتحول- لا إلى عملية تراكم عددى وتكثيف وتكتيل لليهودية ستعطينا واحدة من كبريات تجمعاتها فى العالم حتى اليوم، وإنما تحولت كذلك إلى عملية خلط ومزج وصهر سيسود فيها يهود الغرب الألمان عددياً وحضارياً على السواء. ومن أوضح وأبسط مظاهر هذه السيادة اللغة الجديدة التى نشأت عن التفاعل وهى اليديشية Yeddish المستمدة من اللهجة الألمانية العليا Hoch Deutsch التى حملها معهم يهود الغرب- وكلمة يديش نفسها تحريف واضح لكلمة يهودى بالألمانية- والتى ستصبح أهم لسان بين ألسنة اليهود التى لا حصر لها.

أما عن السفارديم فتبدأ قصتهم مع طرد اليهود-جنباً إلى جنب مع العرب- من أسبانيا فى حروب «الأسترداد Reconquista عام

١٤٩٢ بعد عصر من الإضطهاد والإبادة على يد محاكم التفتيش. والمقدر أن عدد يهود أسبانيا العربية وصل فى حين ما إلى حد المليون نسمة. وقد إنتشر هؤلاء اليهود فى فترات مختلفة إلى هولندا وإنجلترا، وإلى إيطاليا وفرنسا، ولكن خاصة إلى شمال أفريقيا إبتداء من مراكش حتى تونس، ولكن بالأخص إلى الأمبراطورية العثمانية. ففى الأمبراطورية العثمانية الحديثة التوسع وجدت الأغلبية الساحقة من السفارديم موطنها الجديد، إبتداء من البلقان والدانوب حتى الأناضول والشرق الأوسط حيث كانت سالونيك والقسطنطينية من أهم بؤرات تجمعهم، وحيث إلتقوا باليهود القدامى من بيزنطين وسابقين للعصر البابلى سواء غرباء مهارجرين أو محليين متحولين.

وفى كثير من هذه المهاجر الجديدة أصبح السفارديم— كالأشكنازيم فى مهجرهم الجديد— هم السائدين عددياً بين الجاليات اليهودية، بل كادوا أن يكونوا العنصر الوحيد فى يهود

مدن البلقان. وفى كل هذا المجال الجغرافى أطلق عليهم إسم الإسبانيولى Spanuoli- Spaniol ، المعروفة بأسم اللادينو Ladino وظلوا حتى اليوم يلبسون لباساً خاصاً ويبدون خصائص حضارية وثقافية تذكر بقوة بفترة إقامتهم الأسبانية.

وحدة جنسية ؟

حسناً، لقد تشتت اليهود وإنتشروا أيدى سبا فى كل إتجاه، فماذا حدث لهم فى الشتات؟ ماذا حدث، أقصد من حيث تفاعلهم إنثروبولوچيا مع الشعوب التى تدفقوا بين ظهرانيها. هذا هو سؤالنا المحورى فى الشطر الأخير من هذا البحث. وللسؤال مغزاه وخطورته السياسية إن مباشرة أو غير ذلك. وصميم القضية هو: هل كان الشتات مجرد إنتقال جغرافى لليهود بينما ظلوا من الناحة الدموية، وكأفراد وكجماعة، جسماً نقياً ثابتاً على خط النسب المباشر مع جذورهم فى أول الشتات وبذرتهم الأولى

فى فلسطين، بحيث يمكن أن يقال أنهم النسل المباشر المستمر لبنى إسرائيل التوراة؟ أم قد أصابهم تغيّر وتخلّط فى دمائه بَعُدَ بهم عن تلك الأصول حتى صاروا من الناحية الأنثروبولوچية شيئاً آخر لا علاقة له بدرجة أو بأخرى ببنى إسرائيل التوراة؟ إن النتيجة السياسية التى يمكن أن ترتب منطقياً على الإجابة واضحة لا تكاد تحتاج إلى تزيد فى القول، وهى لا تخفى على الصهيونية المتآمرة التى تسارع فتدعى النقاوة الجنسية لليهودى تتخذ منها أساساً لحقّ العودة المزعوم ومبرراً للأغتصاب.

وفى تقديرنا أن هذه القضية سلاح فكرى حاسم، غير أنه لم يلق منا نحن العرب الإهتمام اللائق بعد، ونرجو فى الصفحات القليلة القادمة أن نلقى عليه بعض ضوء يبدد إدعاءات العدو وأكاذيبة. وهناك طريقان أساسيان لنقترب من الحقيقة: أن ننظر فى وجوه يهود العالم اليوم، نتفحص ملامحهم ونقبس صفاتهم التشريحية والجسمية بالمقاييس والطرائق الأنثروبولوچية الفنية،

ثم نقارن بما نعلم عن صفات يهود فلسطين التوراة لنرى إلى أى حد يتشابهون أو يتنافرون، وإلى أى مدى إبتعدوا عن أصولهم الدموية أو إحتفظوا بها. الطريق الثانى أن نستقرئ أدلة التاريخ كوقائع يقينية مباشرة تنبئنا عن إحتفاظهم بنقاوتهم أو ذوبانهم بالأختلاط والتزاوج، والطريق الأولى هى الدراسة الأنثرولولوچية. والثانية هى المنهج التاريخى.

ونحن هنا لن نقدم مسحاً للجانب الأنثروبولوچى خشية الإطالة، وإنما سنكتفى بإلماعة سريعة إليه، مركزين بؤرتنا على الجانب التاريخى، فإذا بدأنا من البداية، أمكننا أن نقول أن يهود فلسطين التوراة كانوا بإجماع الباحثين جماعة سامية من عنصر البحر المتوسط بصفاته المعروفة التى أهمها طول الرأس والسمرة فى لون الشعر والعين ثم القامة المتوسطة والأنف المستقيم، أما اليهود المعاصرون فهم فى سوادهم الأعظم يختلفون عن هذا النمط البيولوچى كل الأختلاف. فأقلية ضئيلة جداً هى التى تبدى

تلك الصفات، وهى تتمثل فى أغلب السفارديم وبعض اليهود الشرقيين، أما الكتلة الكبرى من يهود العالم- الأشكناز- ففيها شقرة وألوان فاتحة أكثر مما- أو بقدر ما- فيها من سمرة، ولكن الأهم من ذلك أنها جميعاً من عراض الرءوس أى النقبض المباشر والمطلق ليهود فلسطين القديمة.

بهذا إذن لا يعرف اليهود إى وحدة جنسية ويشتد فيهم التنافر فى الصفات البيولوچية وتتعد بينهم السلالات والأنواع إلى أقصى حد. فعلى سبيل المثال يقدر أن كل نوع أو سلالة جنسية معروفة فى أوربا يمكن بسهولة أن تلتقط من بين يهود القارة، وأن أغلب اليهود يمثلون خليطاً بطريقة أو بأخرى بين عديد من تلك الأنواع والسلالات. كذلك من السهل جداً أن نلتقط من بين يهود الروسيا أفراداً يمتازون بالصدغ الواسع والأنف العريض القصير وعظام الوجنة البارزة بدرجة لا تفرقهم عن جماعات الفن المغولية التى تسكن منطقة الفولجا، بينما يوجد بين اليهود الألمان أفراد هم بكل معنى الكلمة نورديون مثاليون.

وبالمثل يمكن أن نضيف على مستوى العالم متناقضات كالموزايكو تكاد تغطى كل ما نعرف بين البشر من إختلافات فى الصفات الجنسية. فثمة «اليهود السود» مثل الفلاشة فى الحبشة والداجاتون Daggatuns جنود الصحراء الكبرى، ويهود التاميل الملونون فى جنوب غرب الهند، بل واليهود الصفر أحياناً فى التركستان، عدا- بالطبع- اليهود الشقر فى أوروبا. أو كما لاحظ دالبى Dallby فى أواخر القرن الماضى: هناك كل الأنواع والألوان بين اليهود: البيض والسمر والسود. هناك اليهودى الربعة غليظ الملامح عريض الرأس من الأشكناز، واليهودى النحيف دقيق الملامح طويل الرأس من السفارديم. ثمة الأنف «اليهودى» المحدب والأنف المقعر- نقبض الأنف اليهودى الكامل- بل كثير من يهود الروسيا. ثمة العيون اللوزية فى السفارديم والمكتنزة الضخمة فى الأشكنازيم وأحياناً العيون المغولية المسحوبة الشريطية فى يهود وسط آسيا. وفضلاً عن هذا فإن الدراسات السيرولوجية أثبتت تماماً أن اليهود يبدو فيما بينهم تفاوتاً كبيراً جداً فى فئات الدم

مما ينفى تجانس الأصل، وأكثر من ذلك لا تبدى تلك الفئات أية علاقة بفئات الدم عند اليهود الذين تبقوا فى السامرة حتى يومنا هذا، مما يؤكد عمق إنفصالهم جنسياً عن الأصل القديم.

واضح تماماً إذن أن الحديث عن وحدة جنسية بين اليهود ككل لا محل له من حقيقة أو علم على الإطلاق، وأن اليهود لا يعرفون الوحدة الجنسية أكثر مما يعرفون الوحدة الجغرفية. وواضح بالتالى أن النقاوة الجنسية المزعومة لهم إنما هى محض «خرافة» كما يقول الأنثروبولوچى الكبير ربلىRiply، والواقع أن هذه قضية لم تعد موضوع جدل بين العلماء. فكما قال رينان من قبل، أن المغزى الأثنولوچى لكلمة يهود- على الأقل فى شرق ووسط أوربا- قد إنتهى منذ أمد طويل. وفى نفس المعنى أكد دالبى أنه ليس ثمة بعد أى شيء كقضية جنس يهودى على الإطلاق. وكما يقول ربلى من بعد: ليس اليهود جنساً بل مجرد «أناس» بكل بساطة.

وعلى هذا الحكم الحاسم الأخير يعلق مؤلفو كتاب «نحن

الأوربيين We Europeans» وهم جوليان مكسلى وهادون وكار سوندرز: ونحن نعتقد أنه على صواب. إن اليهود لا يمكن أن يصنفوا لا كأمة ولا حتى كوحدة إثنولوچية، بل هم بالأخرى مجموعة إجتماعية- دينية تحمل قدراً كبيراً من عنصر البحر المتوسط والأرمينى وغيرهما كثير، وتتفاوت تفاوتاً عظيماً فى الصفات الجسمية». ثم يضيف هؤلاء الكتاب قائلين «إن اليهود المحدثين إن لم يكونوا أرمينيين فى الأعم الأغلب، فإنهم بالتأكيد يبدون من الصفات الأرمينية أكثر مما يبدون من الصفات «السامية»، وأن النمط الجنسى الذى يميز طائفة السامريين، وإن كنا نلقاه بين اليهود المحدثين إلا أنه بالتأكيد نادر بينهم».

ومن بعد ربلى وبعد مغلقيه أيضاً يقرر هرتون Booton يجزم قاطع: «حقيقة هى لا شك أن اليهود مختلطون جنسياً ومن أصول طبيعية متنوعة» وهو إذا كان يجد فيهم قدراً ما من وحدة طبيعية ونفسية وحضارية، فما هى بوحدة جنسية تماماً ولا وطنية ولا لغوية ولكن إلى حد ما كل أولئك. ويؤكد أشلى مونتجيو «Ashley Montague نفس الإنتهاء فيقرر أن اليهود

ليسوا وحدة أثنولوجية Culturalisolate Ethnic unit بل، بإصطلاحه، معزولة حضارية.

قضية النقاوة

لعل هذا أن يكفي في الجانب الأنثروبولوچي أو على هامشه لأن يجعلنا على ثقة، علمياً وموضوعياً، من أن يهود اليوم شيء مختلف في جوهرة الأنثروبولوچي عن يهود التوراه. وقد آن لنا أن نلتفت إلى الدراسة التاريخية التي تفسر ذلك مثلما تؤكده، السؤال الآن: كيف تم إختلاط أو تخليط اليهود، وماهي الأدلة والشواهد التاريخية عليه؟ لنذكر أو لنتذكر أولاً أن الهيود من أصحاب نظرية النقاوة الخرافية يحاولون بكل وسيلة إثبات العكس على أساس أن حياه العزل والعزلة في «الجيتو» والعداء والأضطهاد الديني عوامل مضادة للإختلاط والتزاوج، ولكن الواقع التاريخي البقيني يكذب هذا التصور أو التصوير تماماً. كذلك فإنهم يتخذون من أسماء الأشخاص اليهودية دليلاً على

عدم التزاوج، فعلى سبيل المثال أسماء كوهن وكوهين... الخ. تشير إلى نسل الكوهانيم أو الكوهانين Cohanism أبناء هارون وكهنة المعبد القدامى (والإسم كوهين تحريف للكلمة العربية كاهن) وهؤلاء محرم عليهم كلية أى دم غريب. ولكن الحقيقة أن هذا الأسم خرج عن حدوده الأصلية وأصبح أكثر أسماء اليهود شيوعاً. ومن الناحية الأخرى، فإن أسماء يهودية أصيلة وبحته هى اليوم من أكثر الأسماء شيوعاً بين الملايين من المسيحيين فى أوربا. فكيف حدث هذا بغير التزاوج والتحول؟

الحق أن موقف اليهود أصحاب نظرية النقاوة ليس غير علمى فحسب، ولكنه أيضاً إنتهازى ومغرض بوضوح، ولذا لا يمكن الأعتداء به فضلاً عن الإعتماد عليه. ويكفى للتدليل على هذا الذى نقول أن نذكر موقفهم أيام أضطهاد النازية فى ألمانيا. فلما كان كل شيء يقاس حينذاك بالجنس النوردى والأصل الآرى، فقد كان اليهود يدعون أنهم من ذلك الجنس والأصل ليفلتوا من عقاب السامية ولعنتها. أما الآن بعد إغتصاب فلسطين، فكل دعواهم أنهم ساميون لحماً ودماً! ولكى نعرف أين الحقيقة فى هذا

الإنقلاب الإنتهازى الفاضح، يكفى أن نورد تعليق هوتون على أضطهاد ألمانيا النازية لليهود حيث يسخر قائلاً أن اليهود ربما كانوا يمتلكون من الدم النوردى مثلما يمتلك الألمان أنفسهم!

التزاوج والتحول إذن حقائق لا شك فيها، وعليها يجمع جمرَة الأنثروبولوچين إبتداء من كين إلى ربلى إلى كون.. إلخ: فهذا كين يتكلم عن «الزيادات الضخمة من (الجنتيل) المتحولين»، ويقول «إن الإفتراض بأن اليهود ضموا قليلاً أو لا شىء من المتحولين هو أفتراض لم يعد بعد مقبولاً». ويضغط مؤلفو «نحن الأوربيين» خاصة على نقطة هامة وهى أن نمو أعداد اليهود فى المهجر بعد الشتات بمعدلات غير معقولة إنما يرجع فى جزء منه إلى التحولات الضخمة إلى اليهودية، أما ربلى فيقرر أن ليس ثمة أيسر من أثبات الأختلاط والتزاوج والتحول بين اليهود والجنتيل فى أوروبا وخارج أوروبا.

ولقد كان هناك طريقان أساسيان لإنتشار وتمدد اليهودية: التحول الدينى سواء من الوثنية أو المسيحية، والتزاوج والأمتزاج

الدموى. وللتحول شكلان رئيسيان: التحولات بالجملة، وهى معروفة محددة تاريخياً أهمها حالة الخزر والفلاشة واليهود السود من التاميل واليهود القرانين فى طوروس. الشكل الثنى من المحولات الفردية المستمرة فى كل مكان وزمان، أما التزاوج فشكلا الزواج العلنى والسرى أو العلاقات الجنسية غير الشرعية. وكتاب اليهود يصرون عل ضألة دور التحولات بعامة، والحولات بالجملة بخاصة، فى إنتشار اليهودية، وعلى أية حال فلا شك أن اليد العليا كانت دائماً للتزاوج، هادئاً ودفيناً ومزمناً، وقد أرتفع التزاوج المختلط بين اليهود والجنتيل إلى نسب عالية فى فترات الهدوء وتوقف الإضطهادات، فإذا كان الزوج يهودياً نشأ الأبناء يهودا، ولكن كان يحدث أحياناً أن تنتزع ديانة الزوجة اليهودية الأبناء من ديانة الأب.

الأختلاط التاريخى وأدلته

فى ضوء هذه الأسس العامة، نود الآن أن نستقرئ وقائع التاريخ نفسه، ماذا نقول وكيف نحكم فى قضية الإختلاط والتحول. فإذا بدأنا عرضنا التاريخى من البداية، فسنجد أن يهود فلسطين التوراة تخلطوا فى عقر دارهم مع جيرانهم من الفلسطينيين (كما تدل قصة شمشون اليهودى ودليلة الفلسطينية) ومع جيرانهم من العموريين والحيثيين (كما يشير سفر حزقيال: «أمك كانت حيثية، وعمورياً كان أبوك») وهذا الإختلاط الجنسى كان أقوى على حواف وهوامش هضبة يهودية المفتوحة نوعاً، منه فى قلبها الوعر المعزول، وكثيراً ما فرض على اليهود الذى إتخذوا زوجات «وثنيات» من الأجانب المحيطين أن يتركوا الوطن إلى تلك السهول المجاورة، كذلك فمن الثابت أبان الأسر البابلى الطويل أن كثيراً من اليهود تخلوا عن ديانتهم القديمة.

وبوجه عام فنحن نجد منذ بداية التاريخ أن الرفض للزواج

المختلط بين اليهود والجنتيل لم يكن قط جنسياً بل دينياً، بحيث ينتهي إذا تحول الجنتيل إلى اليهودية. والواقع أنه فى أيام اليهودية الأولى لم يكن الزواج من غير المؤمنين ممنوعاً أبداً. كما حدث فيما بعد. هكذا يذكر المؤرخ جوزيفوس أن يهود أنطاكية نجحوا فى تحويل الكثيرين إلى عقيدتهم وأدخولهم مجتمعهم. وقد حدث عدد كبير للغاية من التحول إلى اليهودية بلا شك فى القرن الثانى الميلادى. ومن الأمثلة الهامة النساء اليهوديات اللائى تم بيعهن كإماء وأُخذن إلى مقاطعة الراين كزوجات لجنود الرومان، وبعض هؤلاء الجنود هجرون عند نقلهم إلى مواضع أخرى فشب أبناؤهم وهم يهود.

والثابت أن التحول والإختلاط كانا من المظاهر المتفشية قبل العصر المسيحى مباشرة وفى قرونه الأولى. فحين تشتت اليهود فى العالم المتوسطى وجدوا أنفسهم إزاء إختيارين: أما أن يرتدُّوا وثنيين كجيرانهم الجدد، وأما أن يحتفظوا بديانتهم. وهناك– كما يقول بيرجل.

«أصبح الكثيرون، ربما الأغلبية، وثنيين، وذلك لأن من بين القبائل الأثنتى عشرة، عشرة، مفقودة» كما تحدثنا الروايات». وفى حالة التحول كان اليهود يفقدون كيانهم الجنسى جنباً إلى جنب مع كيانهم الدينى، ويصبحون جزءاً لا يتميز عن الأمة إلى أقاموا بينها. أما إذ ظلوا على يهوديتهم، فإنها أذن العزلة الإجتماعية. ومن ثم فلا تزاوج إلا أذا تحول الوثنيون إلى اليهودية، وهذا بالدقة ما حدث مراراً وتكراراً لأن اليهود قاموا بكثير من التبشير بنجاح عظيم عبر قرون طويلة، وهذا ما يفسر جرئياً تنوعهم وتباينهم الجنسى، إلا أن الموقف تغير بعد أن أصبحت المسيحية الديانية الرسمية للأمبراطورية الرومانية، حيث أصبح التحول إلى اليهودية صعباً، ولكن التزاوج والعلاقات غير الشرعية لم تتوقف.

أما فى العصور الوسطى حيث أصدرت المجالس الكنسية قرارات صارمة بمنع زواج المسيحيين باليهود كما فعل مجلسا توليدو عام ٥٨٩،٥٣٨ ، ومجلس روما عام ٧٤٣، فإن أغلب الكتاب يفسرها على أنها دليل على خطورة المدى الذى كان الزواج

المختلط قد وصل إليه بالفعل، بل إن أضطهاد القوط الغربيين فى أسبانيا لليهود فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين أنما يرجع- كما يؤكد كين- إى نشاطهم التبشيرى الخطير وإلى تفشى الزواج المختلط بينهم وبين المسيحيين.

أما عن التحول، فقد صدر كثير من التشريع الصارم ضد إستخدام اليهود لخدم مسيحيين، خشية تحولهم إلى اليهودية ثم الزواج بهم. إلا أن الأرجح أن هذا المنع لم يجد نفعاً، حيث نجد على سبيل المثال كبير أساقفه المجر يقرر فى عام ١٢٢٩ أن كثيراً من اليهود كانوا يعيشون حياة غير شرعية مع زوجات مسيحيات، وأن التحولات «بالآلاف» كانت مستمرة. وفضلا عن هذا، فلم يكن القانون يتضمن، حماية العبيد والأقنان من إمكانية التهود والزواج من اليهود. وفى أسبانيا والبرتغال بعد الإسترداد أجبر مئات من الآلاف من اليهود على التنصر بالقوة والتحول الى المسيحية حيث ذابوا بعدها فى السكان.

أما فى عصرنا الحديث فتتواتر الأدلة والأحداث الثابتة التى

تؤكد التزاوج والتحول على حد سواء. فمع الهجرة الى العالم الجديد تحول بعض الهنود الحمر والزنوج فى أمريكا الوسطى والجنوبية الى اليهودية ـ ولا علاقة لهم جنسيا باليهود أصلا. ومع اختفاء التعصب الدينى فى أوربا الصناعية، وأكثر منه مع العلمانية المطردة، إنهارت الحواجز أمام التحول والزواج وتوسعت العلاقات غير الشرعية. وإذا كانت التحولات الجماعية بالجملة قد قلت، فقد زادت بصورة لافتة للنظر التحولات الفردية فى العصور الحديثة، ويمكن أن نتخذ من بعض الأسماء الشهيرة مؤشرا فى ذلك الاتجاه: مثلا الشاعر هاينى والموسيقى مندلسون وغيرهما من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية، وفى روسيا القيصرية كان حصول اليهود على المساواة المدنية رهنا بتحولهم الى المسيحية.

ومن الأدلة القاطعة بل والمثيرة على مدى اختلاط اليهود فى العصور الحديثة والوسيطة فى أوربا ما كشفت عنه تجربة النازية فى ألمانيا. فقد كان على المرء الذى يبغى اثبات الدم الآرى فيه أن يقدم نسبا يخلو لعدة أجيال من العناصر غير الآرية، يعنى هنا

اليهودية بالتحديد، ولكن المفاجأة أن التجربة كشفت أن عددا ضخما من الحالات من المواطنين الألمانيين «الى أقصى حد» ثبت أن أجدادهم وأجداد أجدادهم تجرى فى عروقهم الدماء اليهودية! ـ تماما كما تردد عن رينسار فاجنر من قبل...

وفى العام الماضى فقط أخرج كاتب فرنسى كتابا كان له دوى كبير حيث أثبت أو حاول أن يثبت بتتبع شجرات الأنساب الدقيقة لمعظم الشخصيات المسيحية البارزة من عائلات مالكة ورؤساء وزعماء.. الخ فى العالم الغربى أنه تجرى فى عروقهم دماء يهودية بدرجة أو بأخرى، وبالعكس ان كثيرا من اليهود المعروفين داخلتهم دماء مسيحية، أما فى الولايات المتحدة، حيث أعظم مستعمرة لليهود اليوم، فمن المعلومات العامة للكافة والخاصة انتشار الزيجات المختلطة ووجود أنصاف وأرباع اليهود... الخ، لا سيما منذ القرن الماضى حين أصبح الزواج المدنى مباحا وقانونيا.

والواقع أن هذه النقطة الأخيرة تنقلنا الى أخرى لا تقل أهمية

ومغزى. أعنى ظاهرة ذوبان أو أنصهار اليهود واندماجهم أو إمتصاصهم فى شعوب العالم المعاصر الحديثة وموقف الصهيونية السياسية منها. فالصهيونية إذ تحاول عبثا أن تجعل من اليهودية العالمية شعبا وقومية وأمة بل وجنسا مستقلا وليس مجرد طائفة دينية تقطع عبر، وتجمع بين، عشرات الشعوب والقوميات والأمم والأجناس، لا تزيف حقائق التاريخ الواقع فعلا، ولكنها تقاوم وتحارب حتمية حركة التاريخ التقدمية وتسعى الى تجميد تطور المجتمع الانسانى.

فالصهيونية تعلم علم اليقين أن الاضطهاد الذى تعرض له اليهود فى أوروبا الوسيطة والحديثة لا يرجع الى التعصب الدينى وحده بقدر ما يرجع الى طريقة حياة اليهود وانعزالهم وطبيعة حرفهم الابتزازية ومركب إحساسهم المتضخم بأنفسهم وإدعاءاتهم بالتفوق الموهوم، وتعلم الصهيونية كذلك أن عصور الاقطاع والحكم الأوتوقراطى المطلق ومناخ الطبقية التقليدية كانت تشكل بيئة ملائمة وقوى ضاغطة ودافعه لهذا الاضطهاد بمثل ما

أن هذا الإضطهاد ذاته بيئة ملائمة وقوة دافعة لليهود أنفسهم إلى مزيد من الاصرار والتمسك بإنعزاليتهم وإنفراديتهم وتضادهم.

والآن ترى الصهيونية أن روح الليبيرالية المعاصرة السارية وتطور الوعى العام والسياسى فى المجتمع الصناعى الحديث ومُثُل التسامح الدينى إن لم يكن اللامبالاة الدينية، كلها طفراتجديدة وخطيرة «تهدد» بانتهاء اضطهاد اليهود ونهاية ضد السامية، وبالتالى تهدد بسقوط الستار الحديدى الذى ضربه اليهود حول أنفسهم وانتفاء التضاد السادى ـ المازوكى الذى افتعلوه مع بيئاتهم، ومن ثم تهدد بذوبانهم فى شعوب الأمم ثقافة ولغة بل ودينا وجنسا، ومن هنا تصل الصهيونية فى إنحرافها الى حد الشذوذ الفكرى والعنصرى، فنجدها تحاول محمومة استبقاء مناخ الاضطهاد وشبحه وتجسيد أسطورته الى الأبد لتوقف تيار الذوبان الغلاب الذى يظل مع ذلك يفرض نفسه كواقع قاهر يتمثل أخطر ما يتمثل فى التزاوج المختلط مع غير اليهود وفى تحول بعض اليهود الى عقائد أخرى.

ولئن كان هذا اليوم أوضح وأخطر ما يكون فى بوتقة الولايات المتحدة، فإن أوربا الغربية تعرفه أيضا بدرجة أو بأخرى. والخط التاريخى الذى أكد نفسه منذ البداية وهو تخلّط وتهّجن اليهود وذوبانهم جنسيا، يعيد اليوم تأكيد نفسه برغم إنحرافات وشعارات الصهيونية، بل ويفوض نفسه أكثر منه فى أى وقت مضى.

ولنقف هنا قليلا عند يهود لولايات المتحدة. الثابت أن اليهود حيثما حصلوا على المساواة القانونية الكاملة فى الحيثية المدنية، كما فى الولايات، فكثيراً ما يتزوجون من الجنتيل، فاذا أصر الطرف اليهودى على أن يغير الطرف الآخر عقيدته نشأ الأبناء يهودا وظلت الأسرة يهودية، أما اذا تحول الطرف اليهودى الى المسيحية فقد يتزوج الأبناء فيما بعد يهودا ويعودون بذلك الى اليهودية، وإلا فان الأسرة اليهودية تنقرض فى النهاية، غير أنه ليس ثمة حالة معروفة تحول فيها اليهود الى المسيحية ثم ظل الجيل الثالث يهوديا. وهكذا فان التحول الدينى يؤدى فى النهاية الى التمثل والانصهار فى المجتمع الأمريكى.

والاحصائيات تدل على زيادة مطردة فى الزيجات المختلفة بين اليهود. فقد وجد أحد الباحثين الاجتماعيين أن نسبة الزواج الداخلى بين اليهود فى مدينة نيوهافن عام ١٩٤٦ كانت ٩٧٪ وأن ٣٪ يتزوجون خارج الطائفة، ارتفعت من ١ر١٪ الى ٣ر٦٪ بين ١٩٠٠، ١٩٤٠، أى أنها وصلت الى ضعف التقدير الأول، والواقع أن اليهود أكثر تعرضا للعلمانية المطردة إذا قورنوا بغيرهم من الأقليات الأمريكية، وإلى جانب ذلك فإنهم كمجتمع مدن أساساً يمتازون بمعدل مواليد منخفض، بل أشد إنخفاضا منه بين أى مجموعة مدنية أخرى، ولا يمكن أن يعوضوا أو يحافظوا على أعدادهم بالتزايد الطبيعى.

وفى النتيجة ـ هكذا ينتهى كاتب مثل بيرجل ـ فإن يهود أمريكا لا بد أن يتناقصوا عدديا سواء على الاطلاق أو بالنسبة الى مجوعة السكان، ومع تسارع وإطراد العلمانية والإنصهار فلا مفر لهذا التناقض من أن يشتد ويشتد، ومن هنا يمكن أن نعتبر اليهود كأقلية فى الولايات المتحدة «ظاهرة عابرة» فى نهاية المطاف، ولا يؤخر اختفاؤهم النهائى إلا ضد السامية أكثر من أى عامل آخر.

لن يجدى اذن تصاريح وصراخ الصهيونية العالمية شيئا ازاء حضارة العصر المتفجرة المعدية الكاسحة التى لا مكان فيها لعزلة وعقلية الجيتو، وأين؟ - فى قلب دوامة تلك الحضارة وفى عين إعصارها فى الغرب الأوروبى والأمريكى! واذا كانت العصور الوسطى هى عصر تحول غير اليهود الى اليهودية! من هنا نفهم كيف أن الصهيونية «تتاجر» بالفعل فى الاضطهاد، تذكى ذكراه وتؤجج ناره كلما خبت جذوتها أو رمادها، وتراه ضمان بقائها، فى الوقت الذى تمثل فيه اسرائيلها دولة المنتفعين بهذا الاضطهاد، بل أن الفكرة الجذرية فى خلق اسرائيل ليست فى النهاية الا فكرة الجيتو بحذافيرها وانما على مقياس مجمع كبير، فهى وعاء موحد لاستبقاء إنعزالية اليهود عن الجوبيم وتضادهم معهم: انها الجيتو دولة أو هى دولة الجيتو، ولكن كما ذاب ويذوب الجيتو فى الخارج لن يمضى وقت طويل حتى يذوب ويزول جيتو اسرائيل الى الأبد.

وبعد، لقد انتهت رحلتنا عبر التاريخ بحثا عن الأدلة والشواهد اليقينية على إختلاط وذوبان اليهود، فهل يمكن من محصلة هذا

العرض المفصل أن نضع أيدينا على جوهر وميكانيزم العلمية كلها؟ نعم، وجغرافى يهودى بالذات - هنتنجتون - هو الذى يضعها بين أيدينا! فطوال التاريخ - كما يقول - نلمح ظاهرتين أساسيتين: أعداد ضخمة من غير اليهود تدخل اليهودية، وفى نفس الوقت أعداد من اليهود لا تقل ضخامة تخرج من اليهودية.

وفى النتيجة فان جسم الطائفة ليس ثابتا جنسيا بل هو متحرك وفى تغيير داخلى مستمر وفى ابتعاد دائم عن الاصول الأولى بحيث يتضاءل أبدا وباستمرار حجم النواة النووية الحقيقية من بنى إسرائيل التوراة فيهم حتى لتكاد تنقرض وتختفى فضلا على أن تظل قابلة للتعرف عليها وتحديدها، إنها عملية إحلال وإبدال مزمنة دائما، معدية أحيانا، ظاهرة ومستترة، وئيدة ربما ولكنها أكيدة قطعا .. إننا نكاد نقول عملية «تغيير دم» كلية وشاملة، وفى النتيجة يكاد يصبح جسم اليهود فى أخر المطاف شيئا مختلفا إنتروبولوچيا عن يهود التوراة ان لم يكن لا علاقة له بهم تقريبا أو فى الأعم الأغلب. ويتأكد هذا كله حين نتذكر ما سبق أن ألمعنا إليه بشأن تعداد اليهود حيث بدأوا

الشتات بأرقام هزيلة جدا ولكنهم سرعان ما بلغوا الملايين رغم كل المذابح والاضطهادات.

يهود تأوربوا أم أوربين تهودوا ؟

نستطيع إذن أن نخلص من هذا كله بثقة واطمئنان إلى أن اليهود يتألفون من دماء مختلطة كأشد ما يكون الاختلاط، واذا كان ثمة خلاف بعد هذا، فأنما يدور حول المدى والدرجة والى أى حد، هنا نجد رأيين أساسيين: فيرى ربلى أن اليهود يأخذون أينما كانوا صفات السكان الذين هم مقيمون بينهم، وأبرز ما يتمثل هذا فى شكل الرأس، الأساس الأنثروبولوچى الأول والجوهر، ثم إلى حد ما فى لون البشرة، وبناء على هذا يقبل رأى لومبروزو Lombroso القديم من أن اليهود جنسيا آريون أكثر منهم ساميين، أو بتغيير آخر أنهم أوربيون تهودوا أكثر منهم يهودا تأوربوا.

والى نفس المدرسة والرأى ينتمى مؤلفو «نحن الأوربيين» :

«إن اليهود ـ هكذا يؤكدون ـ من أصل مختلط، وقد ظلوا باستمرار يزدادون اختلاطا»، ثم يضيفون «كان هناك دائما قدر معين من التزاوج بين اليهود وغير اليهود من سكان البلاد التى قاموا فيها ...، بحيث أن عددا من الجينات المستمدة من اليهود المهاجرين يتوزع بين مجموع السكان، وأن المجتمعات اليهودية أصبحت تشبه السكان المحليين فى كثير من الخصائص، وبهذه الطريقة أصبح يهود افريقيا وشرق أوربا واسبانيا، والبرتغال... الخ مختلفين بوضوح عن بعضهم البعض فى النمط الجنسى».

ويؤكد نفس الكتاب الفكرة فى موضع آخر قائلين «والنتيجة أن اليهود المناطق المختلفة ليسوا متماثلين چينيا وأن السكان اليهود في كل صفة يمكن تصورها، وكلمة يهودى صحيحة كوصف اجتماعى دينى أكثر منها كتعبير إثنولوجى فى أى معنى چينى، وكثير من الصفات «اليهودية» هى بلا شك نتاج التقاليد والتربية اليهودية خاصة رد الفعل ضد الضغط الخارجى والاضطهاد أكثر منه نتاج الوراثة... فاليهود لا يؤلفون جنسا

محددا... وانه لخطأ غير مشروع أن نتكلم عن «جنس يهودى» تماما كما لو تكلمنا عن جنس آرى».

هذا عن الرأى الأول فى اليهود، أما الرأى الثانى فيمثله كون Coon الذى يقبل تشكلهم بصفات السكان المحيطين لكنه يرى فيهم الى جانب ذلك آثار الأصل الفلسطينى العبرى القديم بخصائصه المتوسطية، وبخاصة فى شكل الوجه الطويل وأبعاد أو حجم الرأس الصغير، ومن هذا المنطق يدير كل مناقشته عليأساس أن اليهود اليوم فى بيئاتهم المختلفة ليسوا مجرد جماعات من أبناء تلك البيئات تحولوا الى اليهودية، وانما هم فى الأغلب الأعم يهود حقيقيون من أبناء الشتات الفلسطينى امتزجوا دمويا بأبناء تلك البيئات الأصليين: مثلا: يهود العراق يهود حقيقة وليسوا عراقيين تهوّدوا يهود بخارى والتركستان ليسوا مجرد تاچيك أو سارت تهودوا بل أصلا يهود ولكن استعرضت رءوسهم بالاختلاط بهؤلاء، ويهود وسط أوروبا ليسوا ببساطة أوربيين تهودوا وانما يهود تأوربوا..

ويقدّر كون ـ كمجرد تخمين بحت يعترف ـ أن نسبة عنصر البحر المتوسط الفلسطيني الأصلي في يهود أوروبا الأشكناز قد تزيد على نصف جميع العناصر الداخلة في تكوينهم، وهي بذلك أهمها، ومن هذا كله ينتهي إلى أن اليهود «ليسوا مجرد كومة عشوائية توحد بينها رابطة مشتركة من الذين بلا تماسك هيولوجي أكثر مما لوحدات عفوية كمستمعي الراديون أو عاملات الحياكة»!

أين تقع الحقيقة بين هذين الرأيين ـ والفارق بينهما فارق كبير في الدرجة يوشك أن يكون فارقا في النوع، هذا هو السؤال، المحقق أننا لا يمكن علميا أن نستبعد من بعض يهود العالم نسبة ما من الأصل الفلسطيني القديم. ولكن من المحقق أيضا أن تقدير كون وتصوره يبالغ بعامة في تلك النسبة، فالملاحظ أولا أن الفروق الجسمية التي يسجلها بين اليهود وجيرانهم ضئيلة غالبا وواهية جدا أحيانا، وثانيا وأهم من ذلك أنه مادامت الدماء الأجنبية الغربية قد غزت اليهود وداخلتهم ـ حتى ولو كانوا من أصل فلسطيني قديم ـ إلى الحد الذي يقربهم على الأقل من هؤلاء

الجيران، فقد ابتعدوا وانفصلوا تماما عن ذلك الأصل السحيق، وليس من المتصور غير هذا بعد نحو ألفي سنة من التشتت والاختلاط، لا سيما إذا تذكرنا ـ وهو إعتبار هام للغاية ـ أن كل قوة يهود الشتات حين خرجت من فلسطين بعد هدم الهيكل الثاني لم تزد عن ٤٠ ألفا! وهذا الرقم وحده يكفي ليوحي، رغم كل قيود العزل والاضطهاد، بأن يهود الشتات الأصلا، قد ذابوا وانصهروا وضاعوا في محيط المهجر كقطرة في بحر، وأن يهدد العالم اليوم في سوادهم الأعظم هم أجانب متحولون أكثر منهم يهود متجولين...

ماذا يتبقى فيهم اذن من بني اسرائيل التوراة أو من بني إسرائيل التوراة فيهم؟ إن من يمكن أن يعد منهم من نسل بني اسرائيل التوراة حقا ومباشرة لا يزيدون على نسبة بالغة الضآلة الى أقصى حد. مثلا في أواخر القرن الماضي يجد الأنثروبولوجي المخضرم المعروف فيلكس فون لوشان Luschen أنه «من بين يهودنا المحدثين نحو ٥٠٪ عراض رءوس، ١١٪ ذوو بشرة بيضاء، وما يزيد عن ٥٪ يتفقون مع ما عرفنا أنه النمط السامي

القديم»، وهذا يتفق تماما مع ما تؤكده دراسة حديثة جدا قام بها في العام الماضى فقط إنثروبولوجى بريطانى هو چيمس فنتون على يهود إسرائيل توصل فيها الى أن ٩٥ ٪ من اليهود ليسوا من بنى إسرائيل التوراة، وإنما هم أجانب متحولون أو مختلطون!

ولئن صح هذا ـ ولعله صحيح، وهو بالتأكيد أقرب الى الصحة والمنطق من تخمينات كون ـ فمعناه أن الصلة الجنسية والجينية بين يهود اليوم ويهود التوراة منبتة وفاقدة تماما من الناحية العلمية، وأنهم بالفعل أوربيون سلاف أو آريون ونورديون أكثر منهم ساميين. وهذا يقصد على الاشكنازيم فى أوربا، وعلى امتدادهم الأمريكى الذى زاد إختلاطه فى البوتقة الأمريكية، أكثر منه على أى مجموعة أخرى من اليهود، مع ملاحظة أنهم ـ الأشكناز ـ هم السواد الأعظم من يهود العالم عدديا.

والخلاصة الموضوعية أن يهود العالم اليوم مختلطون فى جملتهم اختلاطا بَعُدَ بهم عن أى أصول إسرائيلية فلسطينية قديمة حتى لم تعد هذه تمثل فى تكوينهم إلا قطرة فى محيط،

وإذا كان ثمة تحفظ ما، فهو أن هناك مراحل ودرجات من هذا التخليط، فبعض المجتمعات اليهودية كيهود التركستان أقل تهجنا وتخلطا والبض أكثر كالاشكنازيم، غير أن الحقيقة الحاسمة والفاصلة هى أن الأقل تخلطا إنما يمثلون عدديا نسبة بالغة الضآلة من مجموع اليهودية العالمية، بينما أن المخلطين تماما والذين ابتعدوا جدا أو كلية عن الأصول الأولى يشكلون الأغلبية الساحقة منهم، ومن هنا فلا جناح علينا اذا نحن قررنا فى النهاية أن اليهود اليوم ليسوا من بنى اسرائيل، وأن هؤلاء شئ وأولئك شئ آخر أنثروبولوجيا، وألا رابطة بين الطرفين الا الدين والدين وحده.

وبعد ؟

تخريجاً من هذا وترتيبا عليه، تسقط على الفور عدة أفكار ومعتقدات شائعة ومتفشية ولكن لا ظل لها من الحقيقة فى نظر العلم الصحيح، فأولا، مادام اليهود لم يعودوا من الساميين فى

شئ، فيمكننا هنا أن نرى الخطأ الشائع الفاشى، أن لم يكن المغالطة الكبرى العامدة، فى تسمية إضطهاد اليهود «بضد السامية». فنحن فى مداورة، ولا تفسير لهذه التسمية الخاطئة إلا أنها تعتمد على أسس الانجيل والاحلال والابدال المطلق الذى لحق دماء اليهود، والاضطهاد النازى لليهود فى ألمانيا لم يكن فى جوهره إلا اضطهاد ألمان لألمان، لا يقل معظمهم عنهم فى الآرية والنوردية، وأنما يختلفون فقط فى الديانة وطريقة الحياة.

يسقط كذلك ببساطة وتلقائية أى دعوى قرابة دم بين العرب واليهود. قد يكون يهود التوراة والعرب أبناء عمومة - وإنما تاريخيا فحسب حين بدأ الكل قبائل مختلفة من الساميين الشماليين وحين كانت العبرية لغة تشتق من الأصول العليا التى تفرعت عنها العربية، وقد يكون من الصحيح، بل أنه لصحيح بالفعل، أن اسماعيل أبا العرب وإسحق أبا اليهود أخوة غير أشقاء وكلا ابن ابراهيم - ولكن فى البداية فقط تصدق هذه الأخوة على نسليهما، أما بعد ذلك فقد ذاب نسل أحدهما فى دماء غريبة ووصل الذوبان إلى حد الإحلال حتى أصبحنا إزاء قوم غرباء لا

علاقة لهم البتة بإسحق فضلا على إسماعيل، ولا يمكن بعد أن أختفى يهود التوراة كشبح أن يكون يهود أوربا والعالم الجديد أقارب العرب جنسيا أكثر من قرابة الأوربيين والأمريكيين للعرب! وغير هذا ـ حتى لو قال به ملوك العرب ابتداء من فيصل بن الحسين الى فيصل آل سعود ـ ليس الا من قبيل أوهام العوام بل جهالات الملوك!

إن اليهود اليوم إنما هم أقارب الأوربيين والأمريكيين، بل هم فى الأعم الأغلب بعض وجزء منهم وشريحة، لحما ودما، وإن اختلف الدين، ومن هنا فان اليهود فى أوروبا وأمريكا ليسوا كما يدعون غرباء أو أجانب دخلاء يعيشون فى المنفى تحت رحمة أصحاب البيت، وانما هم من صميم أصحاب البيت نسلا وسلاله، لا يفرقهم عنهم سوى الدين، أما أين يمكن أن يكون اليهود غرباء فى منفى ودخلاء بلا جذور فذاك فى بيت العرب وحده، فى فلسطين حيث لا يمكن لوجودهم إلا أن يكون إستعمارا واغتصابا بالقهر والابتزاز، وغير هذا قلب بشع لحقائق التاريخ أنثروبولوجيا وغير انثروبولوجي.

وتداعياً وانطلاقا من هذا يسقط أخيرا أى إدعاء سياسى للصهيونية فى «أرض الميعاد» ، فبغض النظر عن أن القانون الدولى يتكفل بشجب وتفجير إدعاءاتهم على أى أساس تاريخى أو دينى، فان الانثروبولوجيا تبدد أى أساس جنسى قد يزعمون فى هذا الصدد، فمن ناحية ليس اليهود قومية ولا هم شعب أو أمة، بل هم مجرد دينية تتألف من أخلاط من كل الشعوب والقوميات والأمم والأجناس، ومن ناحية أخرى فلا علاقة لهم جنسيا أو انثروبولوجيا بفلسطين، وهم أجانب غرباء عنها دخلاء عليها مثلما يعد الأوربين أو الأمريكيون بالنسبة إليها، وهم حين يغتصبونها ليخلقوا منها إسرائيل الصهيونية، فليست هذه عودة الإبن القديم بعد رحلة طالت عبر الزمان والمكان ، وأنما هى غزو الأجنبى الغريب بالاثم والعدوان.

الفصل السابع

المعركة لم تنته ..

* نعم، فما كنا في يوم أحوج منا الآن إلى الحقد المقدس والثار الأقدس، ولا كان الحقد والثار في يوم أنبل وأشرف مما هما الآن.
* ففي ١٩٥٦ كانت إسرائيل مخلب قط أو طعماً - طعماً قذراً يستدرج الفريسة إلى المصيدة لتطبق عليه قبضة الصياد الغادر، أما في ١٩٦٧ فكانت إسرائيل حصان طروادة، مجرد واجهة وقناع تخفّي العدوان الغادر وراءه بل داخله فعلاً.
* ولا بد لنا اليوم من إقتصاد وتخطيط وبرنامج شعاره القائد:

الكرامة فوق الحياة ذاتها، ودولة القوة قبل دولة الرفاهية، ومجتمع الثأر قبل مجتمع الخدمات.

بل بدأت

نؤمن تماماً- مع الرئيس البطل المناضل- أن «هذا ليس وقتاً للحزن»، ولكنا نخشى - ونعترف- أن الأسى موجود مهما دفناه في أعماق الباطن. فإذا كانت الصدمة قد أصابتنا بلحظة مريرة من الذهول دون أن تلقى بنا إلى دوامة الدوار، وإذا كانت الأمة قد إرتفعت بسرعة وشجاعة فوق جراحها وآلامها ،بل وأستقطبت

من المحيط إلى الخليج فى وحدة قومية لم تعرف لها مثيلاً فى تاريخها الحديث، إذا كان هذا فإن من الصحيح أيضاً أن وقع النكسة لا يتناسب كما يتناسب مع ضخامة الأمل العربى الشاهق المرموق الذى كان، وما أشد الهوة- بقينا- بين عنفوان الأيام العشرة المجيدة الباهرة التى حملت عبق التحرير كله وبين الأيام الخمسة الحزينة التى لحقتها مباشرة فأضافت إلى النكبة النكسة.

الأسى المدفون فى الأعماق قد لا يخبو أو يموت بسرعة إذن، غير أن عزاءنا أنه يتخمر هناك ويتحول إلى شحنة رهيبة من العرقية للعدو الأثيم وإلى طاقة مكثفة مختزنة من التصميم العارم على سحقه فى المدى الطويل. إنه غذاء نقتات به للإنتقام، ووقود للإصرار الضارى. نعم، فما كنا فى يوم أحوج منا الآن إلى الحقد المقدس والثأر الأقدس، ولا كان الحقد والثأر فى يوم أنبل وأشرف مما هما الآن.

من هنا، من الحقد كنقطة إنطلاق والثأر كهدف مطلق، نبدأ

وينبغى أن نبدأ كل نظرة إلى الموقف وأى عمل لتقويمه وتصحيحه. والحقائق الأساسية الواضحة موضوعياً فى الموقف هى أننا- أولاً- خسرنا المعركة العسكرية، ولكننا- ثانياً- لم نخسرها على يد إسرائيل وإنما على يد التواطؤ الأمريكى البريطانى أساساً، كما أننا- ثالثاً- لم نخسر المعركة السياسية، ونملك القوة على أن ننتزع النصر فيها، وأخيراً فإن المعركة كلها عسكرية وسياسية ليست الجولة الأخيرة فى الصراع ولا تعنى نهايته، فالمعركة لم تنته بل بدأت. وهذه المعطيات والمبادئ هى البوصلة التى سوف نسترشد بها فى هذه المقالة.

إستراتيچية التواطؤ والغدر

منذ بدأت أزمة الشرق الأوسط الراهنة، ظل السؤال الحرج الذى يبحث عن إجابة ويفرض نفسه على العرب هو: هل يعيد التاريخ نفسه؟ هل يعود الإستعمار فى ١٩٦٧ إلى التواطؤ مرة

أخرى مع العدو الإسرائيلى على غرار ما فعل ١٩٥٦؟ لقد كان من الواضح قطعاً أن إسرائيل نفسها لا تجرؤ على مواجهة العرب وحدها، وأن مثل هذه المواجهة تعنى نهايتها على وجه التحقيق. وفى نفس الوقت بدا جلياً أن الأستعمار الغربى وعلى رأسه الولايات المتحدة لن يترك ربيبته وصنيعته تواجه مصيرها الأبدى.

فمنذ تحركت القوات المصرية إلى الحدود، تقاطرت التصريحات والتهديدات الأمريكية بانتظام، كأنما هى «الأمر اليومى» ، من جميع الدوائر وعلى كل المستويات سياسية وعسكرية. وأقترن هذا بتحركات واسعة النطاق فى المعسكر الغربى للتنسيق والتخطيط مثلما إقترنت هذه بتجمعات مريبة ومناورات مفضوحة للأساطيل البحرية- الأرمادا الأمريكية- فى شرق البحر المتوسط. ويعنينا هنا أن نضع أكثر من خط تحت عدة معالم وعلامات بالغة الدلالة فى ذلك الموقف، لا لأنها جميعاً

نذر حول التمويه والتمهيد للتواطؤ والتدخل فحسب، وإنما كذلك لأن المتآمرين يحاولون اليوم بعد أن أتموا جريمتهم أن ينتصلوا منها ويكذبوها بل ويصوروها بالتضليل والمزيد من التضليل على أنها وهم إدعاء عربى!

فعدا عشرات التصريحات الرسمية على كل المستويات عن إلتزام أمريكا بحماية كيان إسرائيل، وعدا الإشارات الصريحة إلى الإعتماد فى ذلك على الأسطول السادس، وعدا ما أعلنته إسرائيل تهديداً واأنتظام من أنها تعتمد على أصدقاء أقوياء. الخ، فإن أولى هذه العلامات التناقض المتعمد- بقصد التعمية والتغرير- فى تصريحات محور الأعداء. فبينما أعلن رئيس أركان الولايات المتحدة فى بدايات الأزمة أن الأسطول السادس لن يتدخل فى المعركة، إتضح بعد المعركة أنه هو نفسه الذى أشار بأن التمكين لإسرائيل من التفوق الجوى جدير بأن يكفل لها نصراً حاسماً على العرب أو بتحديد أكثر، فرض هزيمة مروعة على العرب.

بل لقد أعلنوا بالفعل قبل المعركة إنتهاء العسكريين الأمريكيين إلى مفتاح عمل وهو أنه «يمكن لإسرائيل أن تحرز نصراً عسكرياً فى أربعة أيام إذا ما قدمت لها مساعدات جوية غير محدودة». وبينما صرح قائد الأسطول السادس قبل المعركة أنه بعيد ويبتعد عن شرق البحر المتوسط، فقد عاد قبيل المعركة ليهدد بأن أسطوله على إستعداد للعمل فى سواحله الشرقية فور تلقى الأمر.

كذلك وفى الوقت الذى كان الرئيس الأمريكى يدعو إلى «ضبط النفس» وعدم البدء بالهجوم وإلا تدخلت أمريكا ضد مصر علناً ومباشرة، كان يخطط على نطاق إستعمارى للتدخل المرسوم بل وكان ينفذ خدعة جاءت قاتلة بقدر ما كانت دنيئة. فقد كان هذا بالدقة هو مفتاح المؤامرة: إذ أريد به أن يؤخر الهجوم المصرى حتى يكون الهجوم الجوى المبيت والمخطط على الطيران المصرى قد تم، وبعدها يمكن أن تتلاحق حلقات المعركة

فى طريق محتوم هو أيضاً الطريق المرسوم. فكلُّ ضغط الرئيس الأمريكى من أجل ألا تبدأ مصر بالهجوم كان الهدف الأساسى والوحيد منه أن يمكن لإسرائيل من أن تبدأ هى بالهجوم، وبالهجوم بالطريقة المحسوبة المبيتة. والواقع أن هذه الخدع التى نفذها الرئيس الأمريكى شخصياً كانت أساسية وشرطية لنجاح المؤامرة، وجاءت بالفعل والأسف مصيرية بالنسبة لمعركتنا.

علامة أخرى من علامات التواطؤ أن الأستعمار بعد أن شن حملة دولية مسعورة حول مضيق تيران وهدد باقتحامه بمظاهرة بحرية مسلحة، وبعد أن أدرك فشله فى تحقيقها وبدأ يخطط لتدخل عسكرى من نوع آخر، ظل ماضياً حتى آخر لحظة فى الحملة الدعائية عن المضيق لتكون آخر ستاراً من الدخان يخفى التحول الجديد فى مؤامراته ويكسب وقتاً للإعداد لها.

علامة أخرى حاسمة أن إسرائيل التى تهاوت معنوياتها

وظلت بكل وضوح ترتعد باليأس والرعب طوال الأيام العشرة الأولى، لم تلبث فجأة أن إنقلبت مندفعة نحو الحرب والعدوان. ولو قد كانت تدرك أن ما تملكه هى من قوة يمكنها من دخول المعركة واثقة، ففيم كان التردد والهلع، وما الذى قلب الوضع فى يوم وليلة إن لم يكن ضمان محقق مخطط بالتدخل الأجنبى؟ وليس أبلغ وأقطع على ذلك مما أعلن رسمياً قبل المعركة: رسالة واشنطن إلى تل أبيب من أن «الولايات المتحدة تستطيع أن تقدم لكم ضمانات أكيدة ضد التدمير بما فى ذلك توفير الغطاء الجوى الذى يحمى مدنكم من القاذفات المصرية»، تصريح زعماء إسرائيل بعد تلك الرسالة من أن «إسرائيل متأكدة أنها لن تجتاز هذا الإختبار بمفردها» وأن «لدى إسرائيل أقتناع كامل بالموقف الأميريكى الذى لا يقبل التأويل».

علامة أخرى ودليل أن التهديدات الهستيرية المسعورة الحاقدة التى ظلت تنطلق من كل الدوائر الأمريكية قبل المعركة، إختفت

فجأة قبيل وأثناء المعركة، بل تحولت إلى مظاهرة من الفرح والشماتة المكشوفة، وكان المفروض منطقياً أن تزداد التهديدات لأحتمال أن تدور الدائرة على إسرائيل÷ لولا أنهم كانوا يدركون حقيقة التدخل المسلح المرتب لصالحها. وأكثر من هذا، لم تنته المعركة إلى ما إنتهت اليه حتى سارعت الدوائر الحاكمة والشيوخ فى أمريكا فى أفريقيا إلى الإعلان فى تشفى وتكبر المتآمر الذى نجح، أن مصر والعرب أخطأوا حين تصوروا أن إنشغال أمريكا فى ڤيتنام يلشها ويغل يديها عن العمل فى جبهة أخرى.

وعدا هذا فإن من المؤشرات الدالة أن حاملات الطائرات البريطانية التى وجهت إلى البحر المتوسط فى بداية الأزمة وحشدت فيه، لم تلبث بمجرد إنتهاء المعركة أن إنسحبت خارجه، بعد أن حققت جريمتها النكراء. ومن ناحية أخرى تكشف الأيام بإنتظام وإطراد، قبل المعركة وبعدها، عن عمليات مؤكدة من التدليس والخداع التزييف على مستوى الأسلحة والجنود داخل

محور العدو: فمن طيارين إسرائيليين يدربون فى قاعدة هويلس الأمريكية بليبيا وفى غيرها من قواعد أوروبا، ومن أعداد محددة من الطائرات الأمريكية غادرتها أثناء المعارك نحو الشرق، إلى فضح لعملية وضع للعلامة الإسرائيلية على طائرات أمريكية فى عديد من القواعد الأمريكية بألمانيا الغربية وأسبانيا وتركيا... إلخ.

تلك جميعاً أدلة دامغة على التواطؤ لا تقبل شكا؛ ولكن دليلاً واحداً ساحقاً يكفى بعدها ليقطع كل شك باليقين، وأعنى به واقع المعركة ذاتها. فمن ناحية أتت طائرات العدو المغيرة على مصر من ناحية الغرب، والمقدر أن مجال طائرات إسرائيل لا يكفى ليغطى الرحلة عن هذا الطريق جيئة وذهاباً إذا إمتدت حتى آخر حدودنا الغربية السياسية، وإن أمكنها ذلك حتى الحدود الغربية للوادى المعمور نفسه أى غرب الدلتا؛ وعلى أية حال لو أستطاعت لكانت عرضه لأن تكشف وهى فى طريقها من الشرق قبل أن تستدير نحو الغرب. إنها أذن أما طائرات غريبة لقوى التواطؤ

أتت من حاملات البحر أو من قواعده فى ليبيا وغيرها، وإما أنها طائرات العدو الإسرائيلى إتخذت من تلك الحاملات أو القواعد الأمريكية محطة على الطريق ومنطلقاً أو من معلومات طائرات التجسس الأمريكية طريقاً آمنة فى الأجواء المصرية.

أضف إلى هذا كثافة الأسطول الجوى الذى إستخدمه العدو فى المعركة. فالمقدر رسمياً بحسب أعلى قياده عربية أن قوته وصلت على الأقل إلى ثلاثة أمثال ما كان معروفاً لدى إسرائيل نفسها. هذا عدا ما شوهد فى سماء المعركة من طائرات أمريكية وبريطانية بلا مواربة، وما كشفت عنه طائرات العدو التى أسقطت وأعترافات ملاحيها بقدوم ودخول طائرات الأستعمار الأنجلو- أمريكى. وبعد هذا كله، فكما أكد رئيس الوزراء السوفيتى، ما كان يمكن لإسرائيل قط أن تحرز نصراً عسكرياً على العرب لولا تدخل الأستعمار الغربى الحاسم. بل قبل هذا كله ما أعترف به العدو الإسرائيلى نفسه حين أعلن قبل المعركة

أن «الذين يطالبون إسرائيل بأن تقف وحدها إنما يطالبونها بمعجزة».

ولا بد هنا من وقفه عند توازن قوى السلاح فى المعركة، حتى ندرك دور ومساهمة التواطؤ. فرغم أن من المرجح على ما يبدو الآن أن تقديراتنا نحن العرب لقوة تسلح إسرائيل لم تكن جامعة تماماً، فجاءت أقل من الحقيقة نوعاً، فإن من المؤكد أن هذا لم يكن ليغير من حقيقة تفوقنا، دع عنك تماماً أن يفسر ما أشترك به العدو من ترسانة خطيرة فى المعركة. وهنا يكمن دور التواطؤ. فالمعروف الآن أن الولايات المتحدة أرسلت إلى إسرائيل مئات من الطائرات على موجات قبيل المعركة، عدا الآلاف من «المتطوعين» من الطيارين الغربيين، وفوق هذا كله عدد غير معروف- بضع مئات أخرى بالتأكيد- شارك فى المعركة من قلب الأسطول السادس وكل حلقة القواعد الأمريكية فى البحر المتوسط والشرق الأوسط، حتى بلغ مجموع الأسطول الجوى الذى أتيح للعدو أن

يستعمله فى المعركة كلها نحو ١٥٠٠ طائرة كما تقدر المصادر العربية، نحو الألف منها على الأقل هى حصة التواطؤ مباشرة.

هذا عن أدلة التواطؤ وشواهده، ولا شك أن الأيام ستميط اللثام عن المزيد. أما عن تنفيذ المؤامرة فلا زال هناك كثير من المجاهيل فى معادلة التواطؤ، ستكشف عنها الأيام هى الأخرى، ولكن الخطوط العريضة- فى حدود ما نفهم- واضحة الآن بما فيه الكفاية، ومفتاحها كله ينحصر فى الجو أو بالأحرى الغدر الجوى. فبعد أن إتخذت القوات المصرية مواقعها فى قفزة كاسحة على الحدود وأحتشدت فى سيناء فى إنتظار الهجوم الإسرائيلى المفاجئ، جاءت المباغتة لا من الشرق كما هو مفروض، وإنما من الغرب أتت، من الغرب حيث لا مصدر للخطر ولا إستعداد للإنذار، فإستطاعت فى ضربة غادرة فى الظهر، قدر قوامها بنحو ٥٠٠ طائرة، أن تنال، وتنال كثيراً، من سلاحنا الجوى، مطارات وطائرات جاثمة، مع ملاحظة أن أسرارنا

العسكرية ومواقعنا الجوية تنقل بداهة إلى العدو الإسرائيلى بإنتظام عن طريق طائرات بل وسفن التجسس الأمريكية التى تغطيها كما تغطى كل بلاد العالم.

وكما رأينا فليس ثمة مصدر ممكن لهذه الطعنة الغادرة سوى عن طريق الحاملات الأمريكية فى البحر أو القواعد الأمريكية فى ليبيا، أو عن طريق مجالات الأمان غير المطروقة أو المحمية التى حددتها طائرات التجسس الأمريكية.

وأيا ما كان، فلا مفر لنا من أن نعترف- بالحزن والأسى كله- أن هذه الطعنة كانت قاصمة، لأنها جردتنا من أخطر سلاح فى المعركة منذ أول لحظة، مما ترك القوات البرية الضخمة بلا غطاء جوى فى قلب صحراء سيناء المكشوفة تماماً، وكانت بذلك تحت نيران العدو المثلث بكل كثافتها فضلاً عن مواجهتها للثقل الأكبر من القوات الإسرائيلية البرية. وفى نفس الوقت الذى تفرغت فيه القوات الإسرائيلية الجوية تماماً للعمل الهجومى البحت، بل

وبمدد متجدد لا ينقطع من حماتها، خارج حدودها، تكفلت دولتا التواطؤ بإقامة حلقة نارية وحشية مكثفة بالغة الكثافة على التخوم العربية فى سيناء وسوريا والأردن (حيث قدرت قوة الهجوم على الأخيرة وحدها بنحو ٤٠٠ طائرة). أضف إلى هذا ما قدمت قوات التواطؤ من مظلة حماية جوية كثيفة فى سماء إسرائيل نفسها كادت تجعلها غير منفذة لرد الفعل والعقاب العربى.

ورغم بسالة قواتنا البرية وصمودها فى إستماتة نادرة، فقد أصبح الوضع جميعاً غير متكافئ والمعركة غير عادلة أشبه بحرب بين جيش برى وجيش جوى، بل بين جيش برى وجيشين أحدهما برى والثانى جوى، فكان الإنسحاب على مراحل حتى القناة. وعندها إستغل العدو الحاقد فرصة توقف القتال على الجبهة المصرية ليركز ضرباته بحيوانية مسعورة وغل لئيم على سوريا إنتقاماً من وقفتها الفدائية الوطنية ومن صمودها البطولى

وتحقيقاً لأقصى قدر من التوسع الإقليمى فى أخر لحظة وبعد قرار وقف الإطلاق. وشىء مثل هذا يقال عن الجبهة الإردنية.

حقيقة المعركة

والسؤال الآن بعد هذا التشريح هو: كيف نشخص المعركة فى جوهرها وصميمها؟ نحن إبتداء إزاء عدوان ثلاثى جديد لا سبيل إلى الشك أو التشكيك فيه، عدوان أخذت فيه الولايات المتحدة دور الصدارة السافرة رغم كل تمويه وإنكار، وإحتلت فيه بريطانيا مكان فرنسا فى عدوان ١٩٥٦م. غير أن عدوان اليوم يختلف فى كثير عن عدوان الأمس. فإذا كان لا يقل حقداً وكراهية، ولا يقل حجماً وحشداً وشراسة، فإنه أكثر ذكاءً وتمويها أو بالأحرى كما عبر الرئيس عبدالناصر وأكثر خبثاً ولؤماً، ويمكن أيضاً أن نضيف– وأكثر قذارة وخسة. فلقد أفاد العدوان الجديد من دروس العدوان القديم، وجاء كما لو كان جولة

فى منافسة بين المجرمين فى فن الإجرام، ودرساً فى الأستاذية التآمرية تلقنه أمريكا لبريطانيا وتعرض فيه غروراً وصلفاً وتأكيداً لتفوقها.

فعدوان المتواطئين فى ١٩٥٦ كان سافراً فى الميدان بالغزو البريطانى الفرنسى المكشوف لأرض عربية، أما العدوان الأخير فقد تخفى فيه التدخل المتواطئ الأمريكى البريطانى فى ثياب تنكرية إسرائيلية- مجازاً وحرفياً- واتخذ مسرحية أرض إسرائيل حتى لا يفتضح على أرض عربية. وهذا الترتيب بالدقة هو الذى ينكر المتواطئون على أساسه تواطؤهم بكل تبجح وختل.

ومن هنا يأتى الفارق الجذرى بين التدخلين. ففى ١٩٥٦ كان تدخلاً شاملاً مثلث الأبعاد: براً وبحراً وجواً؛ ولكنه اليوم كان جواً فقط. الأول غزو بحاملات الجنود، والثانى غزو بحاملات الطائرات. كان الأول من طراز الحملات التقليدية عبر البحار والتى

عرفها التاريخ حتى القرن التاسع عشر، أما الثانى فمن طراز القواعد العائمة وأقرب إلى تكنولوچية ولوچستيه القرن العشرين. ولعل هذا وحده فى ذاته أن يعكس بعض الفرق بين أساليب وقدرات الإستعمار القديم والإستعمار الجديد.

وفى ظل هذا الدور الجوى يمكن أن نحلل مؤامرة العدوان فى عناصرها الأولية إلى أثنين: الأول غارة غادرة مباغته، غيلة فى الظهر والظلام، من طراز «بيرل هاربر» تعتمد على كثافة جوية شديدة تصل إلى حد الحرب الصاعقة تجردنا بها من سلاحنا الجوى قبل أن تبدأ المعركة البرية المدرعة، التى تمثل العنصر الثانى فى المؤامرة وترسم بدورها معركة من طراز «حرب الصحراء» الذى عرفته الصحراء الغربية فى الحرب العالمية الثانية، وإنما على أرض سيناء وبغير تكافؤ- وهذا هو صلب المؤامرة- بعد أن شل الغطاء الجوى المصرى.

ومن هذا التشخيص ينبع أو يبرز فارق آخر بين ١٩٥٦،

١٩٦٧ . ففى الأولى أريد لسيناء أن تكون مصيدة برية وفخاً أرضياً للقوات المصرية بين العدو الإسرائيلى من أمام والغزو البريطانى الفرنسى من خلف. أما هذه المرة فقد أريد لسيناء أن تكون مصيدة جوية، مصيدة معلقة، لقواتنا البرية المسلحة، وذلك بعد أن كانت هذه قد تقدمت إليها ثم ما لبثت أن تخلفت عنها قواتنا الجوية، والفارق هنا بين العدوانين أن مصر سارعت فى العدوان الأول بسحب قواتها من مصيدة سيناء فى الوقت المناسب، أما فى الثانى فكان الوقت متأخراً جداً والسهم قد نفذ.

ومن هذه الفروق وتلك جميعاً يمكن أن نرى الفارق النهائى بين دور إسرائيل فى المؤامرتين. ففى ١٩٥٦ كانت إسرائيل مخلب قط أو طمعاً- طمعاً قذراً يستدرج الفريسة إلى المصيدة لتطبق عليه قبضة الصياد الغادر. أما فى ١٩٦٧ فكانت إسرائيل حصان طروادة- مجرد واجهة وقناع تخفى العدوان الغادر وراءه بل داخله فعلاً. أما قيمة هذا الدور الإسرائيلى فى المعركة فكان

فى ١٩٥٦ وبإعتراف وتشبيه القائد الصهيونى موشى ديان نفسه كمن يصعد على دراجة تلاً وهو متعلق بعربة لورى. أما فى ١٩٦٧ فموقف التدخل الإستعمارى كمن قيد ذراعى شخص عملاق على غُرة ومن خلف بل وكسر إحداهما، فتقدم العميل الإسرائيلى القمئ ليكيل له الضربات بجبن وخسة ولكن بلا رادع.

وإذا كان ثمة فارق آخر وأخير، فهو أن العدوان فى ١٩٥٦- عدوان الإستعمار القديم- لم يكسب المعركة العسكرية وخسر المعركة السياسية، إذ أدى إفتضاح التواطؤ والعدوان المكشوف إلى إنهيار معسكر العدوان وإنهيار مهندسيه إنهياراً مخزياً مروعاً. أما التواطؤ الخبيث الملثم فى ١٩٦٧- عدوان الإستعمارالجديد- فبعد أن كسب معركة عسكرية رخيصة دنيئة، فإن مجرمى الحرب لا سيما منهم الأمريكان لم يزل جميعهم سكارى بإنتصارهم وأفلتوا من العقاب والإدانة، بل ويجدون فى أنفسهم الغرور

والقحة على التباهى بالنصر والتنصل المتبجح فى نفس الوقت من الجريمة! ولكننا نثق بأنهم إذا كانوا قد كسبوا المعركة العسكرية فإن المعركة السياسية هم فيها خاسرون.

ونصل الآن إلى الحكم العام على المعركة، تأسيساً على هذه المقارنة والتشخيص جميعاً. فى ١٩٥٦ لم تكن معركة أصلاً بيننا وبين العدو الإسرائيلى، وكل إدعاءاته الكاذبة بإحراز نصر هى خرافة بل سفه محض لا يستحق رداً. أما اليوم فقد وقعت معركة وخسرناها بالفعل، ولكنها لم تكن فى الحقيقة بيننا وبين إسرائيل ولم نخسرها لإسرائيل أو على يديها، وإنما خسرناها على يد التواطؤ الأمريكى الجوى المبيت بالغدر والحقد والنذالة، وهو تدخل لم يكن فى إستطاعتنا ردعه وحدنا، وكان المقدر والمأمول أن يقابله تدخل مضاد من قوة مكافئة. لقد كانت الحرب حرباً بين العرب فى ناحية وأمريكا وإسرائيل فى ناحية أخرى، أو بإختصار عملى بين العرب وأمريكا.

ومن المحقق أن إسرائيل ستملأ الدنيا ضجيجاً بإنتصار لها جديد، وستتظاهر فى إدعاءاتها القوى المعادية فى الغرب أذلالاً للعرب وتحطيماً لأسطورة القوة المصرية أو العربية. ولكننا نثق بغير حد أنها إنما تمارس خداع الذات مرة أخرى، ونثق بكل قوة أنه لولا التواطؤ الداعر من جانب الإستعمار لسحقت قوة إسرائيل الذاتية سحقاً لا على أرض سيناء وإنما على أرض فلسطين المحتلة حتى تل أبيب.

غير أن حساب الأرباح والخسائر لا يتم إلا بالنقد الذاتى، صريحاً وشجاعاً. هل أخطأنا فى المعركة، وما هى الأخطاء تلك؟ قد يقال أننا ضيعنا أياماً عشرة ثمينة كان العدو فيها يرتعد فرقاً، فى إنهيار وإنقسام وحيرة مهلكة. وقد يتساءل البعض كذلك عما إذا لم تكن إستجابتنا للضغوط أو المناشدات سواء من الأعداء أو من الأصدقاء بألا نبدأ الهجوم فيصلاً عكسياً فى المعركة. فهل هذا النقد صحيح؟

ما أسهل– ولكن ما أسوأ– الحكمة بعد الواقعة. وهذا بالتحديد ما نرى. فالحقيقة أنه كان لابد من الإنتظار فى الأيام العشرة لنرصد إحتمالات التدخل ومداها. وأما تأجيل الهجوم مؤقتاً فكان ضرورة ثلاث، أولاً ألا نعطى فرصة وحجة للعدو الأمريكى المتربص الذى يتلمس كل ذريعة للتدخل السافر، وثانياً ألا نحرج الأصدقاء، وثالثاً ألا ننفّر المحايدين وأصحاب المواقف الهامشية والأصوات العائمة. وعلى أية حال، فأنى كان لنا أن نعرف بخبايا المؤامرة المبيتة؟ وأهم من ذلك، وسواء عجلنا بالهجوم أو أجلنا، فقد كان العدوان الأمريكى الإجرامى آتياً فى صورة أو أخرى على أية حال. والواقع أن المرء كلما تمعن أحداث المعركة– بعد ما كشف– يكاد يصل إلى نتيجة منطقية وهى أنه لم يكن فى الإمكان إلا ما كان، وإنه إذا كان ثمة خطأ فهو خطيئة تدخل دولة عظمى جبانة غادرة عادية بالتحيز والتعصب وحدهما، دون أن ينفى ذلك أمكان وقوع أخطاء أولية أو ثانوية من جانبنا لم تعلن بعد. ومهما

يكن من أمر، فإن النصر، هذا الذى كان أملاً ضخماً ففقدناه، لن نسترجعه إلا بعد أن نعى دروس النكسة ونرتقع إلى متطلبات الموقف التاريخية، وهذا ما ينقلنا إلى الجانب التالى من دراستنا عما بعد المعركة.

إلا أن سؤالاً يفرض نفسه، قبل هذا، عن الإطار الأكبر للتواطؤ الأمريكى بالذات. إن عداء أمريكا وكراهيتها لنا كانا واضحين لسنين، بل لعلها كانت فى الحقيقة فى حالة حرب سرية معنا. ولكن حقدها وحربها اللاأخلاقية وصلا إلى المنتهى وافتضحا مع العدوان، حين تحولت الحرب السرية إلى حرب سافرة ولكنها مقنعة وغير معلنة. ولقد كنا نعرف تماماً أن أمريكا هى إسرائيل وأن إسرائيل هى أمريكا كما عبر بصدق ونفاذ ثاقب الرئيس عبدالناصر، ولكننا لم نكن نتصور أن تكون أكثر صهيونية من إسرائيل ومن الصهيونية. فلماذا كانت؟

حماية أمريكا لبقاء إسرائيل إنما هى مجرد خط فى مخطط

وجـزء من كل، وإن هى إلا الجـانب السلبى على ضـراوته فى معركة كبرى أكثر ضراوة جانبها الإيجابى هو القومية العربية بالتحديد. أن هدف أمريكا الآن السيطرة على العالم جميعاً وإخضاعة لنفوذها لخلق أول إمبراطورية كوكبية فى التاريخ الإمبريالى وإن يكن فى شكل غير مباشر هو الإستعمار الجديد. والعالم الثالث، هشاً ومتخلفاً، هو الهدف المباشر، وقد تساقط بعضه بالفعل. لكنها القومية العربية، وعلى رأسها الجمهورية العربية المتحدة بالتحديد، وعلى رأسها عبدالناصر بمزيد من التحديد، هى الصخرة التى تتحطم فيها مسيرة الطغيان والأستعمار الأمريكى.

من هنا ذلك الحقد الرهيب وتلك الكراهية الرعناء التى وصلت إلى حد الحرب غير المعلنة تبغى أن تجعل من المثل أمثولة، والتى يضاعف منها تلك المفارقة التاريخية- المفهومة على ندرتها- من أن بعض الدول الصغرى قد تملك زعماء أكبر منها، بينما قد

تملك بعض الدول العظمى زعماء أصغر منها. فبينما ظفرت القومية العربية بزعيم فلته تجسد فيه مائة مليون تجسدا قل مثيله وتكاد تحسدها عليه أغلب الشعوب، ورثت أمريكا- والعالم معها- بوصوليٌّ محترف لا أخلاقي (بإعتراف بعض الأمريكيين أنفسهم)، ورث الحكم صدفة في غفله من الزمن ويشعر بمركّب نقص ذاتي حوله إلى طاغية عالمي متعجرف يطفح بالحقد والشراسة والتدمير كالثور في متحف الخزف. (لاحظ أن الشر والسوء نالنا من أمريكا في إدارات «الرؤساء بالوراثة» أي عن وفاة رئيس سابق، إبتداء من ترومان إلى چونسون، وفي كل مرة إتخذ الشر شكلاً يتعلق بإسرائيل بالتحديد).

إن الرأسمالية الأمريكية العاتية قطعت شوطاً رهيباً نحو الفاشية المبطنة، بعد أن سيطرت عليها آله وآلهه الحرب، ولقد تحولت أمريكا على أيدي عصابات رعاة البقر وخاصة فرعون تكساس وسفاح العصر إلى لعنة العالم الجديد وإلى تتار الغرب

وونداك القرن العشرين، بل لقد شبهها البعض بأنها سرطان العالم المعاصر. وقد أصبحت أمريكا العدو الأكبر أو الأصيل للعرب، أما إسرائيل المجرمة المباشرة فهى قاعدة أمريكية عسكرية كسائر القواعد، إلا أنها قاعدة بدرجة دولة وطاقمها جميعاً من اليهود. ولن تزول القاعدة إلا إذا كسر البغى والطغيان الأمريكى الحاقد المتعطش للقوة والدماء.

ولقد ظلت أمريكا تحتفظ بقواعدها العسكرية التى تطوق العرب من كل جانب وبأساطيلها- هذه «الإنكشارية العائمة»- فى البحر المتوسط سنوات طوالا منذ الحرب الثانية دون أن تستخدم إطلاقاً إلا ضد العرب حتى الآن، وذلك أكثر من مرة: أزمة لبنان ١٩٥٨ ، والعدوان الإجرامى الأخير ١٩٦٧ . بل أن كل جهاز الحرب الأطلنطى لم يستخدم لضرب شعب ما مرتين فى عقد واحد إلا فى العالم العربى. وقد وجب على العرب أن تدرك هذا كله وتتصرف على أساس أن الصراع مع أمريكا صراع حياة أو موت، وأن مقتل إسرائيل إنما يكمن فى مواجهة أمريكا.

بين المعركة السياسية وحرب الثأر

ومعركة هى بالتأكيد، بل إنها هى الهدف والقمة للمعركة الحربية التى تمت، مثلما هى خير ما يعرّى تواطؤها ويكشف عنه فى سفور مطلق. فالموقف الآن منذ وقف إطلاق النار يتلخص أساساً فى عمل من جانبنا لإزالة آثار العدوان والعودة بالوضع إلى ما كان قبل الحرب (ante bellum)؛ وعمل مضاد من جانب معسكر العدو لتشريع وتثبيت نتائج العدوان أى فرض الأمر الواقع حسب الحالة الراهنة (status quo). وهذا مدار المعركة السياسية ومحور إسراتيجيتها. وبعبارة أخرى، فإذا كانهدف المعركة الحربية أن تكسب القتال، فإنها هدف المعركة السياسية الآن أن تكسب الحرب.

فأما موقفنا نحن فواضح كالبديهيات: لن نسمح للمعتدى بثمار العدوان، ولا نقبل أن يكافأ الغادر أو المجرم على جرمه، لا تنازل عن شبر من الأراضى العربية أو عن ذرة من الحقوق

العربية، ولهذا لا بد من إدانة العدوان الصهيونى الإستعمارى وإنسحاب القوات المعتدية فوراً وبلا شرط إلى ما وراء خطوط الهدنة كما كانت يوم ٤ يونيو أى خطوط ١٩٤٩.

وقد جندت الديبلوماسية العربية كل أسلحتها وحشدتها لكسب هذه المعركة السياسية المريرة والمصيرية والتى لا شك ستكون ممطوطة مطوّلة. ويمكن أن نحلل أسلحة الإستراتيچية العربية فى مجموعتين: قوى ضاغطة هى الأسلحة المعنوية أو الديبلوماسية، وقوى ضاربة هى الأسلحة المادية أو الإقتصادية.

فعن الأولى، من الواضح أن من أبرز نتائج العدوان الثلاثى الجديد حقيقتين على جانب كبير من الخطورة: وحده العرب– كل العرب– شعوباً وحكومات إلى حد لم تعرفه من قبل فى الواقع، إذ تغلبت الوحدة القومية ووحدة المصير والكيان فى وجه الخطر الخارجي الإجرامى على كل الخلافات المحلية الثانوية. فبادرت الدول العربية إلى قطع علاقاتها مع دولتى التواطؤ.

النتيجة الثانية أقتناع السواد الأعظم من شعوب العالم ودوله بعدالة قضية العرب المصيرية، ووقوفها ضد العدوان. فبادرت دول المجموعة الشرقية وبعض الدول الإفريقية إلى قطع علاقاتها مع إسرائيل، كما نددت وكثير غيرها بدولتى التواطؤ. وتعمل الديبلوماسية العربية الآن بالإشتراك مع جبهة عريضة من الجهود الصديقة فى العالم الثالث والدول الشرقية والرأى العام العالمى الحر. وذلك لا شك من الضواغط المؤثرة سياسياً.

أما الأسلحة المادية أو الأقتصادية التى شرعتها الدول العربية كعقوبات للتواطؤ والعدوان فتتلخص فى ثلاث هى البترول ثم القناة ثم مصالح الأعداء المحلية. ولقد قطع تدفق البترول بالفعل وعلى مستوى العالم العربى كله عن دولتى التواطؤ، كما أغلقت القناة فى وجه الملاحة، ومنعت كثير من الدول العربية التجارة مع الأعداء وحجبت عنهم كثيراً من نشاطاتهم الإقتصادية فيها، وربما سحبت أرصدتها الضخمة من بنوكها. والنقطة الأساسية فى هذه

الأسلحة الثقيلة أن فاعليتها رهن بإجماع العرب ووحدتهم أولاً حتى لا يكون تسرب أو تسلل، ثم هى رهن بالصمود الطويل المدى. ثانياً لأنها أسلحة بطيئة أساساً وحتى يكون خنق العدو أقتصادياً خنقاً تاماً. ولا شك أن هذا ينتظر تضحيات وصعوبات هامة بالنسبة للدول العربية، وهذا بالدقة ما سيحاول العدو أن ينفذ منه لتفتيت وحدة الموقف والعمل العربى أو لتمييع فاعلية العقوبات بطرق ملتوية أو التحايل خلسة عن طريق طرف ثالث... إلخ..... ولكن ما أهون كل تضحية مادية وإقتصادية فى سبيل الكيان والوجود ذاته، وليس صحيحاً أن قطع البترول سلاح ذو حدين سواء فى المدى القصير أو الطويل، وأبعد منه عن الصحة ما بدأ الأستعمار يشيعه بخبث لتحطيم المقاومة العربية من أنه سلاح «إنتحارى».

لا شك إذن أن هذه جميعاً يمكن أن تكون أسلحة قاتلة للأعداء ويمكن أن ترغمهم على الضغط على عميلتهم إسرائيل

للإنسحاب إلى خطوط الهدنة: فلا بترول ولا قناة ولا تجارة حتى تنسحب إسرائيل. ومع ذلك فينبغى أن ندرك متتالية أساسية فى فاعلية هذه الأسلحة الإستراتيجية. فهى أولاً لا تأثير لها مباشرة على إسرائيل ولا علاقة لها بها فى ذاتها. وثانياً فإن وقعها على أمريكا التى تملك زمام إسرائيل محدود غير مؤثر لما تملك من إنتاج بترولى ضخم ولوقوعها فى العالم الجديد بعيداً عن مجال قناة السويس. أما الضربة الحقيقية والقصوى فتقع، أخيراً، على بريطانيا حيث تعيش على بترول العرب وقناة العرب، ولكن بريطانيا ذنب فى الأمر كله ولا تملك من أمر إسرائيل شيئاًحاسماً.

ذلك موقفنا وتلك أسلحتنا، أما معسكر العدو فهدفه المباشر فى كلمة واحدة هو التوسع الإقليمى، وذلك بمنطق الأمر الواقع وقوة العدوان، ليس فقط ما كان منه وما هو كائن بل وبما يهدد بأن يكون. فليس من الصدفة أن أعلنت إسرائيل بعد المعركة تواً

أنهـا تـفكر فى إنتـاج قنبلتـهـا الذرية نهـائيـاً. فـمـا هذا التلويح والتـوقـيت إلا مزيد مـن الإرهاب والتهـديد والإبتـزاز للعـرب لإثارة المزيد من الذعر والتخلخل بينهم.

وتتوهم إسرائيل وخالقوها أنها قد حققت مرحلة من أحلامها الإستعمارية فى إمبراطورية صهيونية توسعية، وأنها إذا ضمت الأراضى التى إغتصبتها فى عدوانها الأخير فإنها تحقق لنفسها «إســرائيل الوسطى» خطوة على الطريق من «إســرائيل الصغرى»- كما تسمى نفسها حالياً- إلى «إسرائيل الكبرى» كما تسمى حلمها الشرير من النيل إلى الفرات.

وتتزعم الولايات المتحدة حملة ديبلوماسية عالمية ضارية لحساب ربيبتها العميلة، وتحاول أن تفرض مساومة إقليمية بين الحق العربى والعدوان الصهيونى. ويمكن أن نلخص إستراتيچية هذه المساومة فى أنها تبدأ بالمزايدة وتنتهى بالمناقصة، وبهذا تمر بين الطرفين فى عدة مراحل تكتيكية. فالمرحلة الأولى تبدت فى

شلها التام لمجلس الأمن بالمناورات المعيبة المبتذلة فى واجبه من إدانة العدوان وتصفية آثاره.

وفى ظل هذه المرحلة وجدنا قمة المزايدة حين إنطلقت الأصوات الحاقدة التى تقطر غلاً على العرب من شيوخ الولايات إلى أشباح الساسة الموتورين فى بريطانيا وأوروبا، عدا زعماء العصابة الإسرائيلية أنفسهم بالطبع، إنطلقت تطالب فعلاً بإعادة تخطيط حدود إسرائيل على أساس التوسع والإغتصاب الجديد بزعم الحقائق الواقعية الراهنة، وبحجة ضمان أمن إسرائيل والسلام فى المنطقة (كذا!). ومعنى هذا ضم شريحة من جنوب سوريا، ثم الضفة الغربية من الأردن، ثم غزة وسيناء، هذا فضلاً عن حق المرور لا فى خليج العقبة ومضيق تيران فحسب بل وعبر قناة السويس كذلك (كذا!).

غير أن هذه الأوهام السفيهة المجنونة تبددت فى المرحلة الثانية حين إنتقلت القضية إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة. ففى

مواجهة الضغوط العالمية ضد العدوان، بدأت المناقصة. ولم يتبد حتى هذه اللحظة مدار هذه المرحلة أو ما بعدها، وإن بدأت تلوح بعض مساوماتها وهى تحويل الهدنة بين العرب وإسرائيل إلى صلح دائم- وهو حلم الإستعمار القديم الذى يتوهم إرغام العرب على المفاوضة المباشرة مع إسرائيل ثم الإعتراف بها. والمفروض الآن فى مقابل هذا الإعتراف أن تنسحب إسرائيل عما إغتصبته فى العدوان الأخير إلى «حدود» الهدنة، ولكنها بهذا الإنسحاب تشترى شرعية كيانها إلى الأبد وضمان وجودها، الأمر الذى يضمن ضمناً حرية مرورها فى خليج العقبة بل وفى قناة السويس!

وقد كشف عن مرامى هذه المساومة إعلان رئيس الولايات المتحدة أن الدول المعنية فى الشرق الأوسط التى ستقبل إقرار سلام دائم ستحصل أو هى التى ستحصل على مساعدات إقتصادية أمريكية. كما ردد دعوة الصلح والإعتراف، ثمناً

لإنسحاب العدوان، قادة بريطانيا فى نفس الوقت. كذلك فقد بدأت أعراض مؤامرة خسيسة جديدة. فبعد أن ظلت أمريكا تدعى الحق- متطفلة- فى رفض أى تغيير فى الحدود الإقليمية فى الشرق الأوسط وتفرض لنفسها حقاً مزعوماً فى التدخل لتنفذ ذلك بالقوة، فإن الملاحظ بعد المعركة التوسعية الإسرائيلية الأخيرة أنها كفّت عن ترديد النغمة القديمة، توطئة لفرض الحدود الجديدة لا شك. ومعنى هذا ببساطة أنها إنما كانت تحمى حدود إسرائيل ما دامت مهددة وذلك تحت زعم حماية حدود العرب أيضاً، ولكنها تشجع وتحمى توسع الأولى إذا وقع..

وأيا ما كانت أو ستكون مراحل المناقصة التالية، فلعلها ستتقلص فى نهاية المطاف إلى شرط أساسى هو ضمان حرية مرور إسرائيل فى مضيق تيران، إلى جانب بعض شروط ثانوية كضمان منع عمليات الفدائيين على الحدود أو عودة قوات الطوارىء الدولية.. إلخ، وعندها ستعود المناورات الإستعمارية إلى

مشاريع تدويل خليج العقبة، أو بالأحرى وبالتحديد تهويده، على نحو ما دارت بوادر الأزمة.

ونحن نشك فى أن إسرائيل ستقبل حداً أدنى من هذا، بل نشك أصلاً فى أن تصل إليه قبولاً أو بالضغط. نقول هذا لسبب بسيط ولكنه قاطع، فالأزمة التى فجرت الموقف إلى درجة الحرب إنما بدأت أصلاً من منع إسرائيل من المرور فى المضيق، ولو قد كانت على إستعداد لأن تقبل بذلك لما قبلت بمخاطرة الحرب فى وقت كان الموقف الحربى فى غير صالحها، فكيف وهى ترى نفسها- بغض النظر عن التواطؤ- تضع أيديها الآن لا على المضيق وحده بل على أراض عربية حوله؟ هل من المتصور أن تقبل إسرائيل- ودعك من حقدها الصهيونى البشع وكراهيتها الحيوانية للعرب واطماعها المتوحشة فيهم- أن تخسر المعركة السياسية وقد كسبت لها المعركة العسكرية؟ وبالفعل فقد حملت الأنباء، بعد أن تم كتابة هذا، إعلان إسرائيل عدم الإلتزام بأى قرار

بالإنسحاب لتقطع الطريق على الضغط والعمل السياسى قبل أن يبدأ.. وهذا إن إتفق مع توقعنا، فإنه قد لا يغير من المراحل التى ستمر بها المعركة السياسية غالباً.

ومن الناحية الأخرى، فقد ذهبت مصر والعرب إلى الحرب لإستعادة حقوق السيادة البحتة على مياهها الإقليمية، وهى ليست على إستعداد لأن تفرط فى ذرة من رمالها أو مياهها، ولن تقبل أن يكون العدوان تبريراً للسرقة وأن يكتسب الإغتصاب شرعية أى شرعية. وهى إن فعلت، فمعنى ذلك أنها خسرت المعركة العسكرية والسياسية وقبلت بذلك، وهذا محال بالطبع.

من هنا فنحن نرى أن الإحتمال الغالب أن إسرائيل مهما أدينت وطولبت بالإنسحاب من قبل الأمم المتحدة، فلن تمتثل- متى فعلت؟!- ولن تنسحب: إنها هناك بالفعل والقوة، وعلى من يريد أن يخرجها بالقوة.. ونخرج من هذا بأن المعركة السياسية لن نكسبها على الأرجح بالأسلحة الديبلوماسية أو الضغوط

الإقتصادية، وإنما بمعركة عسكرية جديدة نكسبها. المعركة السياسية لن تعدو أن تكون غالباً، جملة إعتراضية بين معركتين حربيتين.. إنتهاء متشائم ربما، ولكنه واقعى فيما نظن، وأسلم مغبة للأمل والعمل العربى.

المعركة الثأرية

جولة ثانية إذن هى وحدها المصحح الأخير والوثيق للجولة الأولى. وإذا كان «هذا ليس وقتاً للحزن ولكن للعمل»، فذاك هو المعنى الوحيد للعمل- والوقت الوحيد أيضاً. نريد أن نقول أن فترة المبارزات السياسية فى الأمم المتحدة، التى قد تطول إلى شهور، هى بعينها وبالضبط فترة الإستعداد المصمم، المطلق، الصامت، لمعركة مسلحة جديدة قد ندعى إليها فى أى وقت وقد تكون أصعب منالاً وأسوأ ظروفاً، وبالتأكيد أقل طموحاً وأهدافاً، من الجولة الأولى، ولكنها ضمان شرطى لإسترداد الحق العربى

المستباح فضلاً عن إنها الآن حيوية للروح المعنوية العربية وضرورة للنضال والهيبة معاً.

فمما لا شك فيه أن العدوان الثلاثى الدنىء قد نجح- ولكن مؤقتاً- فى تقليص أهدافنا النضالية من تحرير الأرض السليبة إلى تحرير الأرض المفقودة. ولعل هذا هو الهدف الممكن موضوعياً ومرحلياً لأى جولة أخرى مباشرة. أما بعدها فذاك أمر آخر يحتاج إلى إعادة تخطيط وتفكير وتوجيهات جذرية وشاملة ليس ها هنا مجالها الآن. فإذا ما قبلنا هذا المنطق من حيث المبدأ، فثمة كثير من الإعتبارات والمناقشات والتقييمات فى كل المجالات الإقتصادية والعربية والحربية تحتاج إلى أن توضع موضع النظر، ومدارها جميعاً كيف ينهض جريح من وسط ركام، ولا يمكن أن نعرض لها هنا إلا عابرين.

فعلى المستوى الإقتصادى، ومع تقديرنا التام للصعوبات والخسائر التى ترتبت وستترتب على العدوان، فإن من

الضروري أن يعاد توجيه إقتصادنا القومي ليكون في خدمة المعركة العسكرية الثأرية أولاً وأخيراً. لابد في كلمة موجزة من إقتصاد حرب، وتخطيط حرب، وميزانية حرب، تدور جميعاً حول محور أساسي من التقشف، والتقشف القاسي إذا لزم، والقبول بالتضحيات والتنازلات وشد الأحزمة على مستوى الشعب والفرد، مع الحد الأقصى من العمل ومضاعفة الإنتاج. إقتصاد وتخطيط وبرنامج شعاره القائد: الكرامة فوق الحياة ذاتها، ودولة القوة قبل دولة الرفاهية، ومجتمع الثأر قبل مجتمع الخدمات.

ومن هذا المنطق، يعاد ترتيب الأولويات ليأتي التسلح والإنتاج الحربي في الصدارة، ثم الخطوط الإستراتيجية في الإنتاج الصناعي والزراعي، بينما يتم تقليص وتقليم الخدمات إلى الحد الأدنى الممكن وإختزال كل كمالية أو ترف وتأجيل كل ما ليس عاجلاً أو ضرورياً. ونحن لانشك لحظة في أن التنمية الإقتصادية،

والخدمات الإشتراكية، والرفاهية الإجتماعية، كلها مطلب قومى عزيز، ولكن من المؤكد أن الوجود والكيان والمصير تأتى فوق الجميع. ثم أن تلك الأهداف الغالية ليست ملغاة بل موجلة، فالبرنامج كله موقوت عابر ريثما يتم النصر على العدو المحتل. إن هذا وقت البذل والإنضباط، ونخشى أن نقول أننا لم نعش بعد حقاً على مستوى المعركة وعياً وتكريساً وعطاءً.

أما على المستوى العربى فقد بات من الضرورى أن تتوارى الخلافات، أياً كانت أصولها أو دلالاتها، أمام الخطر الجاثم، لاسيما وقد فرضت المعركة بالفعل وحدة الموقف الفورية على قادة العرب. لقد أدرك الجميع بصورة درامية ونهائية أننا لا نواجه إسرائيل ولكن أمريكا بكل حقدها ومقتها وبغيها، نواجه أكبر حلف للتعصب والكراهية فى هذا العصر، نواجه مفترق طرق عنوانه أن نكون أو أن لا نكون. الوجود القومى لا النظم الإجتماعية هى اليوم التى تتعرض للإختبار والتحدى. وإذن فلا

يجوز مثلا أن تبقى مشكلة كاليمن، بل لابد من الإعتراف بالجمهورية وتأمينها فوراً وبلا تحفظ.

لا بد إذن من وحده الصف ووحدة الهدف ووحده العمل، بل لابد من «وحدة حرب» فى هذه المرحلة تقوم على وعاء غربى مشترك يشمل كل الدول العربية محاربة وغير محاربة لتمويل التسليح والمعركة بسخاء مطلق وبلا حدود، وتنسق وتنفذ بكل دقة وصمود خطط الحرب الإقتصادية من مقاطعة تجارية ووقف بترول وسحب أرصده ومصادرة مصالح مادية وتصفية قواعد أجنبية .. إلخ.. وليكن الشعار فى هذا كله ما قاله الرئيس عبدالناصر أخيراً: «أن من الضمانات الأولية إعادة توجيه المصالح العربية فى خدمة الحق العربى»، «وأن الأمر الآن يقتضى كلمة موحدة تسمع من الأمة العربية كلها».

وثمة هنا نقطة أو أثنتان قد تقبلان الإختلاف فى هذه المرحلة الموقوته: فقد يرى البعض أن الوحدة السياسية على مستوى أو

آخر دستورياً أو جغرفياً مطلب ضرورى لضمان وحدة العمل الحربى العربى، وقد لا يرى آخرون ذلك فى المدى العاجل. وبالمثل، هناك من يعتقد أن وقف البترول عن الأعداء قد لا يكون رادعاً لخطر التدخل الإستعمارى المسلح مرة ثانية، وأن التأميم وحده هو الذى يمكن أن يصيب أمريكا بالذات. ولكن البعض يرى أن التأميم عملية أضخم من إمكانيات العرب فى الوقت الحالى وقد يخلق من المشكلات أكثر مما يحل. وبين الإتجاهين إقتراح بتأميم حصص الأعداء فى البترول مع تحويلها لمدة محدودة- ٥ إلى ١٠ سنوات مثلاً، وبشروط جديدة مقيدة- إلى دول صديقة كفرنسا، ليس فقط لضمان الخبرة والإنتاج والتسويق ولكن أيضاً لنثبت أن صداقة العرب لا تقل قيمة وخطراً عن عدائهم.

هذا عن ضرورات العمل على المستوى الإقتصادى والعربى كإطار وخلفية لمعركة الثأر المنتظرة أو المحتملة. أما عن المجال

العسكرى نفسه فالمفهوم أن جزءاً هاماً من سلاحنا الجوى- نصفة أو زد عليه قليلاً- قد نجا من غدر بيرل هابر الجديد، وأنه ما أمتنع عن دخول المعركة بعد ذلك إلا لتدمير المطارات، وأهم من هذا جميعاً أن قوة الرجال من الطيارين، وهى أثمن وأخطر ما فى السلاح الجوى بالذات، لم تمس بسوء خطير. ومن ثم فبعد إصلاح المطارات- وهو أمر هين نسبياً- يكمن الحل فى تعويض خسائر الطائرات ثم مضاعفتها بالتوسع والنمو.

وهنا يأتى دور الأصدقاء فى الشرق، وهو التزام أصبح أكثر من أدبى بعد أن حدث ما حدث. والمفهوم أن هذا قد تقرر بالفعل وبالوعى كله فى مؤتمر زعماء الدول الشيوعية الأخير. وهنا يجب أن تكون إعادة التسليح على أسس جديدة تماماً من حيث الكم والكيف بحيث تتناسب مع الأخطار الصاعدة وبمقياس يتكافأ مع أبعاد التدخل المتواطئ على نحو ما كشفت الجول الماضية. كما ينبغى أن تكون أسس الدفع جديدة تماماً هى الأخرى، كلها تسهيلات وأغلبها بالأجل البعيد جداً.

ومثل هذا يقال عن القوات المدرعة، حيث يفهم أن الخسائر كانت فى العتاد قبل أن تكون فى الرجال. وواضح من هذا كله أن إعادة بناء القوة المسلحة يمكن بالعزم والإصرار أن يطفر فى شهور. وبإختصار فإن المطلوب أن تتحول مصر إلى ثكنة عسكرية أو ترسانة مسلحة بأسرع ما يمكن وكما لم تكن من قبل، مع تلافى نقاط الضعف أو عدم الإستعداد التى كشفت عنها الجولة الماضية سواء فى الإنذار أو مكافحة التجسس، ولكن أساساً وقبل كل شيء مع تلاقى «دفاعية» تلك الجولة التى أستدرجنا إليها بالتغرير والمخاتلة.

ونقصد بهذا أن نضمن عنصرين جوهريين: الهجوم والمباغته. ففى إطار من السرية المطلقة، نتكتم تماماً توقيت الهجوم، ونكرر فى العدو ما حدث لنا تماماً فى سيناء. فموقف العدو الآن فى سيناء يشبه إلى حد ما موقفنا قبل العدوان حيث قواته موزعة أو محتشدة فيها. فإذا أمكن بغارة جوية جبارة

مباغته، على غرار ما فعل العدو فى بداية الجولة الأولى وبنفس القوة، تغطى مطاراته دفعة واحدة فى وقت واحد فى سيناء وإسرائيل، إذا أمكن تجريد العدو من غطائه الجوى، فقد وقعت قواته البرية فى سيناء فى مصيدة- بل فى مقبرة هذه المرة- كالتى إرادها من قبل لنا، ويمكن إبادتها تماماً. وعلى الجبهة السورية والأردنية وفى نفس اللحظة، يتم هجوم مماثل. وبهذا يتم إستعادة الأراضى العربية بنفس الإستراتيچية التى فقدت بها، أو بالأخرى بنسخة مقلوبة أو بصورة معكوسة.

ومن شأن مثل هذه الحرب الخاطفة المباغتة أن تسبق بفترة قصيرة ولكنها ثمينة إحتمالات تكرار التدخل المعادى، التى قد تكون وقد لا تكون فى ضخامة أو حتمية التدخل السابق نظراً لإختلاف أهداف القتال هذه المرة. ولكن المهم على أية حال أنه لم يعد هناك مفر للأصدقاء الكبار من أن يدركوا جيداً- وقد أدركوا بالفعل- أن أى تدخل جديد ينبغى أن يجابه بتدخل مضاد. وعلى

الأقل فإن هناك من أشكال التدخل المضاد ما لا يدخل تحت باب التصادم الرسمى، تماماً على نحو ما فعلت أمريكا فى تواطؤها الغادر، فيمكن أن تقوم طائرات الأصدقاء بحماية أجوائنا بمظلة كثيفة فى الوقت الذى تتفرغ فيه طائراتنا للهجوم على العدو.

نقول هذا ليس فقط لأن المعركة لم تعد بين العرب وإسرائيل وإنما بين العرب وأمريكا، و لأن أمريكا أعلنت بجلاء له مغزاه أن نتيجة المعركة السابقة «إنتصار للغرب»، وأنما كذلك لأن إنكسار العالم العربى هو إنكسار لطليعة وقيادة العالم الثالث، وسقوط العالم الثالث فى يد «العالم الأول» ليس إلا الخطوة الأولى لحصار وتطويق «العالم الثانى» وضربه والعودة به إلى نمط وتوازن ١٩٤٥.

إن شراء «التعايش السلمى» بأى ثمن لوضح نهاية الحرب الباردة- هكذا ينبغى أن يدرك، وقد أدرك، الأصدقاء الكبار- يتحول، وما ينبغى له، فى كل العالم إلى «تعايش إستسلامى» لن

يفيقوا عليه إلا وقد تحولت الحرب الباردة إلى حرب ساخنة مفروضة عليهم عدواناً أو دفاعاً. أن التعايش السلمى لا يمكن أن يعنى أن تشل يد أحد الطرفين لينطلق الآخر إستعمارياً معربداً فى العالم ليعيده منطقة نفوذ له، ولا يمكن أن يعنى العودة إلى نمط القرن التاسع عشر. وهذا الطرف على أية حال لا يفعل ذلك إلا ليحكم ضرب وتحطيم الطرف الآخر فى نهاية المطاف وكهدف أساسى.

إن التعايش السلمى بالنسبة للولايات المتحدة ليس فى صميمه ألا تكتيكاً مرحلياً- على طوله- لتدمير المعسكر الآخر. وكل إنتصار غادر يترك له ليفلت به إنما يدنيه من ذلك الهدف وليس إسقاط المقاومة العربية إلا خطوة على الطريق إلى رقاب الأصدقاء الكبار. والتدخل المضاد من جانب هؤلاء الأصدقاء فى وجه أى تدخل أمريكى جديد إنما هو دفاع عن النفس مثلما هو دفاع عن الغير. ومن حسن الحظ أنهم قد عادوا فحددوا موقفهم وعملهم

بوضوح مدرك وتصميم مخلص، حيث أعلن رئيس وزراء الإتحاد السوفيتى فى الأمم المتحدة أن عدم إنسحاب العدوان الإسرائيلى يعنى تجدد النزاع المسلح، وأن «تجدد النزاع المسلح فى الشرق الأوسط قد يؤدى إلى حرب نووية».

وبعـــد...

وبعد، فإن المعركة مستمرة، والجولة الثانية آتية على الأرجح، وعلينا أن نعيش روح الحرب بنفسية الحرب وعقلية الحرب. وغدا سترغم إسرائيل على أن ترتد إلى قوقعتها، وبعد غد ستسحق داخل قوقعتها بالدم والنار والحديد العربى ورغم كل طغيان الإمبريالية الأمريكية السفاحة وتآمر قوى الشر والعدوان العالمى.

إن جرحنا ثخين- ولكنه ليس بقاتل، والصدمة شديدة- ولكنها غير صاعقة. وإن أمة تبلغ المائة مليون وتملك الوطن الذى نملك بماضيه وموقعه وموارده لا يمكن أن تموت بمثلهما، وليس

فينا مكان لإنهزامه أو لإنهزامية. بل إن أمة تبلغ المائة مليون وتملك الوطن الذى نملك بماضيه وموقعه وموارده لتكون حقاً غير جديرة بالحياة- ولنقلها بصراحة وبغير خداع للنفس- إذا لم تعش وللثأر وللثأر وحده وإن لم تعش لتمحو العار وتسترد الحق المقدس. أو كما عبر الرئيس الجزائرى «وليحكم علينا التاريخ كخونة إذا قبلنا هذه النكسة».

رقم الإيداع ٩٤/٢٨٩١
I.S.B.N 977 - 208 - 129 - 6



أعمال تنشر فى مكتبة مدبولى

١ – صاحب شخصية مصر وملامح من عبقرية الزمان

بقلم / عبد الحميد صالح حمدان

٢ – سيناء فى الاستراتيجية والسياسة والجغرافيا دكتور / جمال حمدان

٣ – نحن وأبعادنا الأربعة دكتور / جمال حمدان

٤ – مختارات من شخصية مصر (١) دكتور / جمال حمدان

٥ – مختارات من شخصية مصر (٢) دكتور / جمال حمدان

٦ – فلسطين أولاً . . . أسرائيل دكتور / جمال حمدان

٧ – تعدد الأبعاد والجوانب دكتور / جمال حمدان

مكتبة مدبولى ٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ت ٥٧٥٦٤٢١

مكتبة مدبولى طيبة ٢٠٠٠ طريق النصر – مدينة نصر ت ٤٠١٥٦٠٢

مكتبة مدبولى